أساطير من تاريخ اليمن

حمزة علي لقمان



دار المسيرة

مركز الدراسات والبحوث اليمني

صنعاء



أساطير من تاريخ اليمن

حمزة علي لقمان

أساطير من تاريخ اليمن

مركز الدراسات والبحوث اليمني
صنعاء



الإهداء

الى أمي
الى أبي
الى اليمن
الى شعب اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين

مقدمة

نحن شعب يمكنه أن يفخر بحضارته العريقة التي كان لها أثرها الكبير علينا والتي جعلت من بلادنا قرونا عديدة مخزنا عالميا لتموين أنحاء كثيرة من الدنيا بما تحتاج اليه من الضروريات والكماليات، ولا تزال آثار تلك الحضارة باقية الى يومنا هذا تطل علينا من أعالي جبالنا الشامخة وتظهر من تحت الرمال المتراكمة

وشعب له مثل حضارتنا يستطيع أن يعتز بثقافته التي هي السلوك والعادات والتقاليد التي أوجدتها الإنسانية لتحقيق الإنسانية. ومثل هذه الثقافة تسمى علمياً « فولكلور » FOLKLORE وقد أصبحت موضوعا للباحثين الذين يرون أن حضارات الشعوب يمكن التعرف عليها من خلال عاداتهم وممارساتهم الحاضرة والماضية، كما أصبح علم الفولكلور جزءا مهماً من الدراسة في الجامعات والمعاهد والمتاحف والجمعيات كفرع من علم الإنسان الثقافي المعروف علميا بالأنثروبولوجي ANTHROPOLOGY والاثنولوجي ETHNOLOGY.

وأهم ما يهتم علم الفولكلور: الأساطير والحكايات والأمثال والخرافات والقصائد الشعبية والأهازيج والأغاني. ويمكن تفسير كلمة فولكلور بهذه الاصطلاحات:

العادات المأثورة – الآثار الشعبية القديمة – العادات القديمة والمعتقدات – الروايات الأسطورية الخرافية – الظواهر النفسية عند الشعوب –

الأساطير والخوارق عند الشعوب - الموروثات الثقافية - الثقافة البدائية - الممارسات والعادات والأفكار - الفنون الكلامية والآداب الشفوية - التراث الشعبي.

والكلمة فولكلور تتألف من كلمتين: (فولك) FOLK وتنطق بالانكليزية (فوك) وتعني «شعب» و (لور) LORE وتعني «ثقافة أو معرفة أو حكمة أو سلوك». والكلمة الألمانية (فولكسكنده) VOLKSKUNDE تؤدي نفس المعنى..

والأساطير تؤثر تأثيرا فعالا في حياة الشعوب خصوصا تلك التي لا تدوّن آدابها وتصرفاتها وسلوكها لكنها تحفظها عن طريق الرواية. وبعضها تخيلات والبعض يتضمن قيمة فلسفية ومبادىء خلقية.

وقد يكون لبعض الأساطير طابع ديني نجده في المجتمعات الريفية والبحرية التي تعتبر أكثر تمسكا بالتقاليد التي يعود بعضها الى عصور موغلة في القدم حين كان الأسلاف يعبدون الأفلاك السماوية ويقدسون أرباباً محليين هم أقرب شبها بالقديسين عند المسيحيين والأولياء عند المسلمين والاعتقاد الراسخ بكراماتهم والتي نجد لها بقايا ورواسب الى يومنا هذا بسبب استمرار ممارسة بعض الطقوس والشعائر وتغليفها بغلاف الدين البديل وبعضها ليس من الدين في شيء. فقد كان الأوائل يقدمون النذور والقرابين لأربابهم وكهانهم ليمنحوهم البركة وليحصلوا على ما يتمنونه ولحماية أطفالهم من العين ولمساعدة الحوامل عند الوضع ولتسهيل عمليات الغزو والهجوم والدفاع عندما تتأزم الأمور بين دولة وأخرى.

وقد وجدت لوحة رخامية بالخط المسند لجنوب الجزيرة العربية يذكر فيها مقدم النذر أنه يهب جسمه وروحه وأولاده وممتلكاته ونور عينيه وكل ما يفكر فيه للاله «سين». وفي لوحة أخرى دوّن موظفان في قصر ملكي انها قدما سبعة تماثيل ذهبية بالنيابة عن ملك حضرموت «آل عز يلط» للاله «سين».

ونلاحظ أن كثيرا من الناس لا يزالون ينذرون أولادهم للأولياء. وكما كان

البخور من لوازم الطقوس الدينية في معابد الآلهة لا يزال الناس يستعملونه في كثير من الأماكن.

إن الاساطير هي المعبّرة عن فلسفة الشعوب واستمرار سردها يساعد على بقائها.

إنني أدرك أنني لم أتوسع في ذكر موروثاتنا مثل القصص الشعبية والقصائد الحمينية والأمثال وهي كثيرة، وقد قام بعض الأخوة الكتاب اليمنيين من تسجيل بعضها وحبذا تمكنوا من كتابة المزيد من الموروثات مثل أقوال وأمثال وحكم علي بن زايد ومعارفه في شؤون الزراعة والأحوال الجوية ومثل قصة وضاح اليمن الذي قيل أن جماله الباهر عرضه للموت في صندوق مغلق وغيرها من الممارسات والعادات.

والله الموفق

حمزة علي لقمان

من أساطير الأولين(*)

يذكر المطلعون على الأساطير اليونانية قصة مملكة الأمازون التي كان سكانها من النساء اللاتي لم يكنّ يسمحن لغير رجل واحد فقط ليعيش معهن، فإذا وجدن غيره قتلنه وأبقين القادم الجديد. وعندما تلد الواحدة ولدا ذكرا قتلنه وعندما تلد بنتا أبقينها. ويظهر أن الرحالة الإيطالي ماركو بولو كان متأثراً بأسطورة الأمازون عندما زار جزر كوريا موريا. فقد قال في تقرير له:

« توجد جزيرتان إحداها تسمى جزيرة الرجال والأخرى جزيرة النساء، وفي الأولى يعيش الرجال وحدهم بدون زوجاتهم أو أية امرأة أخرى.. وفي كل سنة حين يحل شهر مارس، يذهب الرجال الى جزيرة النساء حيث يمكثون مع زوجاتهم ثلاثة أشهر، مارس وإبريل ومايو - وبعد انقضاء هذه الفترة يرحلون الى جزيرتهم للعمل مدة التسعة الأشهر الأخرى. أما بالنسبة للأطفال الذين تلدهم أمهاتهم في جزيرتهن، فإذا كنّ إناثا بقين مع أمهاتهن وإذا كانوا ذكورا بقوا تحت رعاية أمهاتهم الى أن يبلغوا الرابعة عشرة من العمر ثم يغادرون الجزيرة ليلتحقوا بآبائهم للعمل كحاصدين.. كانت العادة قد جرت على أن تبقى النساء في جزيرتهن لا يعملن شيئا سوى تربية أطفالهن وجمع الخضروات القليلة التي تنموا في الجزيرة، ويرسل لهن رجالهن محتاجاتهن البسيطة الأخرى. »

هذا الوصف لجزيرتي النساء والرجال يعكس اعتقادا ذكره المؤرخ والجغرافي اليوناني بلايني بقوله أن قيمة البخور الدينية المقدسة تعتمد على طهارة الرجال الذين يجمعونه من أشجار اللبان، وكانوا يعتبرون مقدسين ولم يكن يستطيع

(*) راجع تاريخ الجزر اليمنية للمؤلف.

أحد، سواء كان السيد مالك الأرض بحسب النظام الطبقي في بلاد البخور، أو المزارع الحاصد، سواء كان عبداً أو حراً، أن يلمس شجرة اللبان إذا كانت طهارته قد نقضت بواسطة وجود امرأة أو ميت. وكانت روح الشجرة امرأة تحميها الثعابين المتقمصة أرواح الموتى. وإذا جمع اللبان بدون نجاسة فإنه يشكّل وسيلة ذات أثر عظيم في الطقوس الدينية. كما وأن لعادة استعمال اللبان طرق معينة بعد الاتصال الزوجي كان ينتفع بها في القصور العربية والبابلية كما ذكر هيرودوتس وسترابو.

من هذا السرد تتضح لنا معالم القصة الطريفة التي أوردها ماركو بولو. فقبيلة بني جَنَبَة المتنقلة بين جزائر كوريا موريا والساحل الشمالي الشرقي والتي يعمل رجالها في صيد السمك وكرعاة في بعض المواسم المعينة وأيضا في حصد اللبان في مواسم أخرى يخضعون لقوانين صارمة يحافظ عليها ملاك الأشجار. فعندما تظهر أولى بشائر سائل اللبان في فصل الربيع يتركون زوجاتهم للعمل في جمع أفخر أنواع اللبان الأبيض ثم يبقون في مناطق الأشجار ليستمروا في جمع ما يصدر عن الأشجار بعد ذلك حتى ينتهي الموسم ويعودون الى عائلاتهم.

هنا لا بد وأن نذكر أن من غير المعقول أن توجد جزيرة للنساء وأخرى للرجال كما قال ماركو بولو. فالصحيح هو أن جزيرة النساء كما وصفها هي إحدى جزر كوريا موريا حيث تبقى النساء وحدهن بعد رحيل رجالهن. أما (الجزيرة) الأخرى التي يسكنها الرجال فلم تكن غير ساحل ظفار وحضرموت الذي كان الحاصدون يذهبون اليه من جزيرتهم ليحصدوا اللبان.

في جزيرة سقطرة

حين جاء مؤلف كتاب الطواف حول البحر الأحمر الى جزيرة سقطرة ذكرها باسم ديوسكورايدا قائلا بأن لهذا الاسم صلة بالهند، فقد كانت الجزيرة ملاذاً للقراصنة الهنود وأن الاسم مشتق من السنسكريتية «دفيباشوكادارا DVIPA SUKHADHARA التي تعني «موطن السعادة».

وتروى قصة، أن قبائل القمر تدّعي نسبتها الى طائر الاله فشنو VISHNU الذي حفظ الأميرة سيتا SITA وأعان حبيبها راما RAMA على اكتشاف ملجئها، وتذكر هذه القبائل أن مقرها كان في سنكودرا بيت SANKODRA BET أي جزيرة سنكودرا التي تسمى أيضا سنكادوارا SANKHADWARA أي صدف اللؤلؤ.

والمعروف أن الجزيرة تنتج مادة دم الأخوين، ولهذه المادة كما تقول الأسطورة علاقة بالقتال الشهير ضد التنين للحصول على بقعة مقدسة خالية من الشرور والآثام. ومثل هذه القصص شائع في بلدان البحر الأبيض المتوسط حيث نجد قصة أبولو APOLO في دلفي DELFI وقصة أدونيس ADONIS في سوريا وغيرها. وهي قصص كانت الأساس الذي بنيت عليه قصة القديس جورج والتنين ST. GEORGE AND THE DRAGON ومن المعتقد أن تلك القصص سامية الأصل واستعبرت منهم. وفي كل أسطورة يكون المقاتل إنسانا أو إلها، أما في سقطرة فقد كان فيلا!

وتقول أسطورة هندية ان للثالوث الهندي براهما (الخالق) BRAHMA وفشنو (الحافظ) VISHNU وشيفا (المخرب) SHIVA معبداً في الهند يسمى معبد الفنتا ELEPHANTA وكانت الجزيرة على صلة وثيقة بخليج عدن. وكان الفيل يمثل براهما أو فشنو بينما يمثل التنين شيفا. وكان الدم الذي أريق في القتال المرير بين الفيل والتنين هو دم الأخوين. وكان التنين قد التف حول الفيل وأخذ يمتص دمه متلذذا. ولما نزفت دماؤه وقع، وكان وقوعه على التنين فسحقه سحقا وفاضت روحاهما معاً. وكان دم الأخوين رمزا للصراع بين شخصيات الثالوث الهندي.

ويذكر الرحالة ثيودور بنت T. BENT إن العرب لا زالوا يطلقون اسم دم الأخوين على الشجرة المنتجة له، والاسم كما قلنا هو ديوسكورايدا. أما ديوسكوري فقد كانا كاستور وبولكس CASTOR AND POLLUX اللذان يساعدان الناس عند الشدائد، وهما الإبنان التوأمان للإله جوبيتر وزوجته ليدا

أما هوارس فيذكر أنها الإبنان التوأمان لهيلين JUPITOR AND LIDA HELLEN اللذان يساعدان السفن في الأمواج الهائجة ويرشدانها الى شواطىء الأمان.

وتذكر قصة مصرية يعود تاريخها الى الأسرة الفرعونية الثانية عشرة أن الجزيرة هي جزيرة العباقرة المسماة «باعنخ» مقر ملك بلاد البخور. وربما أن لفظة «عباقرة» تعني «الجن» أو «الروح» التي يقال أنها موجودة في شجرة البخور المقدسة.

وثمة سبب هام يدعو الى الاعتقاد أن هذه الجزيرة هي جزيرة السعادة الواقعة في أبعد نقطة وصلها البطل المتجول في قصة الأوديسا البابلية BABYLONIAN ODYSSEY هي قصة البطل جلجامش GILGAMESH التي تتعلق بقصة البحث في العالم المجهول عن روح صديقه الغائب أنكيدو ANKIDO بعد صلاة منذورة لإله الموت نرجال NERGAL وبعد أن وجد روح أنكيدو سألها عن قانون الأرض. والقصة تسجيل مادي لأولى الهجرات حول شواطىء الجزيرة العربية.

وقد لخص هذه النظرية غلازر من كتاب هومل «تقاليد العبرانيين» فأشار الى أن التسجيلات المصرية القديمة تقدم لنا جزءا مهما من الأدلة المختصة بالأجناس، ففي عصر الأسرة المصرية الثانية عشرة (حوالي ٢٢٠٠ سنة ق م)- يظهر جنس بشري في أفق مصر هو الجنس الكاشي في بلاد النوبة. وكان هذا الاسم قد أطلق أصلا على «عويلم». وجاء ذكر الشعب الكوشي في التوراة وأن النمرود هو ابن كوش. وكان أسمهم في البابلية كاشو (وكانت في بابل مدينة اسمها كيش)، وذكرهم المؤرخ هيرودتس باسم كيشوى، ويسمون في الهند كتش. وذكرهم المؤرخ الهمداني على أنهم أولاد كوش ابن حام ابن نوح في الجزء الأول من الإكليل وأن النمرود هو الابن الأكبر لكوش. كما يقول أن عويلم هو ابن سام ابن نوح وشقيق ارفخشد وأشور ولاوذ وإرم. ويصفهم هومر وهيرودتس باسم الأثيوبيين أصحاب الوجوه المحروقة وأنهم أصلا العويلميون الكوشيون الذين

انتشروا في الجزيرة العزبية وشقوا طريقهم الى أفريقيا. والمعروف أن جزءا من الشعب الكوشي كان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة يتنقل في المناطق الساحلية العربية من البحر الأحمر. وذكر العالم العبراني الرابي عقيبة الذي زار اليمن في القرن الأول ب م أنه رأى فيها جماعات من الكوشيين.

وكما تذكر الترجمة العبرانية أن الاسم أطلق على أجزاء مختلفة من أواسط وجنوب الجزيرة العربية. وهذا يثير نقاشا، فمنذ العصور السابقة للألفي سنة الأولى ق م لا بد وأن العويلميين استعمروا أفريقيا الشمالية الشرقية بعد أن داروا حول الجزيرة العربية في طريقهم الى هناك. وتدعم هذه النظرية الحقيقة بأن اللهجات الكاشية المزعومة لشمال شرق أفريقيا مثل الجالة والصومالية والبيجا وغيرها من اللغات القريبة منها تتضمن قواعد نحوية مشابهة للألسن المصرية والسامية القديمة المتصلة بتركيب الكلام الذي يختلف تماما ولا يقدم أي تشابه مع تشابه اللغات السامية أو أية لغة زنجية في أفريقيا إلا أنها تتشابه كثيرا وتركيب الكلام في اللغات الأورالية والألتيكية في آسيا التي إليها تنتمي اللغة العويلمية. وطبقا لهذه النظرية فإن الكوشيين الذين كثيرا ما ذكرهم هيرودتس باسم الأثيوبيين لابد وأنهم أصلا العويلميون الكوشيون الذين انتشروا في الجزيرة العربية وشقوا طريقهم الى أفريقيا.

أما اسم جلجامش فله نهاية عويلمية. وقصة النمرود البطولية وتجولاته حوالي الجزيرة العربية لا بد وأنها الناحية الأسطورية للهجرة التاريخية للكوشيين من بلاد عويلم الى شرق أفريقيا وأن النمرود ليس إلا تشخيصا لعنصر الجنس العويلمي الذي لا زالت بقاياه موجودة في بلاد العرب وبلاد النوبة.

ويصف كتاب هومل مراجع قصة البطولة التي بشكلها الحالي تعود الى سنة ٢٠٠٠ ق م ففي المطلع التاسع تذكر لنا القصيدة كيف أن جلجامش غادر بلاد «ماشو» في وسط الجزيرة العربية التي كان يحرس أبوابها عقارب آدميون وكان على البطل أن يشق طريقا طولها اثنا عشر ميلا خلال ظلمة حالكة ثم يصل الى فضاء مغلق بواسطة ساحل البحر حيث عاشت الآلهة العذراء سبيتو التي تقول له

أن أحدا منذ الأزل لم يستطع أن يعبر البحر سوى البطل شاماش... «أن العبور صعب والطريق خطرة وأن بحار الموت مغلقة، مداخلها مسدودة، فكيف إذاً تستطيع يا جلجامش أن تعبر البحر»؟.

لكن جلجامش يذهب باحثاً عن «أرد إي» الملاح الذي كان يقطع شجر الأرز ويطلب منه أن يعبر به البحر إلى جزيرة السعادة. وبعد أن يقطع الملاح مئة وعشرين شجرة يصعدان الى ظهر السفينة التي تتقاذفها الأمواج لكنها تقطع رحلة تستغرق مئة وأربعين يوما في ثلاثة أيام وتصل الى بحار الموت (ربما تشير الى باب المندب) ثم الى جزيرة السعادة حيث كان يعيش شاماش نبشتم، ويقال أوتانبشتم (هو نوح البابلي) الجد الأكبر لجلجامش.

أما جزيرة «باعنخ» التي ذكرتها القصة المصرية فربما أنها أرض البخور باعنخاي التي ذكرها فرجيل. والقصة نفسها تشير الى أن جزيرة سقطرة كانت مركزا تجاريا عالمياً هاماً ليس بعيداً عن عصر نبي الله إبراهيم. وفي الجزيرة تقابلت أساطيل مصر والجزيرة العربية والإفريقيين والهند.

وهذا الاسم «باعنخ» يربطه غلازر مع أسماء أخرى مثل «بانو» و«بوني» و«بنت» وأيضا «اوبوني» و«فينيتشي» (فينيقي) وهو الشعب الذي ارتبط ذكره بالطائر المقدس «فينكس» المعروف عند العرب باسم «العنقاء». ويجدر أن نلاحظ باهتمام الشبه بين الكلمة عنخ أو عنخاي والكلمة عنقاء. ويروي المؤرخ بلايني القصة الطريفة التالية:

«العنقاء طائر بلاد العرب الشهير الذي يبلغ حجمه حجم النسر، له ريش ذهبي ناصع حول عنقه بينما لبقية جسمه لون قرمزي فيما عدا الذيل الأزرق اللون. وعنقه مزين بعفرة. أما رأسه فله تاج من الريش. وهذا الطائر مقدس لدى الشمس وحينما يكبر في السن يبني عشا من القرفة وحبات البخور ويملأه بالعطور ثم يمدد جسمه ليموت. ومن عظمه ونخاعه تتولد دودة صغيرة الحجم تتحول الى طائر صغير يكون أول عمل له القيام بدفن سلفه ثم يحمل عشه بأكمله الى مدينة الشمس بالقرب من باعنخاي، وهناك يضعه على المذبح المقدس، ومع

دورات السنة العظيمة تظهر دودة جديدة مرة بعد أخرى لتعيد نفس المنوال كما فعل الطائر الأول في الفصول وعند ظهور النجوم »

وجاء في سفر أيوب: « ثم سأموت في عشي وسأضاعف عدد أيامي كما فعل خور »

وقال غلازر أن أسطورة هذا الطائر مرتبطة بالآله المصري الذي له وجه صقر.

وهنا يجدر أن نذكر قصة غريبة تثبت العلاقة بين طائر العنقاء وجزيرة سقطرة، وهي قصة يرويها قبائل المهري سكان سقطرة وساحل المهري في حضرموت:

« تزوج مهري من أهالي سقطرة فتاة مهرية من أهالي قشن في ساحل حضرموت ثم عاد الى سقطرة تاركا زوجته وحيدة تندب حظها في قشن. وطال غياب الزوج سبع سنوات كانت الزوجة أثناءها تزداد شوقا الى الالتقاء به لكن دون جدوى. وقد جرت العادة في قشن أن تخرج النساء في ليالي العشرة أيام الأولى من محرم الى الشاطىء حيث يغتسلن بعيدا عن الأعين ثم يعدن الى منازلهن. وفي إحدى تلك الليالي روت الزوجة حكايتها لإحدى صديقاتها على الشاطىء، فنصحتها بأن تبقى في الليلة القادمة على الشاطىء بعد أن تعود النساء الى منازلهن وقالت لها بأن طائر العنقاء سوف يأتي وينتظر منها أن تركبه وأن عليها أن تفعل ذلك. وبقيت الزوجة على الشاطىء في الليلة التالية وأقبل الطائر الضخم وصعدت على ظهره فطار بها في أعالي الجو، وفي لحظات وجدت نفسها في سقطرة والتقت بزوجها وأخبرته عن الطائر الذي نقلها الى سقطرة. وبعد ذلك عادت الى الشاطىء مع زوجها وكان الطائر في انتظارها، ولما همّت بأن تمتطي ظهره أشار عليها الطائر بأن تغتسل أولا ففعلت وقبل أن تفترق عن زوجها قالت له بأنها قد تحمل منه ولذلك تطلب منه دليلا تقدمه لأهل بلدتها على أنها كانت معه فقدم لها خنجره وخاتمه وورقة سجل فيها تاريخ تلك الليلة. وبعد ثلاثة أشهر شعرت بالحمل فقدمت الأدلة لأهلها فاقتنعوا بطهارتها ».

البركان الملتهب

نظرا الى أن عدن كانت تتكون من أخدود هائل كان بركانا ثائراً في الأزمنة القديمة فقد ألفت القصص والأساطير حوله. ومن بين هذه القصص أن القديس بارثلوميو زار عدن وهو في طريقه الى الهند، وأنه رأى أهل عدن واقعين تحت سيطرة الجن، يعبدون النار والشيطان ويقدمون القرابين. وكان الشيطان يسكن بئرا يقال أنها تقع فوق جبل صيرة، ويقال أنها في شارع الزعفران. وكان الناس يحصلون على مائهم من هذه البئر. وحين يجتمع الناس حول البئر كان الشيطان يصرخ من بطنها ويقذف باللهب فيخر الناس سجدا. وغضب القديس وقرر أن يحضر ويشاهد أعمال الشيطان. ولما رأى الشيطان القديس صرخ وقذف باللهب والماء فوضع القديس عباءته حول وجهه وتقدم وهو يقول «بسم المسيح المنقذ ابتعد أيها الشيطان وليتجمد ماء هذه البئر» وفي الحال انطفأت النار وفرّ الشيطان الى غير عودة وتجمد ماء البئر.

وجاء في القصص الإسلامية أن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قال عندما ذكر أشراط الساعة: «نار تخرج من قعرة عدن تطرد الناس الى المحشر» وقد روى هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه.

وقال القاضي أبو الطيب عبد الله بامخرمة: «في رأس جبل صيرة حصن قديم فيه رتبة وأنه سمع أن القاضي العدني جمال الدين ابن كبن طلع الى رأس هذا الجبل ومعه جمع من أعيان البلد فأدلوا في البئر حبلا ثم رفعوه وقد احترق طرفه. وقال شيخنا الوالد رحمه الله: فلما حكيت هذه القصة للملك المجاهد علي بن طاهر قرر أن يصعد الى الجبل في يوم مقرر ولكن حين حل ذلك اليوم وصلته أخبار مقتل أخيه الملك الظافر عامر بن طاهر عند أبواب صنعاء فألغى رحلته الى الجبل وغادر عدن الى صنعاء»

وفي القرآن الكريم الآية المجيدة «وبئر معطلة وقصر مشيد»، ويفسر بعض الناس أن البئر هي بئر الرئيس أو بئر الرأس في عدن وأنها لأمة من بقايا ثمود.

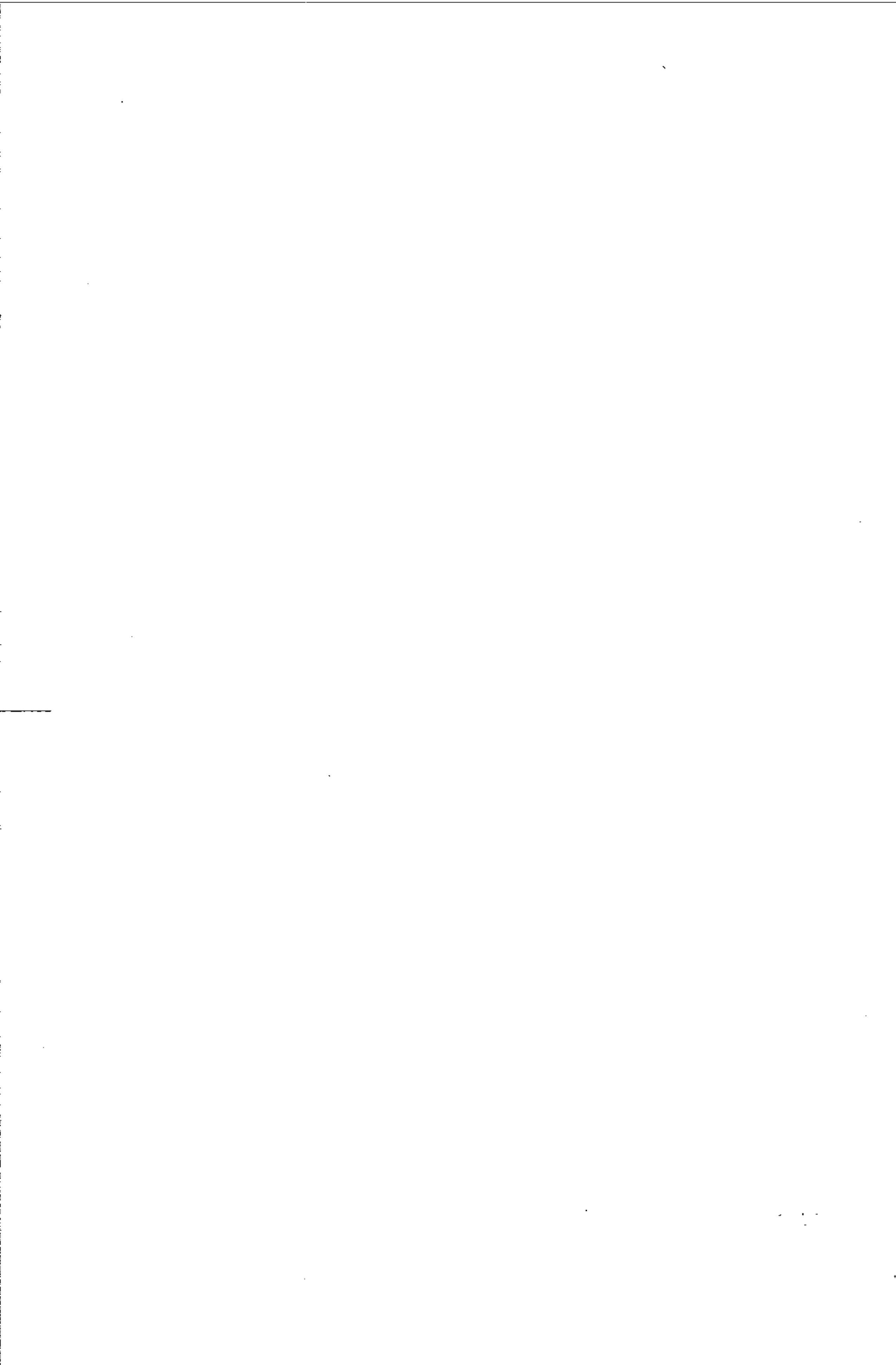
وكان أهالي عدن في العصور الماضية يعتقدون بوجود الجن والعفاريت في

جزيرة صيرة وحينما كان دخول السفن متعسرا بسبب الرياح الموسمية، كان الأهالي يأخذون سبعة ثيران الى جبل صيرة وقت الغروب، وبعد منتصف الليل يذهبون ويختارون واحدا يربطونه هناك ويعودون بستة، وقبيل انبثاق الفجر يذبحون الثور المربوط ويقذفون بلحمه. وكانوا يعتقدون بأن السفن تستطيع بعد ذلك أن تدخل الميناء بسلام. واستمرت هذه العادة سارية حتى أبطلها حكام بني زريع في عدن. ومثل هذه القرابين نسميها «نشوح».

وذكر ابن المجاور أن النار تخرج من البئر التي في جبل صيرة وأنها موجودة، ويقال أن البئر هي التي في سوق الصاغة والصيارف في مدينة عدن، وإن القول بأن النار تخرج من عدن لا يدل على مذمة عدن وانحطاط مقدارها، فإن رسول الله قد قال «يخرج من عدن اثنا عشر ألفا ينصرون الله ورسوله وهي خير من بيني وبينكم». وقد روى الحديث الطبراني.

وقال ابن المجاور أيضا أن «بالجبل بئرا تسمى عند حكماء الهند «بيران» يخرج منها طول الحياة دخان ويسمى الآن بئر الهرامسة وليس يمكن لأحد النظر فيها من وهج النار. وتوجد حجارة مكسرات وأفاع نائمات وحيات قائمات حول البئر».

ويظهر أن ابن المجاور كان متأثرا بالأساطير الهندية عندما قال أن الجني راون – أو رافانا – سكن في عدن، وأن الهنود ذكروا أن عدن كانت سجنا لداسا شور – أو دس سير – ذي الرؤوس العشرة التي كان أحدها رأس غزال. وأن البقعة الممتدة من جبل الخضراء حتى جبل المنظر ومن هناك على طول ساحل حقات وساحل صيرة حتى جبل حديد كانت سجنا للجني راون ذي الرؤوس العشرة.



المعتقدات الدينية

كانت جنوب الجزيرة العربية تتكون من عدة دول هي معين وسبأ وقتبان وحضرموت وأوسان وأخيرا حِمْيَر بالإضافة الى دويلات شبيهة بالمشيخات هي تفيد وجبأ ودثينة وسمعي وربعن والبون ومراثد. وقد اشتهرت جنوب الجزيرة بتجارتها الواسعة وحضارتها الذائعة الصيت حتى وصفت بأنها «أرابيا فيلكس»، أي بلاد العرب السعيدة.

وكان الناس يعبدون الأفلاك السماوية: القمر وقرينته الشمس وابنها كوكب الزهرة. وقبل أن تتحول هذه الدول الى ممالك كان رئيس كل دولة يعرف بلقب «مكرب» الذي يعني رئيس الكهنة الذي كان يتمتع بسلطة دينية وسياسية - أي أنه كان رئيسا دينيا وملكاً دنيوياً. وكان يعتبر الابن الأكبر للآله القمر بينما كانت بقية أفراد الشعب الأبناء الصغار الذين كان خضوعهم للابن الأكبر خضوعاً للآله.

وكان المجتمع مقسماً الى طوائف تقف على قمتها الطائفة الدينية التي هيمنت على شؤون الدولة والشعب، ثم طائفة العسكريين حملة السلاح ثم طائفة القبائل التي يتكون منها المقاتلون ثم طائفة أصحاب المهن من التجار والكتاب والمهندسين والصناع والأطباء والبنائين والنقاشين وغيرهم، ثم طائفة المزارعين ثم طائفة العبيد. ومن الأمور الغريبة أن المجتمع الريفي الحاضر في كثير من الأنحاء مقسم الى طبقات تقف على قمتها طبقة السادة الدينيين (سلالة السيدة فاطمة الزهراء والإمام علي ابن أبي طالب)، ثم طبقة المشائخ (وهم ليسوا شيوخ القبائل بل الذين كانت لأسلافهم علاقة بالشؤون الدينية)، ثم طبقة القبائل ثم طبقة أصحاب المهن

ثم طبقة المزارعين ثم طبقة الصبيان (أي الخدم). وأغرب ما في هذا التقسيم أن كل طبقة مقسمة الى درجات لا يمكن لها أن تتعدى حدودها حتى طبقة السادة التي ينتمي جميع أفرادها الى أصل واحد.

ومن النقوش التي تم اكتشافها حتى الآن نرى أن الناس كانوا يرمزون الى الآله القمر بقرني الوعل أو الثور لأنها أقرب شبهاً بالهلال وكانوا يضعون القرنين فوق الأبواب الخارجية أو في أركان المنازل تبركا بمعبودهم القمر. وعلى الرغم من انقراض عبادة الأفلاك السماوية لا يزال كثيرون في الريف والمدن يضعون القرنين فوق الأبواب وأركان المنازل ويرسمون صور الشمس والهلال والنجم داخل غرف منازلهم. وهم يفعلون هذا للزينة ولمنع خطر العين الحاسدة غير مدركين أنها عادة توارثوها عن الآباء الذين عبدوا القمر والشمس والزهرة المخمسة للنجم الذي كانوا يسمونه عثتر ويعبدونه على أنه ابن القمر والشمس، فقد كان الناس وخصوصاً النساء يتقربون إليه بتقديم النذور كما يفعل كثيرون الآن حين يقدمون النذور للأولياء.

ويظهر أن الإسلام بعد أن انتشر نوره وتوطدت دعائمه لم يعترض على أن تكون النجمة المخمسة والهلال شعاراً إسلامياً.كما نجده اليوم باللونين الأخضر أو الأبيض في أعلام بعض الدول الإسلامية. أما النجمة ذات اللون الأحمر فترمز الى نظام الحزب الواحد في دول أخرى.

ويصادف الباحث أثناء تجواله في مدن جنوب الجزيرة العربية وقراها طرائف عجيبة تجعله يتذكر شريط الطقوس الدينية في عصور ما قبل الإسلام. ففي اليمن الشمالية نجد الناس يستعملون الكلمة «ناهي» للتأكيد على قول أو فعل. وهذه الكلمة تعني في اللغة العربية الجنوبية القديمة «الذكي» و«الحكيم» وهي اسم رب كان يعبده أهل ثمود في شمال ووسط شبه الجزيرة العربية. وربما أن الأجداد كانوا يقسمون بربهم «ناهي» فاستمر الأبناء يستعملونه دون أن يدرك كثيرون أصله.

ومن بين الكلمات التي نسمعها في حضرموت والعوالق والواحدي ويافع

وغيرها في اليمن الجنوبية والشمالية هذه الكلمات: « حَوَل » و« حَقَل » و« وَثَن » لتؤدي نفس المعنى والغرض، أي التأكيد على قول أو فعل. والكلمة « خَوَل » تعني في العربية الجنوبية القديمة « وصي » . والواقع أن « حَوَل » و« حَقَل » اسمان لربين كان الناس يقدسونهما. والكلمة « وَثَن » تعني « صنم ». وتستعمل القبائل الكلمة « وَثَّنَ » (بتشديد الثاء مع الفتح) بصيغة الفعل لتعني « أَنَّبَ واشتد في الكلام ». كما أن هذه الكلمة تستعمل بمعنى القسم، كأن يقول الواحد « وَثِّنْ لي » (بتشديد الثاء مع الكسر) أي « اقسم لي اليمين ». وأضرب مثلا على استعمال هذه الكلمة كقسم بهذا البيت من الشعر الشعبي اليمني الحميني لشاعر مشهور من آل الرويشان قالها أيام إن كانت اليمن الشمالية عرضة للمصادمات بعد قيام الثورة وتأسيس الجمهورية:

واحنـا علينا وثن لا نربش المحضر   لو ما بقي من رجال العز مغوار

ويعني هذا البيت أن علينا قَسَماً أن نربك التجمعات حتى ولو فقدنا كل رجالنا الأبطال المغاوير.

وعند تقسيم الأراضي الزراعية توضع علامات بين جزء وآخر تسمى « أوثان ». ويشير هذا الى أن الأراضي قد قسمت بموجب الشروط الشرعية الدينية القديمة وأن الوثن قد وضع بين قطعة من الأرض وأخرى ليعطي للتقسيم صبغة دينية لا يمكن الإخلال بها.

وقد سمعت في حضرموت أن بعض القبائل الصحراوية لا يزال يترنم بالكلمات « هَبْ لي يا هَبَل » حين تشد الأحمال على ظهور الجمال استعداداً للسفر. والمعروف أن « هَبَل » هو أحد الأصنام التي كانت تعبد في شمال الجزيرة العربية. كما أن القبائل الصحراوية وغيرها تستعمل الكلمة « يا بوص » وربما أن بوص كان أحد الأرباب الثانويين الذين كان الناس يعتقدون أن كراماتهم تساعد في وقت المصاعب والأزمات.

وفي عدن والتهائم اليمنية يستعمل الناس كلمة « يا هو » حين يطرقون باباً

وينادون أهل البيت. والذي لا أزال أذكره أن بعض من كنا نسميهم بالدراويش كانوا يقضون يومهم في السير المتواصل في شوارع عدن صارخين بكلمة «يا هو». كما أننا نسمع هذه الكلمة ينطقها أتباع الطرق الصوفية حين يجتمعون في حلقات الذكر. ونجد هذه الكلمة في كثير من قصائد السيد عبد الرحيم البرعي الصوفي. ويعتقد أن هذه الكلمة في اللغات السامية القديمة كانت اسم الاله الاعظم وربما أننا ورثنا استعمالها عن الأجداد الذين كانوا يذكرون الاله وهم يطرقون باباً ليبعدوا الشيطان عن البيت. وفي صنعاء وكثير من أنحاء اليمن جرت العادة على أن يذكر الواحد اسم الله وهو يصعد درجات المنزل لينبه أهل البيت الى أنه صاعد.

ومن بين الكلمات التي لا نزال نستعملها، وأظن أنها لا تستعمل في أية بلاد عربية أخرى غير منطقة البقاع اللبنانية وصحراء الأردن هي الكلمة «إلَّه». مثلا حين يقال لك «لماذا لم تذهب الى المكان الفلاني» تجيب قائلا: «إلَّه ذهبت». وهذه الكلمة أحد أسماء الآلهة عند الشعوب السامية مثل «إل» و«إلَه» و«هَلَه». ولا بد أن الأجداد كانوا يستعملونها كقسم أو للتأكيد على قول أو فعل فتوارثناها نحن الأبناء عنهم.

وعلى الرغم من الحديث الشريف «من أقسم بغير الله فقد أشرك» فإن كثيرين لا يزالون يقسمون برأس فلان وحياة فلان وكأن فلانا شريك لله في ملكوته. ولا شك أن القسم بالأولياء وبالملوك وبغيرهم من البشر عادة من عادات الجاهلية حين كان الناس يعبدون عدة آلهة وأرباب ويقدسون الكهان والملوك عملا بعبادة الأشخاص

وهنا لا بد وأن نشير الى أن الملوك حتى في العصور المسيحية والإسلامية بعد اندثار عبادة الأوثان والأفلاك السماوية كانوا يفرضون أنفسهم رؤساء دينيين ودنيويين على شعوبهم، الخضوع لهم واجب ديني محتم لأنهم - كما كانوا يصفون أنفسهم - ظل الله على الأرض من عصاهم أغضب الله حتى ولو كانت تصرفاتهم مناقضة للأوامر الالهية.

اندثار الآثار الدينية القديمة

مما ذكرنا نعلم أن الناس في جنوب الجزيرة العربية كانوا متعددي الآلهة، إلا أن مما يؤسف له أن ما أمكن العثور عليه حتى الآن لا يعطينا ما يكفي من معلومات عن شؤون العبادة القديمة، فقد اندثرت المعابد ودفنت النقوش وهدمت التماثيل واستعملت الحجارة الأثرية في أعمال بناء أخرى. وهكذا بقيت الثقافة الدينية والصلوات والأناشيد التي كانت تتلى في المعابد مجهولة حتى يومنا هذا.

ولا شك أن محاربة الأديان السماوية للأديان الوثنية القديمة التي كانت تستعمل النحت والتصوير وسيلة لعرض الآلهة جعلت أتباع الديانات السماوية يهدمون تلك الأعمال الأثرية لأنها في نظرهم من أعمال الكفار التي يجب القضاء عليها. والواقع أن رسول الله عليه الصلاة والسلام حين أمر بتهديم أصنام الكعبة المشرفة كان الغرض منه تطهير تلك البقعة المقدسة من الأوثان وتكريسها لعبادة الله الذي لا شريك له. وحين زرت حضرموت للقيام ببحث تاريخي زرت قرية السويري المجاورة لمدينة تريم وعلمت بأن العمال بينما كانوا يحفرون أساساً لمنزل مجاور لمنزل تملكه سيدة من آل العيدروس عثروا على تماثيل هدموها بمعاولهم اعتقاداً منهم أن أصنام الجاهلية يجب أن لا يبقى لها أثر، مع أن تهديمها لم يكن ضرورياً أو واجباً في عصر أصبح فيه الدين وطيد الأركان منتشراً في كل أنحاء العالم ولم يعد هناك خطر منها على عقيدة تمكنت جذورها في القلوب. بل أن تحطيمها لا يمكن أن يكون جائزاً خاصة وأنها تستعمل من أجل العلم والمعرفة. وبمثل هذه التصرفات التي يعود بعضها الى التعصب والجهل اندثرت معالم كان من الممكن أن تقدم للعلم معلومات قيمة. أما الكتب السماوية المقدسة والمصادر العربية القديمة أمثال كتابات المؤرخ الهمداني ونشوان بن سعيد الحِمْيَري وغيرها فتعطينا فكرة بدون تفاصيل.

وقد كشفت أعمال الحفر والتنقيب المتأخرة في جنوب الجزيرة العربية عن وجود إله كان له شأن كبير في حياة الناس وكانوا يطلقون عليه اسم « إل مقه »

الذي لم يأت له ذكر في المصادر العربية والإسلامية القديمة على الرغم من أن أسمه وجد محفورا في آلاف النقوش التي عثر عليها والتي منها عرفنا شيئا عن المعابد الفخمة الضخمة التي بنيت لعبادته، كما عرفنا أنواع القرابين والنذور التي كان العرب الأوائل يقدمونها له.

والأمر المؤكد هو أن التوحيد كان معروفا قبل ظهور موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فقد سبقهم أنبياء ورسل نادوا بعبادة الله الواحد. أما تعدد الآلهة فقد كان خروجاً على دعوة التوحيد، وقد انتقل ذلك النوع من عبادة الآلهة الى النواحي التي لم تصل اليها الدعوة.

وتتفق الآلهة في شمال الجزيرة العربية مع الآلهة في جنوب الجزيرة العربية في كل شيء أساسي تقريباً. وعلى الرغم من أن العرب الجنوبيين آمنوا بالثالوث الفلكي السيار القمر والشمس وكوكب الزهرة إلا أن كثرة الأسماء التي أطلقت عليها جعلت بعض الكتاب يظنون أن كل اسم لاله مستقل. والواقع أنه كان يوجد لبعض الطوائف أرباب للزراعة والري والمطر والصناعة والمواسم والفصول. وربما أن مثل أولئك الأرباب يشبهون القديسين عند بعض المسيحيين والأولياء عند بعض المسلمين الذين يؤمنون بأنهم حماة للمسافرين أو مساعدون في البحث عن المفقودات أو مدافعون عن مدن معينة ضد النوائب.

ويتكوّن الثالوث الفلكي السيار من:

القمر

الاله القومي لكل دولة في جنوب الجزيرة العربية في العصور الغابرة. وكان الأهالي يصفون أنفسهم بأنهم أبناءه. وكان الملك أو الرئيس الديني الحاكم الذي يطلقون عليه صفة « مكرب » هو ابنه الأول. وينفرد هذا الإله بكثرة الأسماء والصفات. ومن أسمائه عند أكثر الشعوب السامية: « وَرَخ » و« شَهْر » و« إل مقه » و« سِيْن » في شمال الجزيرة العربية وجنوبها وفي الحبشة. وكثيراً ما كانوا يرمزون اليه بقرني الوعل أو الثور.

وكانوا ينظرون الى « إل » كالجد الأكبر أو الأصل للقبيلة وللأمة ولبني آدم أجمعين، فكانوا يطلقون عليه اسم « أب » أو « عم » ويعني ذلك أنه الرحمن بالبشر الرحيم بهم.

وقد ذكرنا أننا نجد الاسم « ناهي » كثير الورود في النقوش الثمودية في شمال الجزيرة العربية ووسطها. وتعني هذه الكلمة « الذكي » أو « الحكيم » كما نجده باسم « مَحْرَم » الاله الحبشي الأكبر للحرب.

ومن بين أشهر أسماء الاله القمر « وَدْ » التي تعني الحب الالٰهي البعيد عن الحب الجنسي، والحب لعباده الودود بهم. وكثيرة هي الأسماء التي تطلق عليه، من بينها « ودشهرن » (أي الاله الشهر القمر) و« ودم ابم » أو « ود ابم » أو « ابم ودم » وكلها تعني الاله الودود الأب. ويدلنا هذا على أن الأجداد كانوا يعتبرون القبيلة أسرة واحدة تنحدر من أب واحد هو إلٰه القبيلة. ومن بين الأسماء الأخرى للقمر « عم ». وكان العرب الجنوبيون يطلقون على أنفسهم « ولد عم » أي أنهم أولاد الاله القمر عم.

ويجدر بنا أن نذكر أن الاسم المشترك للمعبود الخالق هو « إل » أو « إلٰه » بمعنى « الله ». وقد جاء في نقوش جنوبية ذكر « إل » كواحد من آلهة آخرين. وقبل أن ننتقل الى الالٰهين الشمس وكوكب الزهرة لا بد وأن نذكر أن الاسم « إل مقه » الذي وجد في آلاف النقوش يكاد يكون الاسم المشترك للاله القمر. والى جانب ذلك نجده باسم « ثهوان » عند السبأيين، و« سين » عند الحضارم، و« عم » و« انـي » عنـد القتبانيـين، و« ود » و« شهر » عنـد المعينيـين والأوسانيين، و« هران » عند أهل الجوف، و« وثعلب ريام » عند الهمدانيين.

الشمس

الآلهة قرينة القمر ووالدة كوكب الزهرة. ونجد لها عدداً كبيراً من الأسماء في النقوش العربية الجنوبية. ويبدأ كثير من هذه الأسماء بكلمة « ذات » مثل « ذات حِمْيَم » الذي يشير اليها كجسم سماوي متقد، وأن الشمس هي الٰهة

الحرارة الشديدة. وبينما نجد الشمس مؤنثة في جنوب الجزيرة العربية نجدها مذكرة في شمال الجزيرة العربية حيث كانوا يسمونها «إل حَمْوَن» و«بَعْل حَمْوَن». ومن بين أسماء الشمس «اث رث» كما ظهرت في نقوش قتبانية في بيحان، وتعني «اللامعة» وهي لفظة قريبة الشبه من اللفظة العبرية «اش رث» التي تؤدي نفس المعنى. ويعتقد أن الكلمة هي «اثر» أضيفت اليها تاء التأنيث. وقد يكون الاسم في الأصل هو «ذات أثر» أو «ربة الأثر» أي اللامعة أو سيدة اللمعان.

ويلاحظ في كثير من النقوش اليمنية القديمة رسم الحصان. وهذا الحيوان رمز الشمس أو حيوان الشمس المقدس عند سائر الشعوب السامية، لذلك فهو ينوب عن الآلهة الشمس التي تسمى أيضاً «ذات بعدان».

وقد ذكرنا أن العقيدة العربية القديمة كانت تقول بأن الشمس هي زوجة الآله القمر وأن كوكب الزهرة إبنهما وهذه العقيدة مصدرها أسطورة الأسرة، فالشمس العربية القديمة تقابل عند الساميين الشماليين الآلهة أم كوكب الزهرة المعروفة باسم عشتر أو عشتروت. ومن التسمية «أمْعَثْتَر» نفهم أنها أم الطفل الآلهي عَثْتَر وهي وكإلهة وكأم كانت تعتبر حامية للنساء أثناء الحمل والولادة.

كوكب الزهرة

الآله عثتر، ويسمى مختصراً عَثَتْ، هو ابن القمر والشمس. ومن بين أسمائه «أوسي عثت» الذي يعني «المعطي عثتر». ومن بين أسمائه التي لم تعرف معانيها حتى الآن: «هو عثت»، «لحي عثت»، «ذو قبض»، «ذو يهرق»، «ذو جفت»، «ذو جرب»، «حجر»، «متب نطين»، «متب قبت»، «متب مذجب»، «بهر»، وربما أن الإسم الأخير أصله «باهر» إلا أن الألف الممدودة كحرفي العلة الآخرين الواو والياء لا تكتب في لغة الخط المسند.

أما الأسماء التي عرفت معانيها فهي «عثتر شرقن» (أي عثتر الشرقي)،

مشيراً الى أن كوكب الزهرة هو نجمة الصباح. كما يفسر هذا الإسم بمعنى المشرق والشارق والمضيء والساطع واللامع والمنير.

وكان العرب يصورونه كطفل. وفي بعض النقوش العربية الجنوبية وجدت هذه الكلمات «ود وأثيرت وملك». والمعروف أن «ود» هو الآله القمر و«أثيرت» هي الآلهة الشمس، أما «ملك» فيعتقد أنه أحد أسماء عثتر.

وفي العصور القديمة كان الملك الدنيوي يُعْبَد على أساس أنه يمثل الآله الملك السماوي «ع ث ت ر». وقد وجد اسمه محفس، أما «ملك» فيعتقد أنه أحدأسماء عثتر.

وفي العصور القديمة كان الملك الدنيوي يُعْبَد على أساس أنه يمثل الآله الملك السماوي «ع ث ت ر». وقد وجد اسمه محفوراً في كثير من النقوش اليمنية كآله كان الناس يتقربون إليه بتقديم النذور في معابده وعلى الخصوص فيما يتعلق بشؤون النساء والاطفال والحمل والولادة والجمال. وكما قلنا أنه بينما كان مذكراً في جنوب الجزيرة العربية كان مؤنثاً في شمال الجزيرة العربية حيث كانوا يسمونه عشتر وعشتروت.



الزار

« الزار » كلمة امهارية حبشية تعني « الروح » و« الجن ».

وتعقد حفلات الزار لمعالجة مرضى الأعصاب الذين يعتقدون أن أرواحاً أو جنا حلّت في أجسامهم وأن الطب عجز عن شفائهم. وقد انتشرت عادة إقامة حفلات الزار الى اليمن وكثير من بلدان أفريقيا وخصوصا مصر والسودان حيث تعقد حفلات الزار في المدن والأرياف، وفي هذه الحفلات يدور الرقص والغناء على دقات الطبول الصاخبة ويقوم المريض بالرقص العنيف.

وفي الحبشة تعقد حفلات الزار تحت إشراف « العلقة ». وهذه الكلمة حبشية تعني رئيسة » كما أنها رتبة عسكرية في الحبشة، مثلا: « شي علقة » تعني « قائد ألف ». وانتقلت الكلمة الى اليمن فصارت رئيسة حفلات الزار تسمى « علقة »، وهي تقوم باستقبال المرضى وتقرير الطلبات التي ترضي الأرواح ومشائخ الجن والأعداد للحفلة.

وفي مصر تسمى رئيسة الزار « كودية »، ويرى بعض الباحثين النفسانيين أن هذه الكلمة مستوردة من أسبانيا وأنها في الأسبانية « كودياس » ولهذا يعتقدون بأن الزار جاء الى مصر عن طريق الغجر الأسبانيين.

وثمة تفسير آخر لكلمة الكودية. فقد تكون عربية مشتقة من الفعل « كدو » (بفتح الكاف وضم الدال وفتح الواو). وفي المنجد نجد الكلمة « كدّى » (بتشديد الدال) تعني بين ما تعني « سأل واستعطى »، و« الكدية » تعني « الاستعطاء وحرفة السائل الملح ». ولا يستبعد أن هذه الكلمة قد دخلت الى أسبانيا مع الفاتحين العرب (وكان أكثرهم من اليمن) فصارت صفة للشخص الذي

يستعطي الأرواح ويلح في سؤاله على عدم الإضرار بالمريض، ثم تحرفت كلمة « كدية » العربية الى « كودياس » الأسبانية.

وفي اليمن نجد الكلمة « مكدّية » صفة للمرأة التي ترأس ضاربات الطبول في حفلات العرس.

وبما أن حفلات الزار والعرس تعتمد على الدقات العنيفة للطبول يجدر أن نذكر أن الكلمة « كَدَّن » (بفتح الكاف أو كسره وتسكين الدال) تعني كما جاءت في المنجد « جلد كراع يدبغ فيقوم مقام الهاون يدق فيه ».

ولا يستبعد أن الكلمتين « كودية » و « مكدّية » انتقلت أيضا الى الحبشة ومنها الى السودان ومصر مع المهاجرين العرب الذين أسسوا مملكة أكسوم في أرتيريا والحبشة ونقلوا معهم حضارتهم ولغتهم المكتوبة بالخط المسند والمعروفة في الحبشة باسم « جعزية » التي كانت لغة العرب أيام دول سبأ ومعين وحضرموت وقتبان وأوسان وحمير في جنوب الجزيرة العربية، وهي إحدى اللغات السامية التي انقرضت بعد أن حلّت محلها لغة شمال الجزيرة العربية (لغة القرآن والشعر والأدب).

ونعود الى الزار فنقول أنه أكثر انتشاراً في المدن الساحلية والمناطق الريفية القريبة من الساحل والتهائم اليمنية المواجهة لشواطىء أفريقيا.

وكان قد صدر في عدن أثناء حكم بريطانيا قانون يحرم إقامة حفلات الزار بسبب الشكاوى من استغلال علقات الزار لحالات المريضات وفرض المبالغ الضخمة عليهن والاستيلاء على حليهن الذهبية بحجة أنها من طلبات الزار.

وعلى الرغم من هذا القانون استمر كثير من المرضى وخاصة النساء في الذهاب الى علقة الزار لتقديم ما تطلبه من فلوس وحلى وملابس ثمينة.

ومن بين الطلبات الشاذة للعلقة أنها تطلب من المريض أن يقدم أشياء غريبة مثل ديك أعور وكبش له صفات نادرة وما شابه ذلك حتى توهم المريض بأن تلك هي طلبات الأرواح والجن.

ومما يجدر ذكره أن قسماً كبيراً من سكان الحبشة في أواسط القرن الرابع الميلادي كان يعبد الزار (الأرواح) المتصلة بالأشجار وينابيع المياه، كما لا يزال الاعتقاد سائدا بالزار وأيضا بما يسمى «بُدَه» (بضم الباء وفتح الدال)، وهذه كلمة حبشية يوصف بها الشخص الذي يحمل عين الشر ويتحول في الليل الى ضبع مؤذ مزعج يعتدي على الناس والحيوان. وكل هذه رواسب معتقدات القبائل الكوشية القديمة وأيضا القبائل السامية.

العمالقة

العمالقة عند البابليين « ماليق » أو « مالوق »، وأضاف اليهود اليها « عم » بمعنى الأمة أو الشعب فصارت « عم ماليق » أي شعب ماليق ونطقها العرب « عماليق » و« عمالقة » وكانوا يسكنون شمالي جزيرة العرب حتى جنوبي فلسطين[١] والكلمة « عم » قد تعني « العامة » و« العموم »

والمعتقد أن قوم عاد ظهروا بعد الطوفان في الاحقاف الواقعة بين حضرموت، اليمن وبلدان الخليج وأنهم كانوا عمالقة. ويقال أن العمالقة جاءوا بعد عاد وثمود ويبلغ الواحد منهم ٥٠ ذراعا طولا (٧٥ قدما) وأنهم بنوا مدنا وقرى في كل أنحاء ممالكهم بما فيها حضرموت.

ويذكر المسعودي في مروج الذهب أن مملكة عاد الأولى ظهرت بعد نوح قبل أن تظهر أية دولة أخرى في الجزيرة العربية، فقد استوطن سام بن نوح وسط الدنيا في بقعة تمتد من الأرض المقدسة (مكة والمدينة) حتى حضرموت وعمان وعلج، ومن أولاده أرم وأرفخشد، وكان عاد هو ابن عوس بن إرم. وقد بيّن لنا الله ظهور مملكة قوم عاد ووصف لنا عنفهم وقسوتهم وعماراتهم العالية التي لا تزال تسمى (العادية) على الرغم من أنهم قد انقرضوا منذ قرون عديدة. وكان قوم عاد، كما يقول مؤرخو العرب، عمالقة يبلغ الواحد منهم النخلة طولا، وكانت أعمارهم تناسب حجم أجسامهم، وكانت لهم قلوب صلبة، ولم يكن يوجد على وجه الأرض من يماثلهم في قوة أعمالهم وعظمتها وفي ذكائهم الثاقب وأخلاقهم

---

(١) الأساطير للدكتور أحمد كمال زكي.

المتينة. ولم تكن ثمة وسيلة لسحقهم لأن الطبيعة منحتهم أجساما شديدة وأشكالا كاملة.

وعبد عاد القمر وكانت مملكته تشمل الأحقاف وسَحَر، أي عُمان وحضرموت، ولما رأى أنه قد وصل الى قمة أمجاده وأحاط به العديد من أولاده وأحفاده حتى الجيل العاشر من نسله وأن مملكته القوية أخذت تتوسع مع تكاثر أولاده أخذ ينشر أعمال الخير بين جميع رعاياه ويغمرهم بأكرامه. وبعد وفاته تولى الحكم ابنه الأكبر «شديد» الذي دام حكمه ٨٥٠ عاما أو أكثر أو أقل كما يقول آخرون. وبعده تولى الحكم أخوه «شداد» الذي استمر في الحكم تسع مئة سنة.

وجاء في كتاب التيجان لابن منبه أن شدادا شمر للاستعداد للفتح وكان حازما ذكيا يكره القعود في دار الملك فبلغ أقصاها ولا أحد يقف له إلا هلك. ثم مضى على سمرقند وأرض التبت في الصين ثم عطف على أرمينية فمضى ثم جاز الى الشام فبلغ المغرب حتى بلغ البحر المحيط يبني المدن ويتخذ المصانع[1]، ثم قفل راجعا الى المشرق فأنف أن يدخل غمدان ومضى الى مأرب فبنى القصر العقيق الذي يسميه بعض الرواة ارم ذات العماد.

وبعد شداد جاء الى الحكم الخلجان بن الوهم آخر ملوك عاد الأولى. وفي أيامه أفرط القوم في كل شيء وعبدوا ثلاثة آلهة، وعندئذ أرسل الله نبيه هودا فقالوا عنه أنه سفيه وكاذب، وكانوا يتكونون من عشر قبائل رئيبسية، واستنزل عليهم هود غضب الله فانقطع عنهم المطر ثلاث سنوات وجفت الأرض ولم يدروا ما يفعلون. ثم أرسلوا وفدا الى مكة ليطلبوا الاستسقاء، وكان العمالقة حينذاك يسكنون تلك البلاد، ولما وصل الوفد أخذ أعضاؤه يسرفون في الشراب والمتعة حتى أن رئيس القوم معاوية بن بكر أمر اثنتين من محضياته بأن تغنيا لهم أبياتا من الشعر تدعوهم الى تنفيذ الالتزام الذي جاءوا من أجله. وعندما سمع أعضاء الوفد الأغنية وفهموا مغزاها أسرعوا يضرعون الى الله أن يرسل لقومهم

(١) الحصون والقلاع.

المطر. ولا يجهل أحد ما حدث حين تلبدت السماء بالغيوم، فقد اختاروا غيمة ظنوا أنها ستفيدهم (فلما رأوا عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين).

وانطلقت الريح في اليوم الرابع من الأسبوع فلم يبق أحد من قوم عاد، ولهذا السبب تعتقد القبائل أن يوم الأربعاء هو يوم شؤم ولا يذكرون اسمه عندما يعدون أيام الأسبوع(*)

وبعد أن رأى هود بعينيه هلاك قومه انسحب مع من تبعه من المؤمنين. وتقول قصة أن رئيس الوفد العائدين من مكة كان أحد كبراء عاد الأولى وهو لقمان. ويقال أنه لقمان بن الملطاط بن السكسك بن وائل بن حِمْيَر وأنه كان نبياً غير مرسل وأنه كان متواضعا لله، وأنه لقمان الحكيم الذي ذكره الله في كتابه العزيز، وأن الناس كانوا يحترمونه ويجلونه ويقصدونه من كل مكان. ويذكره عبيد بن شريه الجرهمي أنه لقمان الحكيم الملقب ذي نسور لأنه كان يملك سبعة نسور وأن موته ارتبط بموتهم وأنه أطلق عليهم هذه الأسماء: مصون وعوض وخلف ومغبغب ويسر أو مسيرة ولبد. وان لبد تعني دهر. ويقال أن لقمان توفي بعد موت نسره السابع والأخير «لبد». ويقال أن لقمان حكم دولة عاد الثانية ألف سنة الى أن وقعت خلافات بينها وقبائل ثمود بعد لقمان فانهزمت عاد. وعن قوم عاد الثانية يقول ابن خلدون: يحكي أن بني عاد توجهوا الى الجزيرة العربية (حضرموت) بقيادة رقيم بن أرم (ويقال رقيم بن عابر بن عاد) الذي كان قد زار البلاد مع نبي الله هود، وعاد الى قوم عاد ونقلهم في السفن لغزو حضرموت وتمكن من انتزاعها من أهلها إلا أن عادا الثانية وجدت خصوما في أبناء يعرب

(*) في منطقة البيضاء في الجمهورية العربية اليمنية لا يزال الكثير من القبائل يسمي يوم الاربعاء «يوم امبرك» أي يوم البركة وإذا قيل لأحدهم «يوم الربوع» يجيب قائلا «على قرنك» أي على رأسك لانه في نظرهم يوم شؤم.

بن قحطان الذين غزوها بقيادة ابنه « حضرموت بن يعرب بن قحطان »، ومنذ ذلك الحين انطلق اسمه على تلك البلاد.

إلا أن المسعودي يقول أنه بعد هلاك عاد الأولى تعذب اسمعيل وهاجر حتى أمر الله ماء زمزم بالخروج من بطن الأرض بينما بقيت الشحر واليمن مصابتين بالجفاف وحينذاك بدأت هجرة العمالقة وجرهم وبقايا عاد من هذه البلاد.

ويقول مؤرخو العرب أنه بعد هلاك قوم عاد ظهر في الوادي أبناء حضرموت بن قحطان وكان اسمه عامر إلا أنه لقب بحضرموت بسبب الحوادث الدامية التي وقعت في أيامه فكان الناس يقولون عندما يشاهدونه « حضرالموت ». وكانت أول قبائل حضرموت هي قبائل الصدف التي تفرعت الى أربع قبائل: سابرات (ويسمون اليوم آل باسابرة وهم فرع من آل ذبيان في حَجْر) وبني سعد وبني حارثة وذييب.[١]

وبعدهم جاءت الى حضرموت قبيلتا السقسق وسكون، وهما من قبائل كندة واستوطنتا تريم ونجير في الطريق الى عينات، ومن هاتين القبيلتين ظهر أربعة من ملوك كندة في حضرموت: في وادي عمد ووادي هينن ووادي حَجْر ووادي جردان وشبوة وكانوا يعبدون الآله هلسد.

ويذكر مؤرخو العرب أن العمالقة جاءوا بعد عاد وثمود وأنهم هم العرب العاربة وليسوا من أبناء سام بن نوح بل من أبناء لاوذ بن سام أخ أرم بن سام وعاشوا في شمال الحجاز وأجزاء من شبه جزيرة سيناء[٢]، وهم الذين فتحوا مصر باسم « الشاسو » (البدو الرعاة) وكانت لهم دولتان كبيرتان إحداهما في العراق والأخرى في مصر وأنهم هم الذين اكتشفوا الحديد وأدخلوا الآلات الحديدية الى مصر. ويسميهم اليونان (هكسوس).

---

(١) من كتاب يعده المؤلف باسم تاريخ القبائل اليمنية.

(٢) يقال ان جزيرة سيناء اطلق عليها هذا الاسم لان سقاتها كانوا يعبدون الآله « سين ».

ارم ذات العماد

قيل أن ارم بن عاد خرج من بلاده في الأحقاف ليتفقد أحوال مملكته وأن موكبه وصل الى ضواحي «لَحْج» ومن هناك شاهد جبل العُر[1] فأمر بعض رجاله بالتوجه نحوه ليستكشفوا ما فيه وما وراءه. ووصل الرجال الى جبل التعكر[2] فتسلقوه ومن أعلاه وجدوا أن ما بين جبلي التعكر والعر واديا واسعا في بطنه شجر وفيه أفاع ضخمة ووراء جبل العر البحر المالح. فأمر ارم رجاله بحفر آبار في لحج وبأن ينقروا في جبل التعكر باباً حتى يتمكن الناس من الدخول منه الى الوادي بدلا من الصعود الى جبل التعكر وبأن يحفروا في صدر الوادي نهرا.

وبدأ العمل في تنفيذ الأوامر فكلف كهلان بنقر الباب وعوص بحفر النهر. ولما اقترب عملهما من نهايته اجتمع الاثنان وقال كهلان: «سبعون عاما وأنا أواصل العمل في نقر الباب ولكني سوف أفرغ منه غداً ان شاء الله».

أما عوص حافر النهر فقد قال: «سبعون عاما وأنا أواصل العمل في حفر النهر وبنائه بالحجر والجص بناء محكما وثيقا بين الماء والجبل، وغدا سأدخل الماء الى الوادي شاء الله أم لم يشأ».

ولم يكد عوض ينتهي من كلامه حتى تصدر أصوات انفجارات ضخمة تشققت بعدها نواحي الجبل المشرفة على الوادي وتساقطت الصخور وتدفق ماء

---

١) نسميه في عدن الآن جبل شمسان. وكلمة «عر» بالعربية الجنوبية تعني «حصن» وفي يافع يوجد جبل يحمل نفس الاسم.

٢) جبل التعكر هو ما نسميه الآن جبل حديد ويوجد في نواحي مدينة جبلة جبل يحمل نفس الاسم.

البحر وانقطع النهر وارتدم بالحجارة والاتربة ودفن عوص بين الأنقاض.

ويقال أن المنطقة سميت «عَدَن» لأن ارم سجن فيها أحد الثائرين ضده أو أحد المؤمنين بهود وكان اسمه «عَدَن»[1].

وعاش نبي الله هود في أيام ارم بن عاد كما يقال. وكان يبشر المؤمنين بالجنة ولكن قوم عاد سفهوه فقال لهم: «ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم بسطة في الأرض فاذكروا إلآء الله لعلكم تفلحون؟.

ولما دعاه وسأله عن الجنة التي يبشر بها المؤمنين قال هود: «أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا».

وقال: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، ودانية عليها ظلالها وذللت قطوفها تذليلا، ويطاف عليم بآنية من فضة وأكواب كانت قوريرا، قوارير من فضة قدروها تقديرا، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا، عينا فيها تسمى سلسبيلا، ويطوف عاليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً، عليهم ثياب من سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا ظهورا».

ويسخر أرم من هود ويتحداه ثم يأمر رجاله بالانتشار في أنحاء المملكة ليستكشفوا فلاة من أرض اليمن ويختاروا أطيبها تربة ليتخذ منها جنة يتحدى بها جنة الله ويحشد لبنائها كل ما في المملكة من أيد عاملة. ويكتب لعماله الثلاثة غانم بن علوان والضحاك بن علوان والوليد بن الريان بأن يأمروا وكلاءهم في

---

(١) الفعل عَدَنَ معناه سَكَنَ وكلمة معدن مشتقة منه.

كافة أنحاء البلاد والأراضي المجاورة بأن يجمعوا كل ما في أراضيهم من ذهب وفضة ودرّ وياقوت ومسك وعنبرٌ وزعفران ويرسلوا به إليه.

وبعد مضي فترة من الزمن يعود نوابه ليقولوا له أن المساحين انتشروا في كل شبر من الأرض بحثا عن الفلاة ذات التربة الصالحة، وان أفضل بقعة وجدوها هي الفلاة الواقعة بين لحج وخليج الوادي (عدن) من جهة وبين ماوية في طريق المفاليس من جهة أخرى.

وعندئذ يأمر ارم بالبدء في بناء المدينة الجنة التي سيطلق عليها اسمه «أرم ذات العماد» والتي تمتد اثني عشر فرسخا طولا باثني عشر فرسخا عرضا. وقال: «أريد منكم أن تصبوا الذهب في القوالب مثل اللبن لتبنوا به المدينة التي يجب أن يكون بها ثلاث مئة ألف قصر ترصع بواطنها وظواهرها بأصناف الجواهر، كل بيت منها يرتفع ثلاث مئة ذراع في الهواء، ويحيط بالمدينة سور يرتفع ثلاث مئة ذراع في الهواء بمحاذاة المنازل ويرصع داخل السور وخارجه بأنواع اليواقيت وطرائف الجواهر ثم تبنون خارج السور ثلاث مئة ألف منظرة بلبن الذهب والفضة عالية مرتفعة في السماء محدقة بسور المدينة لينزلها الجنود، وتفصص حيطان القصور بالدر والياقوت والزبرجد والعقيق وتجعلون لها غرفا فوقها غرف وتعمدون كل ذلك باساطين الزبرجد والياقوت، وأن تحفروا واديا تحت المدينة تسوقونه إليها من تحت الأرض أربعين فرسخا كهيئة القناة ثم تشقون السواقي من ذلك الوادي الى السكك والشوارع والأزقة تجري بالماء الصافي وتطلون حافتي النهر وحوافي السواقي كلها بالذهب الأحمر، وتجعلون حصاه من أنواع الجواهر الأحمر والأصفر والأخضر، وتنصبون على حافتي النهر والسواقي أشجاراً من ذهب وتجعلون ثمارها من يواقيت وجواهر، وأن تبنوا لي قصراً منيفاً عاليا في وسط المدينة يشرف على كل تلك القصور وتجعلوا بابه يشرع الى الوادي بمكان رحيب واسع وتنصبوا عليه مصراعين من ذهب مرصعين بأنواع اليواقيت.»

أما مرثد بن أرم ونائبه في حضرموت فيغضب من أبيه ويؤمن رسالة هود.

وما أن يتم بناء ارم ذات العماد حتى يخرج ارم في ثلاث مئة ألف من قومه ليسكنوا فيها. وعلى بعد مرحلة من أرم يظهر له هود وينذره ويحذره ويعظه فيكذبه ارم فيقول هود: «كذبت عاد المرسلين، إذ قال لهم أخوهم هود الا تتقون، إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله واطيعون، وما أسالكم عليه من أجر أن أجرى إلا على رب العالمين، أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم، وإذا بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم».

ويجيب عليه ارم: «سواء علينا أوعظت ام لم تكن من الواعظين، ان هذا الا خلق الأولين، وما نحن بمعذبين».

ويتقدم أرم من مدينته الجنة مع قومه. وبينما هو في الطريق تصدر صرخة عالية من السماء تتبعها ريح صرصر عاتية فيختلط الجمع وتتصاعد الصيحات من الناس والدواب وتزداد الريح هبوبا.. وتتساقط حيطان ارم.

«ألم تر كيف فعل ربك بعاد، ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد».

«وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية».

«ولما جاء أمر ربنا نجينا هودا والذين معه ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا بربهم، ألا بعداً لعاد قوم هود».

ملكة سبأ

من هي ملكة سبأ، وما اسمها، وأين عاشت، ومتى حكمت، ومن أبوها وأمها؟

ذكرها المؤرخون العرب باسم «بلقيس» وذكرها الأحباش باسم «ماكِدا» وذكرها الاريتريون باسم «اتيي أزيب». وقد وجد علماء الآثار والمؤرخون وخبراء اللغات السامية أغلب أسماء الملوك والرؤساء الدينيين الكهنة لدول معين وسبأ وحضرموت وقتبان وأوسان وحِمْيَر ولم يكن الاسم «بلقيس» من بين تلك الأسماء.

ويذكر المؤرخون العرب أنها بلقيس بنت الهدهاد (وبلقيس بنت شرحبيل)، ولكن هذه لم تكن هي ملكة سبأ التي زارت نبي الله سليمان. وكان هذا خطأ وقع فيه كثير من المؤرخين العرب، فان ملكة سبأ عاشت في عهد سليمان كما جاء ذكرها في التوراة والقرآن، والمعروف أن سليمان عاش ما بين سنة ٩٦١ وسنة ٩٢٢ قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام بينما حكمت بنت الهدهاد كما يرى المؤرخون العرب بين سنة ٣٣٠ و٣٤٥ بعد المسيح. وهذا يوضح أن الفرق الزمني بين ملكة سبأ وبنت الهدهاد كان حوالي ١٢٩١ سنة.

ثم ان النقوش والآثار اليمنية التي أمكن العثور عليها تشير الى أن أول حكام سبأ كان «كرب ال وتر» ولم يكن يحمل لقب ملك بل لقب «مكرب» – أي رئيس الكهنة أو الرئيس الروحي لشعب سبأ. ويعني هذا أنه لم يكن يوجد ملوك لسبأ في تلك العصور بل رؤساء دينيون.

بالإضافة الى ذلك نجد «سفر أيوب» واصفا السبأيين في ذلك الزمن بأنهم

يتكونون من قبائل غازية غير مستقرة. وجاء في التلمود ذكر ملكة سبأ مرة واحدة، فقد قال الرابي ناثان معتمدا على سفر أيوب (١-١٥) أن أيوب عاش في أيام سبأ وقد جعل هذا القول الرابي يوناثان يؤكد عدم وجود ملكة لسبأ بل مملكة بهذا الاسم.

وكانت ملكة سبأ التي عاشت أيام سليمان سبأية بينما كانت من أطلقوا عليها اسم بلقيس بنت الهدهاد من ملوك التبابعة الحميريين. ثم أن بنت الهدهاد لم يكن اسمها بين أسماء ملوك اليمن التي عثر عليها علماء الآثار، ولذلك يستعبد أن يكون اسمها بلقيس.

وهكذا يحيط الغموض بملكة سبأ، إلا أن إشارة التوراة والقرآن توضح وجودها في عصر سليمان منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة. وربما أن عدم ظهور اسمها بين قائمة أسماء ملوك سبأ أن تنقيبا واسع النطاق لم يجر حتى الآن في اليمن. وقد يظهر اسمها الصحيح وآثارها وربما عرشها بعد أن يقوم علماء الآثار بمثل هذا التنقيب الواسع وبعد استعادة النقوش واللوحات المفقودة، ولو أنه من المعتقد أن مدينة مأرب الأصلية بقصورها ومعابدها ومبانيها لا تزال مطمورة تحت التل الذي شيدت عليه قرية مأرب الحالية لأن التل نفسه ليس من التلال الطبيعية بل يتكون من أكوام من بقايا المباني.

رأى مؤرخي اليونان

هنا لا بد من الإشارة الى أن المؤرخين اليونانيين الذين عاشوا في أيام سليمان وأرخوا عهد حكمه وصفوا الملكة السبأية التي زارته بهذه الكلمة « بالاكيس » وهذه الكلمة اليونانية معناها « الضرة » ونسميها بالعامية « طبينة ». والمعروف ان الكلمة اليونانية « بالاكيدا » تعني « فتاة المتعة ». ويحتمل أن العرب حين بدأوا في ترجمة الكتب اليونانية في العصرين الأموي والعباسي وجدوا هذه الكلمة فحرفوها الى « بلقيس ». ويظهر أن المؤرخين اليونانيين وصفوها بالضرة لأنها تزوجت بسليمان، كما يعتقد البعض، فوق زوجاته اللاتي كان متزوجا بهن. وقد استعارت اللغة العبرية هذه الصفة من اليونانية فحرفتها الى « بالاحبش ».

ملكة سبأ في التوراة والإنجيل

في الآية ٤٢ من الإصحاح ١٢ من إنجيل متى جاء:

« وملكة الجنوب ستقوم مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان ».

وفي الآية ٣١ من الاصحاح ١١ من إنجيل لوقا جاء:

« ملكة التيمن ستقوم في الدين مع رجال هذا الجيل وتدينهم لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان »

وفي الإصحاح ١٠ في العهد القديم من سفر الملوك الأول جاء:

« وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه في مسائل كثيرة الى أورشليم بموكب عظيم جدا الخ ».

وفي الجزء الثاني من الترجومة جاءت القصة التالية:

اعتاد سليمان أن يدعو جميع الحيوانات والطيور والثعابين والجن للاستعراض أمام ضيوفه من ملوك البلدان المجاورة، وكانوا يحضرون بمحض إرادتهم. وفي إحدى المرات تأخر الهدهد عن الحضور، وعندما أقبل قال للملك أنه كان يبحث عن بلاد في أي جزء من العالم لا تعترف بسلطة سليمان وأنه في أثناء بحثه وجد مدينة قيدار في الشرق التي تمتلىء ذهباً وفضة والتي تسقي بساتينها مياه جنة عَدْن وتحكمها امرأة هي ملكة سبأ. ويأمر سليمان كاتبه بأن ينسخ رسالة يربطها الى جناح الهدهد ويشير عليه بأن يطير الى قيدار ليلقي بها بين يدي الملكة. وتجد الملكة في الرسالة دعوة بصيغة الأمر بالحضور أمام الملك، فتتجهز نفسها وتحمل هدايا ثمينة. وعندما تصل ترى الملك جالسا في بيت من زجاج لاستقبالها فتظن أنه كان يجلس على الماء فترفع رداءها خوفا من البلل فتظهر ساقاها المليئتان بالشعر. عند ذاك يقول الملك: « ان جمالك جمال النساء لكن شعرك شعر الرجال، وبينما الشعر زينة للرجال فإنه تشويه للنساء ». وتتصرف

الملكة تصرفاً يليق بمقامها النبيل فتتظاهر بأنها لم تسمع تعليقه وتتقدم منه وتلقي خطابها وأسئلتها عليه ».

والإشارة الوحيدة في المصادر اليهوديةِ عن زواج سليمان وملكة سبأ وإنجابهما ولدا نجدها في كتاب الألفباء الذي كتبه بن صيرا في القرن الحادي عشر الميلادي حيث يقول أن نبوخذ نصر هو ابن سليمان وملكة سبأ.

وهنا يجدر التمعن في اسم البلاد التي قالت الترجومة أن الهدهد وجدها مليئة بالذهب والفضة وهي مدينة قيدار. والواقع أننا نجد في الفصل ٢٧ من نبؤة حزقيال أن بلاد العرب مقرونة بقيدار. والآية ٢١ من هذا الفصل تظهر أن عرب ذلك الزمان (القرن السادس ق م) اهتموا بتربية الماشية وبيعها الى جيرانهم الحضر. ويذكر أرميا (٣-٢) أن العرب اشتهروا بالسلب والنهب. وفي الجزء الاول من تاريخ العرب للدكتور فيليب حِتي يذكر أن قيدار استبدت على شمال الجزيرة العربية وسكن أبناؤها ربوع تدمر ومنطقة الجنوب الشرقي من دمشق. ويذكر أيضا أن الفتاة الشولمية، أو الشونمية، التي خلد ذكرها وجمالها سليمان الحكيم في نشيد الإنشاد كانت إعرابية من قبيلة قيدار. وإن صح أن ملكة سبأ هي شخصية تاريخية وإنها قدمت الى ملك إسرائيل سليمان الحكيم بعطايا طريفة مما امتازت بها أرض الجنوب فمقرها لم يكن في اليمن ولا في الحبشة كما رأى البعض بل في أحد معاقل سبأ ومراكزها التجارية على خط القوافل. ولم يظهر ملوك اليمن إلا بعد عصر سليمان (نحو ١٠٠٠ ق م) بمئتي سنة حسبما جاء في النقوش. والظاهر أن ملكة سبأ وكذلك الملكة سمسي والزعيم يتعمرا اللذين أدّيا الجزية لسرجون الأشوري كانت مساكنهم جميعاً في بعض هذه المستعمرات الشمالية التي تمثلها لنا « ديدان » (التي هي واحة في شمال الحجاز) وقد ظلت مدة من الزمن المقر الرئيسي لأهل سبأ في الشمال، لأن سبأ في أبان عظمتها التجارية كانت تسيطر على طرق النقل التجارية التي تجتاز الحجاز متجهة شمالا حتى موانىء البحر الأبيض المتوسط وكانت لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط ».

ويذكر وندل فلبس في كتابه « قتبان وسبأ » أن الملك سليمان الذي قدّر البروفيسور البرايت أنه كان يعيش ما بين عام ٩٦١ و٩٢٢ ق م كان يشرف على عمليات بحرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وأن الملكة، كما روى سفر الملوك، قدمت شمالا وأن زيارتها كانت ذات قيمة تجارية كبيرة لأنها قدمت لسليمان ١٢٠ وزنة من الذهب والأحجار الكريمة واللآلي التي لم يشاهد لها مثيلا من قبل ومقدارا ضخما من التوابل التي لم يسبق أن شهدت له القدس مثيلا.

ويذكر أيضا أن بعض المؤرخين يعتقدون أن الملكة كانت فعلا شمالية حكمت قبائل رحّلا في شمال الجزيرة العربية أكثر منها ملكة تخضع لها الأمة التي عاصمتها مأرب. وقال أن ليس هناك سبب يجعلنا نقرر أن الملكة من شمال الجزيرة العربية وليس من جنوبها، وأن الاساطير حول الملكة قد تكون مخترعة وملفقة ولكن لا يوجد سبب يدعو الى الشك أنها كانت ملكة فعلا. وأن التنقيب عن الآثار سيؤكد وجودها في يوم من الأيام وسيزودنا بمزيد من أخبارها.

ملكة سبأ في القرآن

ويذكر القرآن الكريم في سورة النمل قصة رائعة لسليمان وملكة سبأ:

وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴿لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ ﴿فمكث غير بعيد فقال أحطت بمالم أحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ ﴿إني وجدت إمرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾ ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ ﴿الله لا آله هو ربّ العرش العظيم﴾ ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ ﴿إذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾ ﴿قالت يا أيها الملؤا إني ألقي اليّ كتاب كريم﴾ ﴿أنه من سليمان وأنه باسم الله الرحمن الرحيم﴾ ﴿ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾ ﴿قالت يا أيها الملؤا أفتوني في أمري

ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون﴾ ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين﴾ ﴿قالت أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾ ﴿وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ ﴿فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما أتاني الله خير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ ﴿أرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ ﴿قال يا أيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين﴾ ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ ﴿قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله أنها كانت من قوم كافرين﴾ ﴿قيل لها أدخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال أنه صرح ممرد من قوارير قالت ربّ أني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين﴾

ما رآه رسل ملكة سبأ

وصف الأستاذ أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله» ما رآه رسل الملكة قائلا:

«ودخل رسل (بلقيس) وسط غابة كثيفة مدججة بالسلاح. وفوجيء رسل بلقيس بأن كل غناهم وثرائهم يبدو وسط بهاء مملكة سليمان شيئا مخجلا كالرقعة الفقيرة. وصغرت هديتهم في أعينهم وكانت من الذهب، وهم يسيْرون على أرضية قصور الملك سليمان وكانت تصنع من خشب الصندل المعطر المزيّن بالذهب. ووقف رسل بلقيس مع سليمان ريثما ينتهي من استعراض جيشه، وراحت أذهانهم تسجل عدد الجنود ونوعيتهم وكثرتهم، ثم فوجئوا أن في الجيش أسودا ونمورا وطيورا وجنودا تنتقل عن طريق الطيران. وتدلت أفواههم من الدهشة وأدركوا أنهم أمام جيش لا يقاوم».

وقال ايضا:

« وصل رسل بلقيس الى سبأ وهناك هرعوا الى الملكة وهم بتراب السفر وحدثوها أن بلادها في أزمة. حدثوها عن قوة سليمان واستحالة صد جيشه. أفهموها أنها ينبغي أن تزوره وتترضاه، وجهزت الملكة نفسها وبدأت رحلتها نحو مملكة سليمان ». ولم يشأ الأستاذ أحمد بهجت أن يتورط فيما تورط فيه غيره فيقول: « يسكت السياق القرآني عن قصة بلقيس بعد إسلامها. ويقول المفسرون أنها تزوجت سليمان بعد ذلك.. أحبته وتزوجته، ويقال أن بعض ملوك الحبشة من نسل هذا الزواج، ونحن لا ندري حقيقة هذا كله. لقد سكت القرآن عن ذكر هذه التفاصيل التي لا تخدم قصة سليمان، ولا نرى نحن داعيا للخوض فيما لا يعرف أحد ».

والجدير بالذكر أن القرآن لم يذكر إسم ملكة سبأ. أما مفسرو القرآن مثل الزمخشري والبيضاوي والطبري ومحمد فريد وجدي فقد ذكروها باسم « بلقيس » اعتماداً على كتابات المؤرخين العرب أمثال الهمداني والمسعودي والطبري والثعلبي وإبن الأثير وإبن خلدون وغيرهم من المؤرخين القدماء والحديثين. مثال ذلك ما قاله محمد فريد وجدي في المصحف المفسر « فلما رأى سليمان عرش بلقيس بين يديه قال هذا من فضل ربي ». فقد درج وجدي على ما سار عليه المفسرون السابقون.

ونلاحظ كثيرا من التخمين في مسألة والدي ملكة سبأ وشخصيتها وهل كانت أنسية أم جنية وكيف تربعت على العرش وكيف عارضها أحد رعاياها وكيف تمكنت من القضاء عليه والسيطرة على المملكة، ثم قصة زواجها بسليمان وإنجابها ولدا، وإن أمها جنية إسمها رواحة بنت مسكن التي يتردد إسمها في أساطير الجن المصرية.

ملكة سبأ في الأساطير الحبشية

جاء ذكر ملكة سبأ في الكتاب الحبشي « متحفا نجست » (متحف الملوك) أنها

كانت ملكة لسبأ التي تقع بالقرب من مدينة أكسوم وأن مملكتها شملت كلا شاطئي البحر الأحمر، شاطئ أريتريا وشاطئ اليمن، وأن الذي وحد هذين الشاطئين هو جدها الملك عنجبوس الذي خلفه في الحكم إبنه تيواسا والد ماكدا التي صارت بعده ملكة على سبأ.

أما قصة سفر الملوك الحبشي «كبرا نجست» - الفصول ٢١-٢٨ فتختلف عن قصتي التوراة والقرآن. فقد كان التاجر المتجول «تمارين» بديلا للهدهد وواسطة بين الملكة وملك أورشليم (بيت المقدس) سليمان، وهذه هي قصة:

كان تمارين التاجر الأثير لدى ملكة سبأ، وكان يرأس قوافل جمال تتكون عادة من ٥٢٠ جملا ويملك ثلاثة وسبعين سفينة. ويحمل البضائع الى أورشليم ويبيعها هناك. وفي إحدى المرات وهو في أورشليم يعلم أن سليمان يرغب في تشييد معبد لله وإنه قد أرسل الرسل الى الشرق والغرب والشمال والجنوب طالبا من تجار البلدان أن يرسلوا اليه بما يساعده في البناء مقابل ذهب وفضة يدفعها لهم. ويخبر التجار سليمان عن التاجر تمارين وبضائعه النفسية فيبعث اليه برسالة يطلب منه أن يحضر له من بلاد العرب ذهبا أحمر وخشبا أسود لا تنخره السوس. ويحضر تمارين لسليمان ما أراده فيغدق عليه المال. ويدرك تمارين بثاقب فكره حكمة سليمان وعظمته وثراءه الواسع فيعود الى بلاده ويخبر الملكة بما رآه من سليمان فترغب الملكة في زيارته بنفسها لترى وجهه وتسمع حكمته وتضمه وتطلب منه الولاء لها. ثم تخاطب شعبها قائلة «إنني متيمة بالحب للحكمة، فالحكمة أثمن من الذهب والفضة وهي عماد المملكة» وبعد خطابها الرنان تجهز نفسها للسفر في قافلة تتألف من ٧٩٧ جملا محملا ومن عدد لا يحصى من البغال والحمير، وتصل الى أورشليم وتقدم لسليمان هداياها النفسية التي كان يرغب في الحصول عليها فيحتفي بالملكة إحتفاء عظيما وتسأله الملكة أسئلة كثيرة يجيب عليها كلها.

وبعد أن تقضي الملكة ستة أشهر في ضيافة سليمان تعلن عن رغبتها في العودة الى مملكتها ويرغب سليمان في الاستحواذ عليها ويقيم لها وليمة وداع فخمة ويأمر

الطباخين بإضافة كميات من التوابل الحارة في اللحم. وبعد العشاء يدعو الملكة لقضاء الليل في غرفته، وتقبل الملكة الدعوة لكنها تشترط عليه أن لا يأخذها بالقوة. ويقسم سليمان أن لا يفعل ذلك إلا إذا وعدت هي بأن لا تأخذ شيئا من غرفته بدون علم منه. وكان سليمان قد رتب لها سريرا في طرف الغرفة ووضع بجانبه إبريقا مليئا بالماء. ثم يصعد سليمان الى سريره ويتظاهر بالنوم. ولا يمض وقت طويل حتى تستيقظ من نومها وهي تشعر بعطش شديد من تناول التوابل الحارة فتمد يدها نحو الإبريق فيقبض سليمان على يدها ويقول لها أنها قد حنثت بوعدها بأن لا تأخذ شيئا من غرفته بدون علمه. وتدرك أنها قد فعلت ذلك حقا وتستسلم له وتعتنق ديانة إسرائيل.

النور الرباني في بطن الملكة:

وتستمر الـ«كبرا نجست» الحبشية في سرد بقية القصة قائلة:

وفي تلك الليلة يحلم الملك بنور رباني متألق على هيئة شمس ساطعة تهبط من السماء ويُضيء اسرائيل. وبعد فترة من الزمن يخبو النور فجأة ويتجه نحو أثيوبيا ويسطع هناك إلى الأبد لان ارادة الله شاءت أن يبقي النور الرباني في أثيوبيا. ويدرك الملك أن الملكة ستنجب لولداً فيقدم لها خاتماً ويقول لها «خذي هذا الخاتم حتى يذكرك بي، وإذا حدث وأنجبت لي ولداً فإن هذا الخاتم سيكون إشارة منه لي، وإذا كان ذكراً فيجب أن تبعثي بي إليّ، وسلام الله عليك».

وتعود الملكة وتصل إلى بلاد «بالوادي سرياً» وبعد تسعة أشهر وخمسة أيام من إجتماعها بالملك تضع مولوداً ذكراً يقال انها سمته «منليك» التي تعني ابن الملك أو أبن الحكيم. وتسلم الملكة مولودها إلى وصيفة خاصة بكل فخر واعتزاز لتعتني به. وعندما يبلغ الولد الحادية والعشرين من عمره ترسل به إلى والده فيستقبله بكل حفاوة وتكريم عندما يرى الخاتم في إصبعه. ويطلب منه والده البقاء في أورشليم «حيث يوجد بيت الله ووعاء القربان المقدس لشريعة الله وحيث يسكن الله». ولكن بعد أن يقضي الولد زمناً في رعاية أبيه يرغب في العودة إلى بلاده فيعينه سليمان ملكاً ويجمع نبلاء المملكة ويأمرهم بأن يرسلوا

أكبر أبنائهم لمرافقة ولده ليؤسسوا مستوطنة لإسرائيل. وقبل أن يغادر الشبان أورشليم يتآمر منليك معهم على سرقة تابوت العهد المقدس الذي بناه نبي الله موسى ويحملونه معهم إلى أثيوبيا التي يحولونها إلى « صهيون الثانية ».

هكذا تجعل الـ« كبرا نجست » من ملكة سبأ السلف القومي لشعب الحبشة وملوكها وتجعل شعار سليمان « أسد يهوذا المنتصر » شعاراً للحبشة.

والاعتقاد السائد في الحبشة ان تابوت العهد المقدس لا يزال موجوداً في كنيسة أكسوم إلا أن رجال الكنيسة لا يسمحون لأي شخص مهما كان مقامه بأن يشاهده غير قسيس واحد يجري إختياره من قبل الرهبان لحراسة التابوت طول حياته. وعند وفاة الحارس يختارون حارساً آخر من قسيس شمال الحبشة معروفاً بالفضيلة والاستقامة تكون من بين أعماله حرق البخور عند التابوت وتنظيف المعبد، ولا يسمح له بمغادرة حوش الكنيسة طول حياته. ويكون هو الوحيد المسموح له بمشاهدة التابوت. وفي وقت الأزمات والحروب ينقل التابوت إلى مكان آمن. وقد نقل التابوت حينما قام الإمام الصومالي أحمد جراي بغزو الحبشة في القرن السادس عشر الميلادي. وكان الشخص الوحيد الذي ذكر إنه رأى التابوت هو القس ديموثيوس الذي ذهب الى الحبشة برفقة رئيس الاساقفة ايزاك سفير البطريارك الأرمني لدى ملك الحبشة تيودروس الثاني. وقد أنكر ديموثيوس أن يكون التابوت هذا هو تابوت العهد المقدس لنبي الله موسى.

والواقع أن أحداً لا يعرف أين هو التابوت الحقيقي ولو أنه من المعتقد أن التابوت قد ضاع أثناء الاحتلال البابلي في عام ٦٠٥ ق.م وربما قبل ذلك.

وثمة أسطورة عن ملكة سبأ في تجرينيا (في أرتيريا) تقول أن فتاة تجرينية اسمها اتي ازيب (أي ملكة الجنوب) كانت لها ساقا حمار وأنها تسمع بحكمة النبي سليمان وقوته الروحية فتقرر الذهاب إلى اورشليم لتحصل منه على الشفاء وتسافر مع وصيفة لها متنكرتين في زي الرجال وعندما تقفان أمام سليمان يساوره الشك فيهما. وفي الليل يضع قربة جلدية مملوءة بالعسل في غرفته التي استضافهما

فيها ويتظاهر بالنوم. وعندما تظنان انه نائم تلحسان من العسل فيعرف هويتها ويأخذها بالقوة.

وكانت لهذه القصة ذيول سياسية، وربما كانت من تصنيف اسرة ارادت أن تحكم الحبشة مدعية انها أيضاً من سلالة سليمان وهي أسرة «زجوى» الملكية التي تقول أن سليمان نام مع وصيفة الملكة قبل أن ينام مع الملكة وان الاثنتين وضعتا مولودين في يوم واحد بعد عودتها إلى بلادها. وقد سمت الملكة ولدها منليك وسمت الوصيفة ولدها زجوى ولهذا فإن أسرة زجوى لها الحق الأول في العرش الاثيوبي.

وعارض عدد من رهبان الكنيسة الاثيوبية قيام اسرة زجوى وأعلنوا قرارهم أن المملكة قد أعطيت لإناس لا ينتمون إلى قبيلة إسرائيل.

وفي محاولة من ملوك اسرة زجوى لرفض قرار الرهبان المؤيدين للاسرة المالكة المناوئة نشروا أسطورتين إحداها حول حياة ملكة سبأ ووصيفتها التي ذكرناها والثانية تعتمد على التوراة ليؤكدوا أنهم فعلاً من قبيلة إسرائيل. وتقول القصة أن اسرة زجوى من سلالة نبي الله موسى وأن موسى عندما كان في مصر إندلعت الحرب بين مصر والحبشة بسبب قيام الحبشة بتحويل مياه نهر النيل وبناء سد على نهر تيكيزي. ويدعو فرعون نبلاء مملكته لاستشارتهم فيشيرون عليه بتعيين موسى قائداً للحملة ضد الأحباش. وكان غرضهم من ذلك التخلص من موسى. ويقود موسى جيشاً من مئتي ألف مقاتل ويهزم الأحباش ويهدم السد ويعقد معاهدة مع ملك الحبشة يتعهد فيها الملك بأن لا يحول مياه نهر النيل. ثم يتزوج موسى ابنة ملك الحبشة - أم اسرة زجوى - ويعود إلى مصر، وأن موسى بعد هذه الحملة يقتل مصرياً ويضطر إلى الفرار من مصر مع قومه إلى مديام.

وإذا رجعنا إلى الترجمة الحبشية للتوراة التي توافق النص المذكور في الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة التي قام بها أثنان وسبعون عالماً يهودياً في اثنين وسبعين يوماً نرى في سفر الملوك الأول (١٠-١) ان الملكة قدمت إلى سليمان لتمتحنه

بأسئلة صعبة «بحكمة». ويظهر أن الكلمة الأخيرة «بحكمة» أضيفت عمداً من قبل المترجمين الأحباش ليضفوا على الملكة صفة الحكمة وليس على الملك.

ملكة سبأ وعبادة الثعبان:

من بين الأساطير الحبشية أن أهل الحبشة كانوا يعبدون الثعبان «أروى» وأنهم كانوا يقدمون له في كل عام فتاة عذراء يضحون بها له، وأن الاختيار وقع في أحد الأعوام على الفتاة «ماكدا» لكنها قبل أن يقذفوا بها إلى الثعبان يأتي رجل غريب ينقذها ثم يتزوجها، وبعد ذلك تصير ملكة على سبأ.

ويرى البعض أن الثعبان إنما كان رمزاً لملكه سبأ بينما كان الآله محرم رمزاً لحكمة سليمان ويظهر أن مخترعي قصة ملكة سبأ والثعبان ومخترعي القصة السابقة للملكة وساقي الحمار المكسوتين بالشعر كانوا متأثرين بأسطورة الجنية ليليت التي تقمصت جسد ثعبان والتي تظهر في الليل عارية يكسوها الشعر وهي بساقي حمار.

ومن مكتشفات البعثة الالمانية للتنقيب عن آثار اكسوم في ١٩٠٦ أن جزءاً من الاريتريين والأحباش الشماليين كانوا يعبدون الثعبان «اروى» وأيضاً الجن والأرواح (الزار) سواء كانت للخير أم للشر، وكانت حسب إعتقادهم تكمن في الأشجار وعيون الماء والأشياء. وبالإضافة الى اعتقادهم بآلهة جنوب الجزيرة العربية حدث تطور في العبادة الوثنية فقد أدخلت عبادة الآله الأرض (أرض) والآله البحر (البحر) وآله الحرب الأعظم (مَحْرَم). والواقع أن الثعبان اروى كان رمزاً للأنهار والسيول التي تغرق القرى والمزارع وتهلك الماشية في بعض المواسم والتي سيطر عليها العرب الجنوبيون بتشييدهم السدود والقنوات والسواقي والخزانات التي كبحت جماحها والتي لا تزال بقاياها موجودة في جنوب الجزيرة العربية واريتريا والحبشة. وقد عثر علماء الآثار على لوحات عديدة في أنحاء من جنوب الجزيرة العربية حفر عليها رسم الثعبان الذي كان يرمز إلى آله الفجر «سحر». وكان للمعينيين صنم يمثل الثعبان «نهمس طب» أي الثعبان الطيب.

وبهذه المناسبة أذكر أن الكلمة «أروى» بالعربية تعني المعزة الجبلية الرشيقة، وبالعبرانية «أريه» وتعنيّ الأسد، وبالاكادية «أرو» وتعني طائر العُقاب، وبالجعزية والتجرينية «أروه» وتعني الثعبان.

ملكة سبأ عربية:

وبينا لا نجد في التوراة والقرآن اية اشارة عن زواج ملكة سبأ وسليمان ولا عن أية علاقات عاطفية بينهما نجد الكتاب الحبشي المقدس (كبرا نجست) وغيره من المصادر الحبشية تذكر بوضوح وصراحة العلاقة الجنسية بينهما، وكان ذلك لغرض سياسي كما يظهر لتأكيد تسلسل ملوك الحبشة من ملكة سبأ ونبي الله سليمان. وينكر المسؤولون الأحباش وحتى المثقفين منهم أن مملكة سبأ التي حكمتها ملكة سبأ يمنية كما يقول التاريخ والكتب السماوية بل يرون أن سبأ اليمنية امتداد لسبأ الحبشية. وقد جاء في المادة ٢ من دستور اثيوبيا المعدل في سنة ١٩٥٥ ان المنزلة الرفيعة الامبراطورية ستستمر إلى الأبد في أسرة هيلاسلاسي الأول سليل الملك سهل سيلاسي الذي يتصل بدون انقطاع بالسلالة الحاكمة لمنليك الأول ابن الملكة الاثيوبية ملكة سبأ وسليمان ملك أورشليم.

ويؤكد الدكتور سرجيو هبلي سيلاسي الاستاذ في جامعة أديس ابابا في كتابه «تاريخ اثيوبيا في العصور القديمة والوسطى حتى عام ١٢٧٠» الاعتقاد الراسخ في أثيوبيا ان الاسرة المالكة التي بدأت بالملك منليك الأول لا تزال مستمرة (إلى حين الاطاحة بالامبراطور هيلاسيلاسي).

ويقول أيضاً «توجد لدينا في أثيوبيا مناطق أثرية عديدة تتعلق حسب التقاليد بملكة سبأ مثل (جولو ماكدا) و(حنزات) وقبر ملكة سبأ وقبر منليك الأول والمعبد الذي يضم ما يعتقد الأحباش أنه تابوت العهد المقدس. ويقع جولو ماكدا بين جبلين هما دونجولو في الشمال وفوكودا في الجنوب، وأن القصص الشعبية تذكر أن هذا هو المكان الذي ولدت فيه ملكة سبأ.

وعندما يريد ان يؤكد ان ملكة سبأ غير عربية يقول ان الكلمة «صرح»

التي وردت في الآية ٤٤ من سورة النمل حبشية وإن استعمالها يثبت أن الاسطورة مستقاة من نموذج أصلي اجنبي.

والواقع أن سرجيو هبلي سيلاسي يقول هذا على الرغم من انه كعالم آثار وتاريخ يعرف أن اللغة الحبشية نفسها عربية يمنية هي لغة الخط المسند وأن الخط الحبشي هو الخط المسند الأصلي مع تغييرات في الأشكال وحروف العلة. وحتى لو فرضنا أن الكلمة «صرح» ليست عربية الأصل فليس معنى ذلك أن ملكة سبأ ليست عربية بل أجنبية لان القرآن الكريم ذكر من بعض اللغات الاجنبية كلمات كانت متداولة في شمال الجزيرة العربية حينذاك. ومع ذلك فان الكلمة صرح عربية جنوبية قديمة انتقلت إلى الحبشة مع المهاجرين من جنوب الجزيرة العربية الذين نقلوا معهم حضارتهم ولغتهم وخطهم المسند.

والجدير بالذكر أن اسم الاستاذ الحبشي (سرجيو هبلي سيلاسي) عربي الأصل. فالكلمة «سرجيو» مشتقة من الفعل «سرج» و«سرّج» وتعني ضوء ونور وتعني أيضاً جميل الوجه. و«هبلي سيلاسي» تعني «حبل الثلاثي» أي الحبل الذي يربط الثلاثي المقدس عند المسيحيين وهم (الله والابن والروح القدس). وان اسم امبراطور الحبشة السابق «هيلا سيلاسي» هو في الأصل «هيل الثلاثي» أي قوة أو ثروة الثلاثي المقدس. كما يحتمل أن الاسم الحبشي لملكة سبأ، وهو «ماكدا» تحريف لكلمة «ماجدة» و«مجيدة» وهي الكلمة التي ربما كانت صفة لملكة بسبأ.

ملكة سبأ في الأدب الانكليزي:

كثيراً ما يرى قارىء الأدب الانكليزي ان شعراء الانكليز وأدباءهم يضفون صفة الجمال الباهر والجلال والحكمة والعظمة على ملكة سبأ. فقد ذكرها شاعر بريطانيا الكبير وليم شكسبير في قصته الشعرية «الملك هنري الثامن» على لسان كرامر في المنظر الرابع من الفصل الخامس» لم تكن سبأ في حاجة إلى الحكمة والعفة أكثر مما ستكون عليه هذه النفس الطاهرة».

كما ذكرها الشاعر الانكليزي رديارد كبلنج بأبيات منها:

أبداً لم توجد ملكة مثل بلقيس
من هناك حتى نهاية الدنيا الواسعة
لكن بلقيس كانت تتكلم مع الفراشات
كما تتكلم أنت مع صديق
وأبداً لم يوجد ملك كسليمان
منذ بدء تكوين العالم
لكن سليمان كان يتكلم مع الفراشات
كما يتكلم إنسان مع إنسان
لقد كانت هي ملكة سبأ
وكان هو سيد آسيا
وكان الاثنان يتكلمان مع الفراشات
عندما كانا يتجولان.

ومن أغنية عاطفية للشاعر الانكليزي جورج ويتر الذي عاش من ١٥٨٨ حتى ١٦٦٧ م قال:

احببت فتاة، كانت رائعة الجمال
أروع جمال يمكن أن يشاهده إنسان
حقاً لقد كانت نادرة المثال
إنها صورة اخرى من ملكة سبأ.

ومن أغنية عاطفية للشاعر آبر كرومبي:

تربّعت بلقيس على عرشها المرمري
وهبطت على الدنيا الظلال
قالت: ألا يوجد رجل، ألا يوجد أحد
يحرك جمالي فيه رغبة الحب البهيج

تزدهر فيه روح من أرواح الله
حتى يمكن أن تلتقي حياة كل منا المنعزلتان
ألا يوجد رجل، ألا يوجد أحد
قالت: اني راحلة إلى سليمان

كما ذكرها الشاعر ييتس في قصيدتين «سليمان وملكة سبأ» و«سليمان والساحرة».

من تقاليد القبائل

يتكون المجتمع القبائلي من مجموعات صغيرة ترتبط بعلاقات القرابة والمصاهرة ومن هذه المجموعات تتكون القبيلة التي تحدد علاقاتها بالمجموعات الاخرى طبقاً لظروف المعيشة والحياة الاقتصادية.

والعواطف هي التي تحكم أفراد القبيلة، فشعور الولاء الذي يحس به الفرد نحو مجموعته ناتج عن الشعور بالأمن داخل مجموعته، وهذا الشعور هو الذي ينمي فيه روح العداء نحو المجموعات الاخرى التي ينظر إليها بحذر دائم. وهذه الروح هي التي تنشر السلام داخل مجموعته حتى يتفرغ في وقت الأزمات إلى مصارعة خصومه من أفراد المجموعات الاخرى. ثم ان الاستقلال الفردي المحدود هو الذي يجعله يحس بأن مجموعته وحدة اجتماعية قائمة بذاتها يجب حمايتها بأية وسيلة. والخروج على نظام المجموعة القبلية يعتبر اقترافاً للخيانة العظمى نتيجته الحتمية الموت أو الطرد. لهذا ليس من السهل القضاء على النعرة القبلية بالضغط والقوانين والتشريعات بل بالإمكان التخفيف منها بواسطة التعليم والتربية الوطنية التي سوف تنمي روح المسؤولية نحو الوطن الكبير.

الطاغوث:

وعلى الرغم من أن بعض عادات القبائل بدأت تختفي نتيجة لاندماج رجال القبائل بأهل المدن ونقلهم حضارة المدن إلى مناطقهم النائية وعلى الرغم من تغيير أنظمة الحكم وإدخال تشريعات جديدة إلا أن أكثر العادات لا تزال قائمة يتمسك بها القبيلي ويحافظ عليها كجزء من حياته.

والمعروف أن القبائل في جنوب الجزيرة العربية تتبع ما يسمى عندهم بالطاغوت، وهو عرف قبائلي محفوظ يتوارثونه جيلاً بعد جيل، وتكتب بعض القوانين القبلية في جذوع الأشجار وجلود الماعز وتدفن حتى يرجع إليها شيوخ القبيلة وقضاتها وقت الحاجة إليها. والطاغوت أصلا هو «الآله المزيف» و«الغواية». ويحدث أحياناً أن تحيل السلطات المدنية بعض القضايا القبلية إلى قضاة القبائل ليحلوها بطريقة العرف القبائلي، كما أن بعض القوانين مستمدة من العرف القبائلي.

وفيما يلي عينات من التقاليد القبلية:

الغزو:

كان الغزو أحد الدعائم الاقتصادية للنظام القبيلي. وتنحصر عمليات الغزو بين قبائل الصحراء والقبائل الرحل الذين يستوطنون مناطق شاسعة من الربع الخالي والمناطق المحاذية له لان القبائل المستقرة في القرى لا تقوم بالغزو بل تتعرض له من القبائل البدوية.

أما الغنائم فهي الجمال والاسلحة التي يتقاسمها المغيرون بالتساوي. وفي بعض الأحيان قد يرحل الغزاة مسافة تزيد على مئة ميل وتكون الغنائم عدداً ضئيلاً من الجمال لا يساوي المتاعب الكبيرة التي صادفها المغيرون في رحلتهم المليئة بالصعاب. وأحياناً يكون الغزو للثأر والانتقام. وقد اشتهرت قبائل الصحراء في مسقط وعمان وظفار وحضرموت وبيحان وقبائل اليمن الشمالية المحاذية للصحراء بالجرأة والشجاعة والخشونة وقوة الاحتمال. وهم يرحلون حتى حدود نجد والخليج العربي واليمن الشمالية. ويقوم الغزاة بالاغارة على قوافل المسافرين وعلى مضارب البدو. وكما يحدث عادة لا تستطيع القافلة ان تعبر خلال أراضي قبيلة ما إلا بعد أن تستأجر مرافقاً أو مرافقين من أبناء تلك القبيلة ليكون المرافقون بمثابة وثيقة الامان للقافلة ضد أي اعتداء من أبناء تلك القبيلة. وإذا وقعت إغارة على القافلة في الليل المظلم حين تصعب الرؤية ومعرفة القبيلة التي ينتمي

إليها الغزاة يحدث هرج ومرج ويتحفز المرافقون للدفاع عن القافلة ويطلقون النار في الهواء نحو الناحية التي يقبل منها الغزاة. وعندما يقترب هؤلاء يصرخ المرافق بصوت عال: «أنا فلان ابن فلان من القبيلة الفلانية وهؤلاء المسافرون في وجهي». وكما يقتضي العرف القبائلي يتوقف الغزاة عن اغارتهم إذا عرفوا ان المرافق من قبيلتهم فنداء المرافق مسموع لا يمكن تجاهله من قبيلته.

ومهما يكن فإن المسافرين في القافلة والمرافقين إذا احسوا بالقادمين خمنوا أنهم أعداء حتى ولو لم يكونوا كذلك ويسرعون بحشو بنادقهم واعدادها إلى أن يتأكدوا من هوية القادمين.

وإذا التقى الفريقان في النهار فإن مرافقي كل منهما يتقدمون خطوات ليذكروا اسماءهم وقبائلهم. وإذا اكتشف مرافق أن القادمين من الأعداء يسرع بالهرب إلى فريقه الذي يكون رجاله حينذاك على استعداد لإطلاق الرصاص من بعيد ليمنعوا القادمين من الاقتراب من مرافقهم ومنهم.

وإذا كان أحد الفريقين أقوى عدداً وأحسن سلاحاً وأكثر ذخيرة فإنه الفريق المنتصر. وفي تلك الظروف لن يجد الفريق الأضعف فرصة للهرب. وإذا كانت للمغيرين ميزة ضئيلة فإن حرب استنزاف تبدأ حتى تنتهي ذخيرة أحدهما، لان تقاليد الصحراء تقضي بعدم الاستسلام حتى آخر طلقة رصاص، وإذا كانت قوة المغيرين أكثر تفوقاً فإنهم يندفعون بقوة مكتسحين الفريق الآخر ويكون انتصارهم ساحقاً.

والاستسلام لأول القادمين قد يكون الأمل الوحيد للنجاة من القتل، فيصرخ المستسلم «سلمني». ويدفع بندقيته بيده فوق رأسه أو يقذف بها بعيداً. وإذا كانت رغبة المنتصر الاكتفاء بالنهب فإنه يستجيب إلى النداء ويقول «في وجهي». أما إذا سقط أحد المغيرين قتيلا فلا مفر من الأخذ بالثأر.

وفي اليمن الشمالية اشتهرت قبيلتا دهم وعبيدة في وقت من الأوقات بالجرأة الفائقة في الغزو وكان ذلك شذوذاً لأن هاتين القبيلتين من القبائل القروية المستقرة وليست من البدو.

وفي اليمن الجنوبية اشتهرت قبيلة الصيعر في حضرموت بالخشونة والجرأة في غاراتها التي كانت تشنها على القبائل المجاورة لها في حضرموت نفسها وعلى المناطق البعيدة حتى الخليج العربي والمملكة العربية السعودية واليمن الشمالية. والجدير بالذكر أن الصيعر لا يزالون يطلقون على ابنائهم الاسم « مكرب » وهو اللقب الذي كان عرب جنوب الجزيرة العربية يطلقونه على الكاهن الأعظم الذي كانت له السلطة الدينية والدنيوية حتى عام ٦٢٠ ق.م حين كان نظام الحكم دينياً ثيوقراطياً وحين كانوا يعتبرون المكرب الابن الأكبر للآله القمر.

وقد انتهى عهد الغزو بعد أن استقرت أغلب القبائل التي كانت تمارسه.

العين بالعين والسن بالسن:

تخضع قبائل الصحراء لقضاتها في الشؤون الزراعية والري وبعض الحوادث الجنائية. وقضاة القبيلة تقليديون يتوارثون مهنة القضاء وتنفيذ العرف الذي تخضع له القبائل. ويسمون قاضي القبيلة « الحكَم » (بفتح الحاء والكاف). ويحدث أن الشخص الذي يرغب في العبور في أراضي قبيلة اخرى عليه أن يستأجر أحد أفراد تلك القبيلة مرافقاً له. وإذا وقع اعتداء عليه برصاص أو بخنجر أو بأي سلاح آخر ينتشر الخبر بسرعة غريبة وينعقد مجلس الحكم للاستماع إلى تفاصيل الحادث وشكوى المعتدي عليه. والذي يدعو إلى العجب أن المرافق يتحمل العقاب فيأمر الحكم بأن يكون الجزاء من جنس العمل. مثلاً، إذا أصيب المسافر برصاصة في موضع من جسمه يحضر القضاة عوداً حاد الطرف يغرزونه في نفس الموضع من جسم المرافق ثم يضعون رصاصة في الثقب. وفي حالة رفض الحكم تشتعل نار القتال بين قبيلتي المعتدي أو المرافق والمسافر ولا يخمد اوارها إلا اذا خضع الطرفان للحكم فتدفع قبيلة المعتدي أو المرافق «لوم الوجه » الذي يكون عادة نقداً يتراوح بين ألف وعشرة آلاف ريال فضي خاصة إذا أدى الاعتداء إلى القتل. وكما جرت التقاليد تشترك كل القبيلة في جمع المبلغ ودفعه.

الهَجَر:

إذا اعتدى شخص على آخر وجرحه أو إذا تخاصم شخصان ونطق أحدهما بكلمات نابية وجب على المعتدي ان يقدم الهَجَر (بفتح الهاء والجيم) - أي الغرامة وتكون ثوراً أو ماعزاً او سلاحاً. وترتفع قيمة الهجر إذا كان الاعتداء أكثر خطورة. وإذا تزوج شخص وجب عليه دعوة جميع أقارب الفتاة العروسة. وإذا نسي أو إذا تجاهل دعوة أحد أقاربها فإن من حق القريب أن يطالب بالهجر. ولفظة هجر بالعربية الجنوبية القديمة تعني مدينة أو قرية كبيرة محصنة. ودفع الغرامة إرضاء للمدينة كلها لأن المعتدي خرج عن مألوف أهل المدينة.

ثمن البطن:

يحترم البدو ثمن البطن. فإذا حل قبيلي في منطقة قبلية وأكل في دار أحد أفرادها فإنه بحكم التقاليد في حماية المضيف وقبيلته مدة لا تقل عن أربعة أيام وأربع ليال وهي المدة التي ينتهي بعدها مفعول العيش والملح. وإذا اعتدى المضيف أو أحد أفراد قبيلته على الضيف أو ما يملكه قبل إنقضاء هذه المدة فإن على المضيف أن يعوض الضيف ويعيد إليه ما نهب منه كاملاً وإلا أصبحت القبيلة مضغة في أفواه القبائل الاخرى.

ردود السلام:

إذا التقى شخصان من قبيلتين متخاصمتين وسلم أحدهما على الآخر ورد الآخر السلام فإن ذلك يمنعهما من القتال في ذلك الحين. وإذا حدث واعتدى أحدهما على الآخر وهو مطمئن أو غافل فإن ذلك يعتبر عملاً شائناً لا تقره تقاليد القبائل وقد يستوجب طرد القبيلي من منطقة قبيلته التي تشطب اسمه وتعتبره خائناً جلب العار لقبيلته.

الدية:

عقوبة القتل العمد الموت أو دية القتيل وعقوبة القتل غير العمد نصف الدية في بعض النواحي والدية كاملة في نواح أخرى. وتكون الدية عدداً من الأبل

قد يبلغ المئة عند بعض القبائل. ويعود قبول الدية أو رفضها إلى أهل القتيل. وفي بعض النواحي حين يقبض على القاتل يؤخذ إلى قبر القتيل حيث يجتمع ورثته الذين يحكمون أما بقتله أو قبول الدية او العفو عنه. وإذا كان القاتل غير قادر على دفع الدية اشتركت القبيلة في تسديدها. وإذا فر القاتل أو إذا عجز عن دفعها في وقت محددٍ أو إذارفض أن يدفعها وأيدته قبيلته في موقفه اشتعلت نار القتال. وقد جرت عادة بعض القبائل على رفض الدية والاصرار على قتل القاتل. وأحياناً تستمر حرب الثأر بين قبيلتين أو فخيذتين أو فرعين أو حتى بيتين إلى أن يتدخل السادة أو الاشراف او العقلاء من الفريقين والجيران من رجال القبائل ويعقدون هدنة مدتها سنة أو أكثر أو أقل تبذل أثناءها الجهود للصلح بين الفريقين. وعند عقد الهدنة أو الصلح تقام وليمة كبيرة يحضرها الفريقان. وليس القتل وحده هو سبب حوادث القتل أو الثأر فأحياناً يكون الماء من الأسباب المهمة المؤدية إليه. فقد يتنازع فريقان على كمية من الماء أو قد يمنع فريق فريقاً من استعمال ماء الري فيؤدي ذلك إلى القتل.

المناوشات القبلية

حين ينشب القتال بين القبائل فان الفريقين المتقاتلين لا يسمحان لأحد من الفريق الآخر بالدخول الى أرضه. وتستمر المراقبة ليلا ونهارا. وأحيانا تشترك النساء في المراقبة وفي حمل السلاح والاعتناء به كأنه زوج. وفي هذا يصف شاعر قبيلي كيف أن النساء يسابقن الرجال في حمل السلاح:

ونحنا والنسوة على البندق سبق   تقول ان هذا زوج تمسي تعانقه

وفي أثناء القتال لا يسمح إلا للسادة والأشراف واليهود والنساء بالمرور في الأرض المحرمة الفاصلة بين القبيلتين للحصول على الماء أو للزراعة أو للاتصال بين القبيلتين وحمل الرسائل إليهما.

واذا فقد فريق أربعة رجال مثلا وفقد الفريق الآخر ثلاثة يحق للفريق الثاني أن يقتل واحدا من الفريق الأول أو يقبل الدية. وقد جرت العادة على

قبول الدية ولو أن بعض القبائل لا تزال تصر على عدم قبولها.

واذا وقع صلح بين الفريقين ثم قام أحدهما بخرق الاتفاق يكون الفريق ملزما بدفع دية جميع القتلى والجرحى أو استمرت الحرب. وفي حالة قيام الفريق بقتل واحد من رجال الفريق الآخر فإن الفريق الأول يكون ملزما بأن يدفع دية أحد عشر قتيلا كأدب على خرقه الاتفاق القبائلي.

وعلى الرغم من أن مئات قد يشتركون في المعركة إلا أنها لا يمكن أن تعتبر حربا دموية خطيرة لأن ضحايا الفريقين قد لا يتعدون العشرة. والسبب هو أن كلا الفريقين يحرصان على الوصول الى حل دون إراقة دماء كثيرة لأنه كلما ازداد عدد القتلى كلما تعرقلت مساعي الصلح وكلما ارتفعت قيمة الدية.

وفي بعض القبائل التي تعيش بعيدا عن المدن نرى رجال القبيلة ونساءها يربون أولادهم على الثأر لموت آبائهم أو اخوتهم أو أقربائهم أو ليسترجعوا أموالهم المنهوبة منهم. واذا اشتعلت الحرب فإن أعظم عار هو أن يتخلف شاب عن القتال. وهنا يصفون الرجل الذي يهب للقتال بجرأة بأنه «أحمر عين» ويصفون المتقاعس بأنه جبان ذو كبد بيضاء لا يجوز أن يلقى احتراما ولا يقبل والد أن يزوجه من ابنته.

الربيع

ان أشد مصيبةتقع على القبيلي هي أن يفقد علاقته بقبيلته. ولا يحدث هذا الا اذا قتل عمدا أحد أقربائه الأقربين أو إذا هتك العرض أو إذا خان تقاليد القبيلة. وتعطي بعض القبائل المذنب حق الاختيار بين القتل أو احتقار القبيلة كلها. وفي بعض المناطق الصحراوية يضطر المذنب الى الفرار الى الربع الخالي حيث يلتقي بأمثاله الذين يشكلون عصابات تكافح فوق الرمال المحرقة بالتصدي للقوافل. وفي أغلب الأحيان لا يعتدون على القوافل لأنهم يرغبون في أن يكونوا على وئام مع التجار والحراس المسلحين حتى يحصلوا على ما يريدون دون إراقة

دماء. وينضم بعض الفارين الى القبائل الغازية التي اعتادت الاغارة على القبائل الأخرى وعلى قوافل المسافرين.

واللاجىء الذي يبحث لنفسه عن مأوى بين القبائل الأخرى يسمى «ربيع» وتقبله القبائل كرجل جريء لكنها تطرده من حدودها أو تعيده الى قبيلته ليلقى مصيره اذا كان ذنبه فظيعا. وقد جرت عادة بعض أثرياء القبيلة على بناء منازل تبقى خالية من السكان لاستقبال الضيوف واللاجئين. واذا برهن الربيع على سوء سلوك فإن مضيفه يرسل إليه عودا من الحطب أحد طرفيه حاد فيفهم الربيع انه لم يعد مرغوبا فيه فيغادر المنزل. ويتمكن الربيع أحيانا من اصطحاب بعض ماشيته الى القرية التي يلجأ إليها وتسمح له القبيلة برعي ماشيته وبيعها لكنه لا يمكن أن يتصرف في روثها لأن لمضيفه الحق في استعمال الروث سمادا لأرضه.

اليهود والعرف القبائلي

عندما كانت الوثنية هي الديانة السائدة قبل المسيحية والاسلام هاجر عدد من اليهود من فلسطين الى اليمن بعد الغزو الروماني لفلسطين عام ٧٠ ق.م. وعملوا تجارا وصناعا وتمكن رؤساؤهم الدينيون من نشر اليهودية بين الوثنيين. وتقوى مركز اليهود بعد اعتناق بعض الملوك الحميريين وخاصة زرعة ذو نواس اليهودية التي استمرت في الانتشار حتى قتل زرعة أثناء الغزو الحبشي لليمن. وبعد ظهور الاسلام بقي اليهود في اليمن يعملون في الزراعة والتجارة والصناعة.

وفي مناطق القبائل التي يعيش فيها اليهود يعتبرون في ذمة القبائل. وبصفتهم هذه لا يمكن أن يصاب يهودي بسوء عندما يمر بين القبائل التي تنشب بينها حرب الثأر. وفي كثير من المناطق يحمل اليهودي سلاحه ولا يمكن تمييزه عن أي قبيلي آخر إلا بالزنارين التقليديين اللذين لا يزال يهود اليمن يحافظون عليها. وفي بعض النواحي يدفع اليهود ضريبة الرأس للقبيلة التي تتولى حمايتهم وممتلكاتهم

ومعابدهم من أي اعتداء حتى ولو ضحت القبيلة ببعض الرجال والمال في ذلك السبيل.

وفي كتاب «رحلات في اليمن» الذي كتبه اليهودي اليمني حاييم حبشوش واصفاً فيه مرافقته لعالم الآثار الفرنسي اليهودي يوسف هاليفي عام ١٨٧٠م يقول ان قبيليا ضعيف العقل من فخيذة بن معسر قتل يهوديا من أتباع فخيذة بولحوم- وكلا الفخيذتين من قبيلة نِهْم الخولانية. وما ان انتشر الخبر حتى خرج ألفان من رجال الفخيذتين ليتقاتلوا لكن قضاة «حُجر» التقليديين تدخلوا في الحال وسلّمت الفخيذتان سلاحها بموجب العرف حتى يصدر الحكم. وتعين أربعة مندوبين عن أربع من كبار القبائل اليمنية كَمُحَكَّمين. وصدر الحكم بأن تدفع قبيلة القاتل أربعة أضعاف الدية العادية الى جانب المصاريف الباهظة التي فرضت على فخيذته. وقد دفع نصف المبلغ لأسرة القتيل والنصف الآخر لفخيذته التي حملت السلاح للأخذ بثأره.

والقصة الأخرى التي يذكرها حاييم حبشوش هي أن قبيليا من آل الجرادي نهب تاجرا يهوديا من أتباع ابن معسر. وحال ما علم ابن معسر بما حدث جمع خمس مائة من رجاله المسلحين هجم بهم على معاقل آل الجرادي. وجرت معركة قتل فيها اثنان من آل معسر لكن ابن معسر تمكن من الاستيلاء على المعقل وأعاد الى التاجر اليهودي كل ما نهبه منه الجرادي. واستطاع الجرادي أن يهرب ويلتجىء الى فخيذة بني جبر من حيث بدأ يشن هجمات على ابن معسر. ومن أجل أن يمنع ابن معسر هذه الهجمات ذهب الى منطقة بني جبر وعقر عددا من الثيران عند قبر جبر ابن علوان جد الفخيذة، وبهذا صار ابن معسر في وجه بني جبر. وطلب ابن معسر من شيخ بني جبر اما أن يحكم بينه وبين الجرادي أو يطرده من منطقته لأنه بحكم العرف لا يستطيع أن يقاتله ويهاجمه وهو في أرض قبيلة أخرى. وطلب شيخ بني جبر من الجرادي الخروج برجاله من منطقته. ولما عاد الجرادي الى أرضه اشتعل القتال بينه وبين ابن معسر. وفي المناوشات قتل الجرادي واخوته.

وبعد الغزو التركي لليمن عام ١٨٧٢ أمر الحاكم التركي اليهود بأن يدفعوا ضريبة الرأس لخزينة الدولة والامتناع عن دفعها للشيوخ. وفي عام ١٨٩٣م طلب ابن معسر من اليهود الذين في رعاية قبيلته أن يدفعوا له الضريبة لفترة الاثنتين وعشرين سنة الماضية التي امتنعوا فيها عن دفعها للقبيلة أو أن يدفعوا لقبيلته دية أربعة من رجال القبيلة قتلوا دفاعا عن اليهود. وعقر اليهود ثورا أمام دار ابن معسر لكن الشيخ رفض الاعفاء وكانت حجته ان القبيلة تأثرت اقتصاديا من اتفاقية السلام المعقودة بينهم وبين الأتراك بينا استفاد اليهود اقتصاديا لأن صناعتهم وتجارتهم انتعشت أثناء الاحتلال التركي. وأخيرا أدرك عقلاء اليهود انه ليس من مصلحتهم تقديم شكوى للحاكم التركي ضد شيخ قبيلتهم التي ظلت تحميهم وتصون ممتلكاتهم حتى عندما لم يكونوا يدفعون ضريبة الرأس فوسطوا ابن عم الشيخ الذي تمكن من اقناع الشيخ بالتنازل. وقبل الشيخ ضريبة اسمية لا تتعدى سبعة ريالات فضية.

ومن قصص رعاية القبائل لليهود يذكر حبشوش امرأة يهودية اسمها ربيعة في الحزم في همدان اشتهرت بجمالها وأخلاقها الحميدة. وانها في أحد الأيام استقبلت رجلا كبير المقام في منزلها بكرم تقليدي. ولما رأى الرجل جمالها راودها عن نفسها فأبت ولما أراد أن يغتصبها أسرعت بالخروج من المنزل وأقفلت عليه الباب وجمعت رجال القرية ووصفت لهم ما جرى من الضيف الذي أراد أن يخرق تقاليد الضيافة عند القبائل. وأسرع الرجال الى المنزل وعقروا بغلة الضيف عند الباب ولم يطلقوا سراحه الا بعد أن وبخوه توبيخاً عنيفاً.

البشعة

يُحكم على السارق بالغرامة أو السجن. وقد كانت عادة قطع اليد سارية المفعول لكنها توقفت الا في المدن في نطاق ضيق حيث تحكم المحاكم الشرعية بالقصاص. واذا اشتكى أحد الناس ان مجهولا سرقه أو اقترف الفاحشة أو أحرق المزروعات والأشجار أو قتل الماشية أو أي ذنب مشابه يطلب من جميع المشتبه فيهم «وجهاً» يعاد اليه بعد ثبوت براءته. فيقدم كل واحد اما بندقية

أو خنجراً أو حلية أو أي شيء آخر. والكلمة «وجه» تعني «شرف». ثم يجتمع كل المشتبه فيهم في بقعة مفتوحة من الأرض ويحضر الناس من القرى المجاورة لمشاهدة البشعة. وتشعل النار وتوضع فيها قطعة حديد حتى تحمرّ ثم تسحب وتعلق فيتقدم المشتبه فيهم واحدا بعد الآخر ليلحسوها. ويظهر ان علم النفس يلعب دورا مهما في التحقيق المؤلم، فالمذنب يشعر بالخوف والخزي وتجف لسانه ويتوقف لعابه فتحرق اللسان، أما البريء فيكون مطمئنا هادئا تبقى لسانه مبتلة فلا يتأثر كثيرا بالحرارة. وقد يشعر بلسعة لكنها غير ضارة.

وفي بعض النواحي القبلية اذا اتهم أحد باقتراف ذنب مهما كان مركزه الاجتماعي بين القبائل فانه يرسل الى بعض النواحي في حضرموت وخاصة في وادي عرمة حيث يجري الاحتفال بإقامة البشعة تحت اشراف المُبَشِّع المتخصص في الفترة الواقعة بين صلاة الفجر وصلاة الظهر. وبعد أن يجتمع المتهمون حول نار مشتعلة يضع المبشع سكاكين بين الجمرات حتى تحمرّ ثم يفتح المتهم فمه ويخرج لسانه فيقبض عليها المبشّع بطرفي ابهامه وسبابته بقطعة من القماش ويسحب السكين من النار ويقربها من شفتيه ثم يضعها جانبيا على طرف اللسان الممدودة. وبعد انقضاء ساعتين يفحص اللسان فاذا وجدها متورمة أو محترقة أو إذا ظهر أن غدة عنقه قد تأثرت أعلن ان المتهم مذنب. وحينئذ لا مفر من أن يدفع المذنب حياته ثمنا لذنبه أو أن يدفع الدية أو توقع عليه عقوبة العين بالعين والسن بالسن اذا لم تكن جريمته القتل. وللمتضررين من جريمته حق تقرير العقوبة.

لقمة الخانوق

عندما يتهم عدد من الأشخاص بالسرقة يُحضر شخص متخصص رغيفا يكتب عليه بعض الآيات والتعاويذ ثم يقدم لكل متهم لقمة ليلوكها ويبتلعها. وهنا أيضاً يلعب علم النفس دوره، فان المذنب يلوكها في فمه الجاف الخالي من اللعاب ولا يستطيع أن يبتلعها لأنها تتوقف في حنجرته فيشعر بالاختناق. أما البريء فيبتلعها بسهولة.

المندل

يحدث انه اذا وقعت سرقة في أحد المنازل أن يذهب أصحابه الى أحد المتخصصين ليكشف لهم عن السائق أو يذهبون الى ضارب المندل الذي يطلب منهم أن يحضروا له صبيا دون البلوغ ينظر في كأس أو أي وعاء مناسب به ماء، ويظل ضارب المندل يقرأ بعض التعاويذ والآيات بينما الطفل يركز نظره في الماء. ويحدث أن يتكلم الصبي ونظره الى الماء وكأنه يشاهد شريطا سينمائيا فيذكر انه يرى شخصا (وأحيانا يذكر اسمه اذا كان يعرفه) وهو يتقدم الى المكان الفلاني ويأخذ النقود أو الحلي ويضعها في جيبه ثم يخرج من المنزل ويسير في الشارع الفلاني ثم هنا وهناك ثم يصعد سيارة تسير به على طريق بحري أو جبلي أو صحراوي أو ينقل المسروقات الى المكان الفلاني. ويصف الملابس التي يرتديها السارق.

وتذكر الأساطير ان نبي الله يوسف كان يملك وعاء فضيا اسمه «قدح يوسف» وان يوسف كان يستطيع أن يعرف السارق بواسطة الوعاء الذي كانت تظهر فيه صور. ومما يذكر أن اخوة يوسف لما جاءوا الى مصر أثناء المجاعة في فلسطين وضع خادم يوسف الوعاء بأمر من يوسف بين أمتعة الاخوة وانه بعد ذلك فتش الأمتعة وأخرج الوعاء أمام الاخوة واتهمهم بسرقته. وجاء في الآية ٤ – ٥ من الاصحاح ٤٤ من سفر التكوين على لسان الخادم: «لماذا جازيتم شرا بدلا من الخير. أليس هذا هو الذي يشرب سيدي فيه وهو يتفاءل به. أسأتم ما صنعتم».

ولسنا وحدنا الذين نمارس عادة المندل بل اننا نجدها منتشرة في كثير من بلدان آسيا وافريقيا وأوروبا. ففي الدانمارك والسويد والنرويج يذهب الناس مساء الخميس الى ضارب المندل الذي يريهم صورة السائق الذي سرقهم في دلو ممتلىء بالماء. وعند قبائل التاهيتي يلجأ الناس الى شخص يستطيع رؤية وجه السائق على صفحة ماء موضوع في قرعة مفرغة. وفي الهند يكتبون اسم كل متهم بالسرقة على كرة منفصلة من العجين أو الشمع ثم يقذفون بها في وعاء به ماء.

وتطفو الكرة التي عليها اسم السارق أما بقية الكرات فتستقر في قاع الوعاء. وفي بلاد الثلوج الدائمة اذا تغيب أحد رجال الاسكيمو عن منزله وشعرت أسرته بالقلق عليه تذهب الى ساحر القبيلة الذي ينظر في برميل ممتلىء بالماء ثم يذكر انه يرى الغائب وقد انقلب به زورقه أو أنه يراه يجدف بمجدافه أو أنه يراه ميتا.

المسمورة المنقورة

في صنعاء يوجد الجامع الكبير الذي يقال ان أول من وضع حجر الأساس فيه هو معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي انتدبه رسول الله ﷺ ليبشر بالاسلام في اليمن. وقد جدد بناء الجامع فيه السلطان محمد بن يعفر عام ٢٦٠ هـ ثم جددته وزادت فيه الملكة أروى بنت أحمد الصليحي. ويقال ان التي أمرت ببناء الجامع هي السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ، وانه اذا هُدمت مدينة صنعاء فان بالامكان اعادة بنائها من النذور والهدايا التي تصل الى الجامع أما إذا تهدم الجامع فان أهل صنعاء جميعهم لا يكفون لاعادة بنائه.

والاعتقاد السائد في نواحي شمال اليمن الشمالية ان من أقسم اليمين كذبا أمام حجر الأساس هذه التي يسمونها المسمورة المنقورة يصاب في ماله ورزقه وعياله. وقد جرت العادة ان المدعي عندما يفشل في إقامة الحجة على خصمه أمام المحاكم الشرعية يطلب من الخصم أن يحضر معه الى الجامع الكبير ليقسم اليمين أمام المسمورة المنقورة. واذا كان الخصم بريئا يذهب الى الجامع مطمئن البال أما اذا كان مذنبا فان أعظم ما يخشاه هو الوقوف أمامها. وكثيرا ما يعترف المذنب بذنبه قبل الدخول الى الجامع أو يوسط بعض الناس للتدخل بينه وبين المدعي. وليس أهل صنعاء هم وحدهم الذين يؤمنون بالنتائج الوخيمة لليمين الكاذبة أمام المسمورة المنقورة بل ان سكان القرية والمدن النائية يطلبون خصومهم للقسم أمامها. واذا رفض خصم الحضور الى الجامع فان المحاكم الشرعية لا تعتبر تصرفه هذا حجة عليه لكن خبر رفضه الحضور ينتشر بين الناس فتثبت عندهم ادانته ويكون هذا بمثابة الحكم بذنبه ومن ثم أشد إيلاما له من السجن.

رنين الأجراس

ومن بين العادات المنتشرة في الأرياف تعليق الأجراس حول أعناق الجمال والبقر والحمير والبغال. وليس الغرض هو تنبيه المشاة الى وجود الحيوان والابتعاد عن طريقه لكنها عادة قديمة منتشرة في كثير من أرياف العالم الغرض منها طرد الأرواح الشريرة والشياطين ووقاية الحيوان من العين الحاسدة.

والمعروف ان دق الأجراس في الكنائس المسيحية هو لتنبيه الناس الى حلول أوقات الصلاة وطرد الشياطين والأرواح الشريرة بسبب الاعتقاد السائد أن رنين الأجراس والمواد المعدنية الأخرى يخيف الشياطين والأرواح الشريرة ويضطرها الى الهرب. وقد جرت العادة أن تدق أجراس الكنائس في مناسبتين مهمتين هما عند هبوب العواصف والرياح المدمرة وعند الوفاة. والمناسبة الأولى سببها وثني قديم هو الاعتقاد بأن آلهة العواصف والرياح غاضبة فتدق الأجراس لاخافتها أو لتهدئة ثورتها. والمناسبة الأخرى هي ان الانسان عندما تحين ساعة وفاته تحضر أرواح حول جسده وتظل تدور حول المنزل فتدق الأجراس في المنزل وفي الكنائس لطردها حتى يمكن أن تدفن الجثة دون أن تقوم الأرواح بإيذاء روح الميت. أما عند المسلمين فان الآذان وقراءة سور من القرآن الكريم فللتضرع الى الله تعالى بأن ينزل رحمته على روح المتوفى.

وكما قلنا ان رنين المواد المعدنية يطرد الشياطين والأرواح الشريرة. وربما ان هذا هو السبب في استعمال النساء الريفيات حول أعناقهن عقودا من الريالات الفضية والدنانير الذهبية التي ترن كلما تحركت المرأة وان لبس الخلخال كان لنفس الغرض مع ان المعروف أيضاً ان الحلي الذهبية والفضية حول العنق واليدين والساقين كالأقراط والأساور والخلاخيل والأحزمة وغيرها ليست سوى قيود وحبال كان الرجل البدائي في العصور الموغلة في القدم يقيد بها المرأة حتى لا تهرب أو حتى لا يختطفها الغزاة.

غلي اللبن

وبين العادات التي لا تزال منتشرة في أرياف البلاد العربية والصومال

وافريقيا عدم غلي لبن الابل والأبقار لأن الاعتقاد أن غليه يجعل لبن الابل والأبقار يجف أو تنقص كميته خصوصا بعد أن يلد الحيوان لأن اللبن في تلك الأثناء يبقى مرتبطا بعلاقة حية بحيث ان الحيوان صاحب اللبن يصيبه الضرر بواقع التعاطف بمثل الاساءة التي أسيء بها لبنها. ومعنى هذا ان غلي اللبن في الوعاء يساوي غليه في ضرعها وهذا من شأنه أن يجعل اللبن يجف في مكانه الطبيعي.

تزويج البنات الصغيرات

جرت عادة اليمنيين خصوصا في المناطق الريفية على تزويج بناتهم وهن صغيرات السن وقد نسمع عن بنت متزوجة وهي دون سن البلوغ أو سن الرشد وكثيرا ما نسمع ان والدا عقد زواج ابنته وهي في الخامسة من عمرها بصبي صغير السن ولكن الزفاف لا يقع الا بعد سنوات. وكثيرا ما تقع مشاكل شرعية واجتماعية عندما يرفض الأب أن يزف ابنته بعد أن كان قد وعد بتزويجها شفهيا. ويعتقد الريفيون أن تزويج الأولاد في الصغر صيانة لهما في الكبر.

ومن الطريف أن نذكر أن أبرهة الأشرم عندما حكم اليمن استعان بالمطران جريجنتيوس في إصدار القوانين وأن من بين التشريعات عقاب الوالدين اللذين لا يزوجان ابنتهما وهي في سن العاشرة أو الثانية عشر.

ويظهر ان اليهود تأقلموا بالمحيط الذي يعيشون فيه، فيذكر حاييم حبشوش ان عالم الآثار الفرنسي اليهودي يوسف خاليفي عندما وصل الى «خب» في همدان وجد رجلا يهوديا يدّعي بأنه خطب بنتا في الرابعة أو الخامسة من عمرها بموجب اتفاق مع أسرتها. ولكن الأسرة أنكرت أي اتفاق سابق ورفضت تزويجها. واشتد الجدل بين فريق الخطيب والأسرة وكانوا على وشك أن يمتشقوا سيوفهم عندما اقترح بعضهم تحكيم يوسف هاليفي بموجب الشريعة اليهودية لأن هاليفي كان يحمل رتبة «رابي» من بيت المقدس. وفي أول الأمر رفض هاليفي أن يورط نفسه في هذا الخلاف الخطير لكنه بعد الحاح من الجانبين قرأ عليهم

غيبا فصلا وفقرة من شريعة كارو. ويظهر أنه تمكن من اقناعهم بعدم شرعية تزويج البنت أو خطبتها وهي في تلك السن.

توريث الاناث

جرت عادة بعض القبائل على حرمان البنت من تركة أبيها أو أمها أو خفض نصيبها حتى لا يذهب الميراث لزوجها الذي لا ينتمي الى أسرتها أو لأولاده منها. وهذا الحرمان لا يكون علنا بل بالتحايل بكتابة وثائق مظهرها شرعي حتى لا تقوم الحجة على المورث أو أولاده بمخالفة الشرع. مثال ذلك أن يشتري الأب قبل وفاته ممتلكات يدفع قيمتها بأسماء أولاده الذكور وكأنهم هم الذين اشتروها بمالهم أو يخصص جزءاً من ممتلكاته وقفا تحت اشراف أحد أولاده أو أكبرهم سناً للدرس على روحه بعد وفاته. وكثيرا ما تقوم مشاكل شرعية بين الأولاد الذكور بخصوص هذا الوقف الذي قد يستغله أحدهم لمصلحته ومصلحة أولاده. وفي حالة وفاة الزوج يتزوجها أخ المتوفى حتى يبقى الميراث في محيط الأسرة.

احصاء السكان وعد المواشي

عندما تقوم الحكومة بعملية احصاء السكان يمتنع البعض عن اعطاء العدد الصحيح لمن يعولون من نساء وبنين وبنات. وقد يظن البعض ان السبب هو الخوف من أن تفرض عليهم الدولة زكاة أو ما يشبه الجزية بحسب عدد من في المنزل من السكان. ويمكن أن يكون الامتناع هو الخوف من العين الحاسدة ومن الشيطان. وقد يمتنع رب الأسرة عن ذكر عدد الاناث لأنه لا يفتخر بهن أو قد يتردد في اعطاء أسمائهن للأجانب. وهنا يجدر ان نذكر الآية الكريمة من سورة يوسف التي فيها يخاطب يعقوب أولاده قائلا: «يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة». وهي الآية التي يقول المفسرون إن يعقوب كان يخشى على أبنائه من العين الحاسدة لكثرتهم وجمالهم.

وكان اليهود يرفضون احصاء عددهم لأنهم يعتقدون أن الله أبدى كراهيته نحو تعدادهم. وقد زاد تشاؤمهم من الاحصاء بعد الكارثة التي حلت بهم أيام

نبي الله داود الذي قيل بأن الشيطان أوحى إليه بأن يعد قومه وبأن الطاعون انتشر بعد الاحصاء مباشرة فأهلك كثيرين منهم وتناقص عددهم.

وفي كثير من النواحي الريفية العربية لا يعدون كيلات الحبوب الا اذا ذكروا اسم الله بعد كل رقم، كما يمتنعون عن عد مواشيهم أو اعلان أرقامها خوفا من الحسد والشياطين.

الختان أمام الناس

يعتبر الختان أحد الطقوس المهمة في عرف بعض القبائل، فهم ينظرون الى غير المختون كشخص بدون طهارة حتى يختن. وتختلف طرق اجراء عملية الختان في المناطق القبلية البعيدة وتتفق عند بعض القبائل حتى ولو كانت تفصلها مئات الأميال. مثلا نستطيع أن نجد تشابها بين عملية الختان في التهائم اليمنية في البحر الأحمر وفي جزيرة سقطرة وبلاد المهرى وظفار المطلة على خليج عدن وبحر العرب. فبينما تختن البنت سرا عند ميلادها أو بعد أيام أو أسابيع بعد ميلاها تتأخر عملية الختان بالنسبة للذكور الى أن يصلوا الى السادسة من العمر أو الى أن يبلغوا سن الرشد أو الى ليلة العرس حين تسلخ الجلدة السطحية.

ويقيم رجال القبائل حفلات مشهودة يحضرها شباب القبيلة الذين تجرى لهم العملية وتكون بمثابة امتحان لشجاعتهم وصبرهم وقوة احتمالهم للألم. ويجتمع الرجال والنساء في حلقة كبيرة في وسطها صخرة يجلس عليها الشاب وبيده اليمنى سيف يقبض عليه من شفرته الحادة ويقذف به في الهواء ثم يتلقفه دون أن يصدر عنها يشير الى شعوره بالألم حتى لو أصابت الشفرة كفه وسالت دماؤه. وفي الوقت الذي تجرى فيه عملية الختان وسلخ الجلد يرتفع صوته معتزاً متفاخرا بأسرته وقبيلته.

وقد جرت عادة بعض قبائل المهرى وظفار ان يجلس الرجل الذي يقوم بعملية الختان ووراءه احدى قريبات الشاب حاملة سيفا تلعب به وتقذف به في الهواء وتتلقفه من شفرته الحادة ربما لتشجيعه على احتمال الألم. وبعد أن تتم

العملية مباشرة يقف والدماء تنزف منه ثم يجري حول الحلقة وهو ينشد القصائد الحماسية وسط دقات الطبول وطلقات الرصاص.

وفي بعض النواحي ترفض النساء الزواج من الرجل الذي يصرخ من الألم وقت اجراء العملية.

عادات الزواج والولادة

تختلف عادة الزواج اليوم عن العادة التي كانت سائدة منذ ثلاثين عاما إلا في بعض المناطق التي لم تتطور كثيراً خلال هذه الفترة من الزمن. فعدن مثلا التي تعتبر أكثر مناطق جنوب الجزيرة العربية تطورا تغيرت فيها العادات وأصبحت الفتاة أكثر حرية في مسألة الزواج وقبول الزوج أو رفضه وأحيانا في اختياره والاتفاق معه حتى قبل أن يعرف الأب شيئا عن خطوبتها.

أما في الماضي القريب فقد كان أهل العريس يكلفون الخاطبة بالبحث عن زوجة مناسبة لابنهم. وكان عمل الخاطبة فناً. فهي تذهب الى المنازل وتشاهد الفتيات وتفحصهن بعين الناقد الخبير ثم تذهب الى أم العريس وتصف الفتاة بالبياض أو السمرة والشعر الطويل الأملس والخصر النحيل والصدر البارز والنغمة الموسيقية والمشي الرشيق والجسم الصحيح الذي لا يكلف الزوج متاعب الذهاب الى الأطباء وغيرها من الأوصاف الجميلة حتى ولو كانت الفتاة خالية منها. وبعد ذلك تذهب الأم أو العمة أو الخالة الى بيت الفتاة. وقد جرت العادة أن تحتجب الفتاة من الغريبات. وتتكلم الأم مع أمها بأنها خاطبة راغبة فلانة لابنها فلان. وكان موظف الدولة في تلك الأيام خير عريس. ولا ترد الأم بالقبول أو الرفض بل تجيب بأنها ستتكلم مع والد الفتاة في الموضوع. وقد يأخذ الرد عدة أيام أو أسابيع حتى لا يظن أهل العريس انهم يريدون الخلاص من ابنتهم لسبب من الأسباب. وفي هذه الأثناء يسأل أهل العروس عن العريس وأخلاقه. وعند الموافقة يكون الطلب الأساسي بعد الاتفاق على « الدفع » والمهر المؤجل هو أن يقدم أهل العريس للعروس الشيدر (الشرشف) وحيش الناس

(الحذاء) والكبش و« المتابيع ». ولا تعرف الفتاة شيئاً عن زواجها حتى يوم الزقرة (وهذه الكلمة تعني القبض والمسك. فعندما نقول « أزقر فلانا » نعني أمسك فلانا وأقبض عليه). وقد تعرف الفتاة شيئا عن زواجها من قريباتها وصديقاتها. وبعد الزقرة ترتدي الفتاة غطاء من الحرير الملون المزركش يسمونه « سباعي » وتحتجب الفتاة. وفي اليوم التالي تقام حفلة « الغسل » وتقوم النسوة من أهلها بغسلها بمطحون الغسل ويبخرنها ويعطرنها ويلبسنها الملابس الخضراء. ولا يمكن أن تشترك في غسلها امرأة قد تزوجت مرتين. وبعد الغسل تخلع الملابس الخضراء التي توضع في طبق ثم تزف الفتاة على دقات طبول « المشترحة » التي تبيت في بيت العروس تلك الليلة، وهي امرأة تخصصت في احياء مثل هذه المناسبة. وتنتشر رائحة البخور في كل أنحاء المنزل. وعلى دقات الطبول والدفوف ترقص النساء رقصة « المُرَكَّح ». وتجلس العروس على مقعد ويأتي الأهل لتقديم النقط من الفلوس والهدايا ثم بعدهن تأتي بقية المدعوات لدفع النقط ويكون ذلك بعد أذان الظهر. وفي ذلك اليوم يقدم أهل العريس « المُكْمُس » لأهل العروس (وهو هدية من العطور والبخور والملابس). وفي ليلة الدخلة يحضر العريس وأهله وجيرانه الى منزل العروس ويقدمون لها النقط وهي محجبة في احدى غرف المنزل. ثم تنتقل الى منزله لكنها لا تسمح له بأن يرى وجهها الا بعد أن يقدم لها « المسحة » (وهي عبارة عن مبلغ من النقود). ثم تأتي احدى قريباتها المرافقات لها وتسمى « مُكَدِّية » وتغسل لهما قدميهما اليُمْنيين. وهنا يحاول كل منهما أن يضع قدمه فوق قدم الآخر، ومعنى هذا ان الذي تكون قدمه أعلى يكون هو المسيطر على الآخر. وفي اليوم التالي تقام حفلة « الصبحية » ويذهب العريس الى منزل العروس ليسلم على والديها ويتناول معهما الغداء، وفي ذلك اليوم يقدم أهله لأهلها « الصبحية » (وهي الملابس الداخلية للعروس في ليلة الدخلة) ويصفونها بأنها « بياض الوجه » وتعني أن العريس وجد العروس عذراء.

وكانت العادة قد جرت في الماضي حين لم تكن توجد مستشفيات ولادة أن

تضع الزوجة مولودها الأول في بيت والديها. وبعد أن تلد تغطي رأسها ولا تسير الا والحذاء في قدميها. واذا ذهبت الى الحمام تحمل سكينا أو قطعة من الحديد لطرد الجن والأرواح الشريرة. ولا يتأخر ختان الطفل طويلا. وقبل الختان لا يمكن أن يبقى الطفل وحيدا في الغرفة خوفا عليه من الجن. والاعتقاد السائد ان الختان تطهير له وتنفير عنه من الجن. ويبقى الطفل أربعين يوما بعد ولادته تحت رقابة شديدة فيغطون رأسه باللبدة (اللجعة) ويطلون جسمه بسليط الجلجل (دهن السمسم) والشذاب والقطران والهشة والحاتيت. واحيانا يعطونه قليلا من العنبر مع اللبن والعسل... واذا أصيب بحمى يمسحون قدميه بعصير الليمون، كما يستمر البخور منتشرا في أنحاء البيت طول هذه المدة. ويخشى أهل الطفل من النجاسة. فلا يسمحون لأحد برؤية الطفل في حالة الجنابة أو العادة الشهرية.

وفي بعض المناطق القبلية جرت العادة على أن يكون مهر المرأة عددا من المال والمواشي. وهي أكثر حرية من المرأة في المدن الريفية. والمرأة الصحراوية تعمل في جلب الماء والحطب وترعى الماشية. وإذا أساء زوجها معاملتها تلجأ الى والدها واخوتها الذين يحمونها ولا يسمحون له باسترجاعها رغما عنها. ويحاول الزوج استرضاءها بتقديم هدية لها. والعصمة بيد الزوج لذلك لا تستطيع أن تطلقه لكن بامكانها أن ترفض العودة إليه حتى يطلقها وعندئذ يستعيد الجمال والمواشي التي دفعها مهرا لها. أما إذا طلقها برضاه ودون أن تلجأ الى أهلها فإن المهر يبقى ملكا لها.

وعن عادة الزواج والولادة في صنعاء واليمن الأعلى يذكر المؤرخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي في كتابه تاريخ اليمن:

«المهر يدفعه الزوج معجلا وقد يؤجل النصف ويسلم الزوج أيضاً ما يلزم للزوجة من التجهيز والعزومة ويسميه أهل اليمن حق النار، ويقرب في القدر مثل المهر». ويقول «ان على الزوج أن يدفع للزوجة مبلغا من المال ليلة الدخلة ويسمى حق الصباح وان عليه أن يدفع مبلغا ثالث يوم عرسه الى أم زوجته أو يشتري لها ملبسا مناسبا من حرير أو غيره. أما لوازم البيت وجميع الملبوسات

فعلى الزوج وليس عليها شيء إذا طلقها زوجها فليس لها منه شيء لأنها ملكه.

ويقول الواسعي عن تجهيز حفلة الزواج: « تجهيز العرس، وتحضر فيه الولائم والعزومات ثلاثة أيام، اليوم الأول يسمى يوم الحمّام، يدعو أهل الزوجة أقارب الزوج من النساء للذهاب معهن الى الحمام. ويجلس ذلك اليوم معهن في البيت للأكل والشرب، واليوم الثاني يسمى يوم النقش، ويحضر أقارب نساء الزوج في بيت العروسة، وتنتقش العروسة باليدين والرجلين بصباغ معروف (الخضاب) وينتقش مع العروسة أقرب قريبات الزوج وكذا قرائب نساء الزوجة. وبعد الظهر يحضر النساء في بيت العروس الى المغرب، وتحضر المنشدة تنشد الأشعار وهي مدائح نبوية ثم مدح العريس وأهله ثم العروسة وأهلها وتهنئتها. واليوم الثالث (الحفلة) ويسمى يوم الدخلة ولكل من العروسين أن يدعو من أراد قريبا أو بعيدا. ويشترط أن يحضر العروس نفسه أو أحد أقاربه أو صاحبه لدى بيت الزوجة للعشاء فقط ويرجع الى بيته. وفي اليوم التالي ويسمى يوم الصباح تكون الدعوة في بيت الزوج وهو الغداء فقط. ويشترط أن يحضر عنده من بيت الزوجة ضعف من حضر عند الزوجة. وفي اليوم الأول وفي اليوم الثالث يذهب صباحا للسلام على أم زوجته ».

ويقول أيضاً: « ثم في اليوم السابع يدعو الزوج أهل زوجته جميعا فيحضرن من الصباح الى المساء أكلا وشربا. وبعد الظهر يحضر النساء عامة من الجيران وغيرهم الى وقت المغرب. وفي اليوم العشرين عكس يوم السابع يحضر جميع أهل الزوج في بيت الزوجة ويحضر معهم أهل الزوج من ضعف الذين حضروا يوم السابع من الصبح الى المساء أكلا وشربا. وليس للزوجة أن تخرج من بيت زوجها ولا الى أهلها قبل العشرين يوما. والأغلب أن لا تخرج إلا يوم الأربعين عند أبويها للعزومة. ويسمى هذا اليوم يوم الشكمة. وبعد الظهر يجتمع جملة من النساء وتحضر منشدة تنشد المدائح النبوية مع تخلل بعض أذكار وقراءة سورة ياسين الى قبل المغرب ».

وعن عادة الولادة يقول: « اذا ولدت المرأة فالويل ثم الويل لصاحب المولود

لا سيا ان كان فقيرا . وهذه عادة قبيحة في اليمن اذا ولدت المرأة ذكرا كان أو أنثى ، حيا أو ميتا يلزم الزوج أن يتكلف بإيجاد مكان واسع ويحضر له أحسن الفرش والزينة ويوضع القماش الملون على جميع الجدران ».

ويضيف قائلا: « وتحضر النساء عند هذه المرأة من يوم السابع من الولادة الى تمام أربعين يوما ، والنساء من أقاربها وغيرهم كل يوم من بعد الظهر الى المغرب وكأن هذا لدى النساء من الأمور اللازمة. ومن بعد دخول النساء الى خروجهن لا يزلن في شرب القهوة من جمنة بعد أخرى (الجمنة مثل الابريق من الفخار). ويحضر عند النساء في أكثر الأيام النشادة. وهي امرأة أو اثنتان تنشدان القصائد مدحا في الحضرة النبوية أو في الوعظ وذم الدنيا الشاغلة عن الآخرة وقبل ذلك تقرأ النشادة سورة ياسين وسورة تبارك وهكذا كل مجالس النساء في فرح أو ترح. ويحضر عند ذلك ماء الورد يصب على النساء الحاضرات ويبخر بالعود الطيب العال. وفي هذه المدة وهي أربعون يوما تلازم المرأة الأكل صباحا ، أكل الفطير المفتوت بالسمن والعسل ويسميه أهل اليمن (المعصوب) وفي وقت طعام الغداء والعشاء تأكل الفراخ الصغار ويسميها أهل اليمن (الشقران) فيقاسي الزوج من هذه المصاريف وتعب النساء أشد من مصاريف التزويج . أما إذا كان فقيرا فتحصل له غاية التعب ، وفي المثل في اليمن «عرسان ولا ولادة واحدة »).

الزواج عند يهود اليمن

وفيما يخص يهود جنوب الجزيرة العربية نذكر ان تغييرات كثيرة قد حدثت نتيجة لدخول العادات الأوروبية . ومهما يكن فان اليهود الأكثر تمسكا بالتقاليد لا يزالون محافظين عليها . فبعد الترتيبات الضرورية التي تقوم بها النساء يرسل والد العريس شخصين الى منزل والدي العروس للحصول على موافقتها على الخطوبة . وبعد أيام قليلة تذهب امرأتان الى منزل العروس وتقدمان لها الهدية . وبعد أسابيع أو أشهر قليلة تبدأ احتفالات الزواج وتستمر أياما وتقام سهرات في منزل العريس حيث يقدم الخمر والقهوة وفي مثل هذه الاحتفالات يلقون

الأغاني ويعزفون الموسيقى، وغالبا ما تكون أغان صنعانية. ويقوم الفريقان بدعوة الأصدقاء والأقارب. وفي أول يوم يرسل أهل العريس ولدا أو فتاة الى منزل العروس بهدية من الملابس والجوهرات، وفي نفس اليوم يحلق العريس شعر رأسه ويغسل بالحنة ويلبس ثيابا مزركشة زاهية وترسل دعوات الى الأهل والأقارب الذين يحضرون الى مكان الاحتفال، ويوضع اناء يضع فيه المدعوون النقط. وفي اليوم العاشر يقام احتفال في بيت والد العروس ويحضر العريس مع الموري وعدد من المرافقين الى منزل والد العروس حيث يعد ثور مغطى بالملابس الزاهية ومزين بالحلى الفضية ويقوم الموري بذبحه وهو ممسك بيد العريس الذي يكون قد لمس السكين بيده. ويحدث عقد الزواج خلال الاسبوع الأول من الاحتفالات ويقع عادة في ليلة الاثنين في بيت العريس حيث يجلس العريس ووالده بجانب الموري مواجهين لوالد العروس وأقارب الفريقين. ثم يفتح الموري شهادة زواج كانت قد هيئت من قبل ويقدم الوثيقة وهو ممسك بكأس ممتلىء بالخمر يقدمه للعريس. وبعد أن يشرب الكأس يعيد الوثيقة الى الموري الذي يقرأها بصوت عال، وبعد ذلك يقبل كل واحد من المدعوين الوثيقة ويضع اثنان من الحاضرين توقيعهما كشاهدي زواج. وينقضي بقية اليوم في الغناء والشراب حتى الساعة الثانية صباحا. ويذهب الموري والعريس وبعض المدعوين الى بيت العروس وتكون في ذلك الحين مختفية خلف ستارة فيأخذ الموري العريس الى مجلسها ويقدم لها الشهادة المكتوبة وكأساً من الخمر. وهناك يسألها عن اسم كل منهما ويستدعي شاهدي الزواج لتستمع إليهما وهما يؤكدان توقيعهما.

وعند ولادة الطفل يذبحون كبشاً تحت سرير الأم ويوزع لحمه مع التمر للفقراء وفي اليوم السابع أو الليلة السابعة يحضرون سبعة خيوط يربط في كل خيط رأس ثوم ويرسل الى الأهل والجيران الذين يربطونها حول سواعد أطفالهم. وفي نفس اليوم ترسم سبعة خطوط باللون الأسود على كل باب من أبواب البيت وتكسر ثلاث بيضات على الأرض. ويعتقد ان مثل هذه الاجراءات تحمي الطفل من الشياطين. واذا كان المولود ذكرا ختنه الرئيس

الديني « الموري » بنفسه. وتحدث العملية بحضور رجال. ويقوم الموري بتسمية الطفل وبيده كأس من الخمر وهو يتلو آيات من التوراة داعياً الله أن يشفي الطفل من عملية الختان.



يسألونك عن الروح

الأرواح والأشباح

ليس الحديث عن الأرواح والأشباح وقفاً على أمة دون أخرى، وليس هو مقصوراً على الشرق دون الغرب، بل هو حديث مشاع بين الأمم المتأخرة والمتقدمة. وهذا الاهتمام الذي نلمسه في الغرب حيث المدينة الزاهرة وفي شرقنا حيث لا زلنا نحبوا نحو العودة الى حضارتنا القديمة، وفي المجاهل حيث لا زال ظلام التأخر يسدل أستاره الكثيفة يدلنا على أن لوجود الأشباح نصيب من الصحة.

وبينما نجد المكذبين الذين يلصقون حديث الأرواح والأشباح بالأوهام والعقل الباطن بارهاق الجهاز العصبي في سن مبكرة نجد المتشككين الذين يقفون حيارى بين مصدقين ومكذبين، وبين هؤلاء وأولئك نجد الواثقين الذين بحثوا واستقصوا ودرسوا الموضوع دراسة علمية ان لم تكن وافية إلا انها تجعلهم يؤمنون بوجود قوة خفية غير منظورة ولا ملموسة هي السبب في وجود الأشباح وظهورها.

وقد تخصص كثيرون في علم الأرواح وقطعوا شوطا بعيداً في أبحاثهم إلا أنهم لا زالوا غير قادرين على الوصول الى حقيقة الروح وتعليل ظهورها. ويؤكد هذا قول الله تعالى **﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**.

ويقسم العلماء الأشباح الى هدامة وهادئة. ويقول البعض ان الهدامة شريرة أو قوى خفية خارقة تنشر الرعب وتحدث الفوضى وتخرب وتثير المشاكل لأسباب

لا يعرف أحد عنها شيئاً حتى الآن. أما ارتباطها بأشخاص معينين من النساء والأطفال فأمر غامض محوط بالأسرار رغم ما يقال من أن لبعض النساء والأطفال قوة خارقة تجتذب اليها بعض الأرواح بغير علمها وتصدر الأصوات المنكرة وتقذف بالأدوات ولا يجد الانسان تعليلا لها كما لا يجد الباعث على احداث الفوضى بحضور هؤلاء الأشخاص.

وقد ذهب بعض العلماء الى القول أن الأرواح الهدامة ليست سوى أوهام تتسلط على الفكر فتجعله ينقاد اليها انقياداً تاماً فتصور له الخوارق التي لا يدركها العقل.

ويقول الأستاذ هارى برايس الأمين الفخري لجمعية الأبحاث الروحية في جامعة لندن:

ليست لدينا أية فكرة عن الأرواح الهدامة لكننا نعرف ما تعمله. واللفظة الألمانية (بولتر جايست) Poltergeist مؤلفة من كلمتين (بولتر) Polter وتعني التحطيم والتخريب والهدم والفوضى و(جايست) geist والانكليزية (جوست) ghost وتعني شبح وروح. ويزعم بأنه كائن أو روح أو قوة خفية تسبب كثيراً من الأذى والقلق، واذا كنا نجعل ما هية الأرواح الهدامة إلا أننا نعرف بالتأكيد أن أعمال التخريب والإقلاق التي تقوم بها لا بد وأن تكون وثيقة الصلة بطفل أو صبي مراهق أو على الأغلب فتاة صغيرة من دون أن يشعر هؤلاء بهذه الصلة. وتسبب الأرواح الهدامة حرائق وإنفجارات وتشعل النار في دواليب الملابس المغلقة من دون أن توجد أسباب ظاهرة لها. وقد حدث في أكثر من حالة واحدة ان اشتعلت النار في جسم طفل أو أن يداً خفية قذفت بطفل الى النيران. والمفهوم أن للأرواح علاقة بالجنس - الذكورة والأنوثة - ولا نعرف عن هذه العلاقة إلا القليل.»

ويورد الأستاذ هاري برايس قصة غريبة عن علاقة الأرواح الهدامة بالفتاة النمساوية اليانور زوجن التي جاء بها من فيينا الى لندن ليختبر أعمال الأرواح التي لها علاقة بها فيقول:

« منذ أن جئت باليانور زوجن من فيينا الى لندن عام ١٩٢٦ فان عبارة « الأرواح الهدامة » أصبحت أمرا معروفاً في الصحافة الانكليزية. كانت الفتاة حينذاك في الثالثة عشرة من عمرها. وبحضورها تحدث أمور خارقة لا يمكن ان يتصورها العقل، فان أثاث الغرفة ينقلب وتتغير أوضاعه وتسقط المرايا وتصدر أصوات مخيفة. وحدث مرة أن اندفعت سكين قطع الأوراق عبر الغرفة ومرت بالقرب من رأسي لكنها أخطأتني، وفجأة أصدرت الفتاة صوتاً مروعاً ثم ظهرت دوائر حمراء على جسمها وكأن بعض الناس قد عضها، كما ان دوائر بارزة تظهر على وجهها أحياناً وفحصت الفتاة فحصا دقيقاً في المعمل الكيمائي للأبحاث الروحية حيث لا سبيل الى الشك وحيث لا يمكن القول بوجود حيل، وقعت حوادث خارقة مماثلة ».

وقرأت رسالة كتبها في شهر مايو ١٧١٨ م الدكتور سيمون أوكلي أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن في ذلك الحين قال فيها:

« شعرت به يتحرك تحت سريري ويرفعه الى أعلى، وبقيت في انتظار ما سوف يحدث بينما هو في تسليتي بمختلف الأصوات والحركات المؤذية في أنحاء الغرفة. وأخيراً حدث انفجار تحت سريري وكأنه صوت انفجار أعظم مدفع وأكبرها، ورفعني هذا الانفجار أنا وسريري الى أعلى بقوة خارقة. وبمجرد انتهائه من ذلك سمعته يدق على حافة سريري من جهة رأسي، فسألته قائلا: « وماذا بعد ذلك؟ » وكانت اجابته أنني شعرت به يطير عبر الغرفة مخترقا الألواح التي تفصل غرفة نومي عن الغرفة المجاورة بقوة هائلة وسرعة عظيمة جعلت الألواح تتناثر في أنحاء الغرفة قطعا صغيرة »

واستمرت الأصوات والحركات عشرة أسابيع ثم توقفت.

وفيما يلي بعض الحوادث التي نشرتها مجلة انكليزية أثناء الحرب العالمية الثانية:

« في معمل غسيل مدني تابع للقوات المسلحة، قسم القيادة العليا للمتطوعات

المعروفات بالرنس w.r.e.n.s. وقعت حوادث محيرة يعتقد أنها تعطي البرهان على صحة أعمال الأرواح الهدامة. وقد حطمت هذه الحوادث أعصاب الفتيات وأضرت بصحتهن. وقعت أول اشارة غير اعتيادية منذ أسابيع عندما ظهر أن خللا أصاب أسلاك الكهرباء. وفحص الخبراء الأسلاك بحثا عن الخلل فوجدوها سليمة. ورغم ذلك استمرت الأسلاك تتغير حالتها حتى صلحت من تلقاء نفسها. ثم حدث أنه بينما كانت فتاة تكوي الملابس وتستعمل قارورة مملوءة بالماء ترشه على الملابس شعرت بالقارورة تتحرك فوق الطاولة المجاورة ثم تقع في جردل الماء. وظنت الفتاة أنها أمالتها بيدها دون أن تحس فأعادتها الى الطاولة، لكنها لشدة دهشتها رأتها تتحرك ثم تسقط في الجردل. وبعد بضعة أيام بينما كانت الفتيات يشتغلن في احدى الغرف رأين فنجانين يقعان من الطاولة الى الأرض دون أن يمسها أحد. وبينما كن حول المائدة ارتفع اناء الشاي وصدم فنجانا كان بيد احداهن وحطمه. وفتح دولاب واندفعت منه المناشف وأدوات أخرى وطارت في الهواء، وارتفع اناء الشاي من الموقد ووقع على الأرض مهشما. ثم وقعت أنظارهن على قبعة معلقة تدور وترتفع وتطير عبر الغرفة بكل قوة، وعندما حاولت احداهن أن تمسك بالقبعة زاغت منها ببراعة وخفة. ورأين ثوباً معلقا في حبل الغسيل يطير ويدخل الغرفة ويتحرك بسرعة فائقة من ركن الى آخر دون أن يمسه أحد. وبينما أحد الجنود يدون في مذكرته هذه الحوادث أحس بالدفتر يتحرك ثم يمرق من بين يديه ويرتفع في الهواء ويطير من النافذة الى الخارج. وقام خبراء من ضباط البحرية بالتحقيق وقرروا أن هذه الحوادث لا تقع إلا بوجود إمرأة معينة. والمظنون أن لها قوة روحية خارقة تجتذب الأرواح دون أن تشعر بها. وتركت المرأة معمل الغسيل الى أحد المستشفيات للعناية بها. وبمجرد مغادرتها توقفت الحوادث ولم تقع مرة أخرى.

ويحدث أن يشعر الناس بالحجارة تنهال عليهم دون أن يعرفوا من أين تأتي. وقد حدث مرة أن سكان شارع بأكمله في مدينة الشيخ اقثان في عدن شعروا بالحجارة تنهمر عليهم من كل صوب، وخرج بعضهم الى الشوارع المجاورة ومجاري

المياه للبحث، وفي أثناء بحثهم كانت الحجارة وقطع الزجاج تتساقط على رؤوسهم. وقال أحد السكان أن زوجته بينما كانت تشتغل على مكينة الخياطة هبطت قارورة من حيث لا تدري ووقعت أمامها على الجدار وتفتت الى قطع صغيرة. وكانت سطوح منازل ذلك الشارع مملوءة بالحجارة الصغيرة وقطع الزجاج.

وسنورد بعض قصص الأرواح والأشباح في الصفحات القادمة.



حديث الجن

قبل ان نبحث موضوع الجن أورد هذه الآيات الكريمة من القرآن المجيد:

﴿واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قال انصتوا فلما قضي ولو الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم.﴾

﴿قل أوحي اليّ انه استمع نفر من الجن قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا.﴾

﴿وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا، وانا ظننا ان لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا، وانا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا، وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فكانوا لجهنم حطبا، وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه صعدا﴾.

﴿يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين﴾.

﴿يا معشر الجن والأنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

الجن عند العرب

وليس الحديث عن الجن بجديد على العرب بل هو ممعن في القدم امعان

العرب في قدمهم. وتخبرنا كتب التاريخ والأدب والشعر عن الكثير من الأساطير والقصص عنهم والذين اعتقد العربّ بوجودهم وأيضاً بظهورهم رغم الآية الكريمة التي تقول ﴿يرونكم من حيث لا ترونهم﴾. وقد غالى العرب في التحدث عنهم وسرد الحكايات الغريبة عنهم وان من بين مدن الجن مدينة عبقر التي يقال أنها في اليمن أو على نهر الفرات في العراق وانها اشتهرت بصناعة النسيج الجيد، ومدينة شيصبان وبني عامر وزويع.

كما يعتقد العرب في صحراء جنوب الجزيرة العربية ونَجْد أن بعض الناس يسمعون هاتف الجن في الصحراء والمناطق النائية وان هذا هو هاتف الغيلان وان من سمع الهاتف باسمه فعليه أن يحاول ان لا يجيب لأن للصوت قوة جاذبية تجعل الانسان يجيب مرغما على النداء وان النتيجة الحتمية لمن يجيب اما الموت او الجنون. وان أفضل شيء هو أن يرد الانسان على الهاتف بالآذان عملا بالحديث الشريف «اذا تغولت لكم الغيلان فنادوا بالأذان فان الشيطان اذا سمع الأذان أدبر وله حصاص».

ويعتقد بدو الربع الخالي انه اذا أصيب أحدهم وغاب عن وعيه فان الجن قد سكنت فيه أو أثرت عليه فيتلون آيات من القرآن الكريم والدعاء وينثرون الدقيق والبن والسكر حول المصاب. وعندما يعود الى وعيه يذبحون عنزة ويرشون عليه دمها.

ويعتقد ان لبعض الجن خاصية التشكل بالصور التي تريدها مثل صور القطط والثعابين والضفادع وغيرها، وانها تستطيع أن تقوم بأعمال يحار العقل في تفسيرها. ويروى عن أبي قتادة ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «الهرة ليست بنجس انما هي من الطوافين عليكم».

ويروى عن أبي السائب انهُ دخل على أبي سعيد الحدري في بيته، قال فوجدته يصلي فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته فسمعت تحريكاته في عراجين في ناحية البيت فالتفت فاذا حية فوثبت لأقتلها فأشار الى ان أجلس فلما انتهى أشار الى بيت في الدار فقال «أترى هذا البيت» قلت «نعم» قال «كان فيه

فتى حديث عهد بعرس، قال فخرجنا مع رسول الله ﷺ الى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن الرسول بانصاف النهار فيرجع الى أهله فاستأذنه يوما فقال له « خذ عليك سلاحاً فاني أخشى عليك قريضة » فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فاذا امرأته بين البابين فأهوى عليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة فقالت له: « أكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني » فدخل فاذا حية عظيمة منضُوبة على الفراش فأهوى اليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه فما يدري أيها كان أسرع موتاً الحية أم الفتى. قال فجئنا رسول الله وذكرنا له ذلك وقلنا « أدع الله أن يحييه لنا »، فقال « استغفروا لصاحبكم » ثم قال « ان بالمدينة جنا قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان ». وفي رواية أخرى ان الرسول قال « ان لهذه البيوت عوامر فاذا رأيتم منها شيئاً فحرجوا عليها ثلاثة فان ذهب والا فاقتلوه فانه كافر ».

وتسمى الحيّات التي توجد في البيوت « عوامر » أو « سواكن »، وقيل ان الرسول نهى عن قتلها إلا بعد انذارها ثلاث مرات وإن بدين بعد الانذار قتلن، والانذار هو « أخرج عليك بالله وباليوم الآخر ان تبدوا لنا ولا تؤذونا ».

وعن أبي ليلى ان النبي سئل عن جنان البيوت فقال اذا رأيتم منها شيئاً في مساكنكم فقولوا « أنشدكم العهد الذي أخذ عليكم نوح، انشدكم العهد الذي أخذ عليكم سليمان لأن لا تؤذونا » فإن عُدْنَ فاقتلوهن » والجنان، بكسر الجيم، هي الحيّات الصغيرة. ويروى عن ابن عباس « الجنان هي مسخ الجن ».

الانسان الحيوان

وكما ان لبعض الجن خاصية التشكل بصور الناس والحيوان يعتقد ان لبعض الآدميين خاصية التشكيل بصور حيوان مفترس يعتدي على الناس والحيوانات ويصيبهم بعاهات ويشرب من دمائهم في الليل. ومثل هذا الانسان نسميه

« بُدَه »، وهذه كلمة حبشية الأصل تعني الانسان المفترس والانسان الشيطان والانسان الحيوان. وقد تكون الكلمة انتقلت الينا من الحبشة أو انها انتقلت الى الحبشة عندما هاجر الأجداد الأوائل من جنوب الجزيرة العربية الى الحبشة وأسسوا دولة أكسوم. ومما يذكر ان الاعتقاد في اليمن الشمالية وفي اليمن الجنوبية أن بعض الناس يتحولون الى شبه حيوانات في الليل فيعتدون على المزارع ويأكلون أوراق الشجر ويطاردون الناس والحيوانات في الجبال والأودية. ومنذ حوالي عشرين سنة كان الناس في عدن يسمعون عواء ذئب في الليل وانتشرت الشائعات انه عواء انسان له ذيل يعيش في الجبل وينزل الى المدينة يبحث عن حيوانات ميتة في القمامات يحملها معه الى الجبل ويأكلها عفنة نيئة. وفي أول الليل رآه أطفال قذفوه بالحجارة فنظر اليهم لكنه لم ينطق بكلمة بل هرب منهم الى الى الجبل بسرعة فائقة.

وفي القسم ١٤ من كتاب الخيط الرفيع بين الموت والحياة الذي أعده ولخصه الأستاذ نشأت التغلبي في العدد ٩٦٦ المؤرخ ١٦ مايو ١٩٧٥ من المجلة اللبنانية « الحوادث » التي كان يرأس تحريرها الصحافي اللبناني الكبير سليم اللوزي، ذكر عدداً من الأمثلة الخارقة من بينها الانسان الذئب ومصاص الدماء فيقول:

« الدراسات العلمية أثبتت أن وراء الأساطير، وحتى قصص الفولكلور الشعبي توجد غالبا حقيقة مشوهة. مثلا أسطورة البجعة التي تطعم أمعاءها لصغارها هي في الحقيقة خطأ شائع لطبيعة هذا الطائر الذي يختزن الطعام في الجيب الكبير تحت منقاره.. وحتى قصة الانسان الذئب، ليست خيالية كلها. انها حالة جنون تصور لمن تعتريه انه أصبح ذئبا. في القديم، كان يطلق اسم « الانسان الذئب » على الساحر الذي يتنكر في جلد ذئب ويطوف في الحقول أثناء الليل. وتقول الأسطورة ان جلد الذئب يقاوم الرصاص إلا اذا حصل الرصاص على البركة الدينية! بعض القرويين في الغرب لا يزال حتى يومنا هذا يؤمن بهذه الأسطورة.. وقد نشر الانسان الذئب خلال حقبة من الزمن، الذعر ولا سيما في القرن السادس عشر، حتى ان القاضي « بوجيه » المكلف بمقاومة

السحر والسحرة، كان يفخر بأنه أرسل خلال سنتين ٦٠٠ انسان ذئب الى الاعدام حرقا بالنار. وفي ١٥ آذار (مارس) ١٦٠٦ أحرق ٢٠٠ انسان ذئب أحياء مرة واحدة.. وخلافا للشائع، لم يكن السحرة الذين يضعون جلد الذئب يكتفون بهذا النوع من التنكر، بل كانوا يتحولون أحياناً الى فهود في المناطق الاستوائية، والى جياد وخنازير، أو أرنب بيضاء، أو الى أقزام يكسوهم الشعر، أو الى بشر يسيرون على أربع وهم يضعون جلد الذئب مقلوبا، أي داخله ظاهراً، وخارجه يلامس أجسادهم.. وقد نشرت الصحافية الانكليزية «كاترين كرو» ذات مرة قصة الانسان الذئب في أولد غيت فقالت انه خلال شتاء ١٧٩٩ القاسي راح ذئب يهاجم الناس في أولد غيت وليد نهول وكورنهيل، أي في قلب لندن. وفي احدى الليالي انقض هذا الوحش على جواد أحد أطباء الصحة وهو يجر عربته في شوارع «مبرواز» الخالية من الناس. لكن الجواد تراجع قليلا ثم عض الذئب فتراجع هذا وهو يعوي. ولما لحق الطبيب به واطلق النار عليه سقط الوحش، إلا انه ما لبث ان نهض واختفى في ممر أحد البيوت، وأغلق الباب فوراً وراءه. فوقف الطبيب أمام الباب يصرخ فلم يفتح له أحد.. في اليوم التالي ابلغ أحد ضباط الشرطة، فجاء هذا مع اثنين من رجاله المسلحين، واكتشفوا ان البيت الذي حدده الطبيب يقطنه شخص يدعى «سميغر» يخافه جيرانه ويكرهونه بسبب طباعه السيئة، وميله الى العنف، ولما لم يجب الرجل على قرع رجال الشرطة، حطم هؤلاء الباب، فوجدوا سميغر غارقا في دمه وقد فارق الحياة، وكان أسفل وجهه محطماً اما الرصاصة فقد اخترقت كليته.. الغريب ان رجال الشرطة لم يعثروا على جلد الذئب، وانما وجدوا آثار مخالب كثيرة، ومخزونا كبيراً من اللحم النيء كما وجدوا بقايا رأس انسان ممزق.. وقد أثبت التحقيق ان «سميغر» لم يغادر لندن في حياته، وبالتالي لم يستطع أحد ايجاد تفسير لهذه الظاهرة.. طبعا يتعذر التأكد من الجزء الصحيح في هذه القصة، لكن بعض المشتغلين بالخوارق الروحانية يعتقدون بأن الوسيط يستطيع أثناء جلسات تجسيد الأرواح، أن يكيف «الاكتوبلازم» التي

تخرج منه بحيث تشبه شخصا معينا.. والسؤال هنا: هل الانسان الذئب كان يمارس عملية من هذا النوع».

ويستمر الأستاذ نشأت التغلبي قائلا:

«اذا انتقلنا من الانسان الذئب، الى الانسان «مصاص الدماء» الذي اخرجت أفلام سينمائية كثيرة عنه، نجد ان ثمة فئة من الناس تعتقد فعلا بوجود مصاصي الدماء كما تعتقد ان مركز هؤلاء في «بوهيميا» و«مورافيا» والبلاد التي تجاورها.. وهذا خطأ. فالاعتقاد بوجود مصاصي الدماء اعتقاد قديم يرجع الى العهد الروماني، ويروي «تريمالسيون» القصة التالية: عندما مات ابن سيدنا، وراحت والدته تبكيه بحرارة كنا نشاطرها حزنها عليه. فجأة راحت الكلاب تنبح، كأنها تلاحق أرنبا وكان لدينا في البيت رجل ضخم الجثة ومن القوة بحيث يستطيع رفع بقرة غاضبة بين ذراعيه. فاستل هذا سيفه وانقض على عتبة الباب، وما لبثنا ان سمعنا زمجرة مخيفة. صحيح اننا لم نشاهد سحرة لكن رجلنا الضخم القوي، ما كاد ان يعود حتى القى بنفسه على السرير، وكان جسده مملوءاً بالبقع الزرقاء كما لو ان أحدا جلده بقسوة، لكن يبدو ان «اليد السيئة» قد أصابته. لم نغلق الباب بعد ذلك، وإنما عدنا الى حيث تركنا جثة الطفل، فأصابتنا الدهشة والذعر، لأن والدته وهي تحتضنه وجدت فجأة انها تحتضن بدلا منه دمية من القش. اما رجلنا فانه لم يستعد بعد ذلك اليوم لونه الطبيعي، بل ما لبث ان مات وهو في حالة جنون غاضب..»

ويستمر الأستاذ نشأت التغلبي:

«في البلاد العربية يسمون مصاص الدماء «الغول». وقد وردت قصص كثيرة حوله في «ألف ليلة وليلة» بينها قصة «شرف الغول» تتحدث عن الفتاة «دلال» التي سجنت نفسها وراء باب الغرفة، في حين كان الغول ينتظرها متنكراً في جلد نعجة لكي يلتهمها، ثم جاءها «جني» قبل انقاذها لقاء قبلة، فلما فعلت، انشق الجدار، وركل الجني الغول فقتله». ويذكر الأستاذ نشأت التغلبي الحوادث التالية عن مصاصي الدماء:

منذ حوالي عشر سنوات توفي «أرنولد بولي» من سكان «مارديغا» بسبب انقلاب عربة عليه سحقته. بعد مرور ثلاثين يوماً على وفاته، مات أربعة أشخاص فجأة، وتبينت القرية، حسب تقاليدها، أن هؤلاء ماتوا بفعل مصاصي الدماء. هنا تذكر الناس ان «أرنولد بول» كان يتحدث دائماً عن العذاب الذي لاقاه على يد مصاص دماء تركي في ضواحي «كاسوفا» على الحدود العربية التركية. وكان ثمة اعتقاد بأن بعض مصاصي الدماء يمكن أن يكون مسالماً أثناء حياته، ولا تتحرك النزعة الدموية فيه الا بعد وفاته. أي أن الذي يتعرض لامتصاص دمائه، يمتص هو أيضاً بدوره، لكنه يستطيع شفاء نفسه اذا ما أكل من تراب قبر مصاص الدماء، واذا ما فرك جسمه بدمائه. على أن ذلك لا يحول دون أن يصبح من جديد مصاص دماء بعد وفاته. اعتاداً على ذلك أخرج «أرنولد بول» من قبره فعثر في جثته على ما يشير بأنه فعلا مصاص دماء. فقد كانت جثته قرمزية اللون، وكان شعره قد طال، وذقنه قد نبتت، وشرايينه مملوءة بدم سائل، بل ان الدم كان يلوث كفنه!! هنا تولى أحد الخبراء حرق جثته بقضيب خشبي حاد، وقيل ان الميت أطلق في هذه اللحظة صيحة عنيفة كما لو كان على قيد الحياة. بعد ذلك قطعت رأسه، وأحرقت جثته. واتخذت الاجراءات نفسها بالنسبة الى الأربعة الآخرين الذين ماتوا فجأة. على أن هذا لم يحل دون تكرار الحوادث بين سكان القرية ذاتها، مما أدى الى مصرع ١٧ شخصا بين رجال ونساء خلال ثلاثة أشهر دون أن يسبق وفاتهم أي مرض. ويروى في هذا الصدد ان الفتاة «ستانوسكا» ابنة «جوتويستو» نامت ذات ليلة وهي في صحة جيدة. وحوالي منتصف الليل أفاقت وهي ترتعد وتطلق صيحات حادة. ولما سئلت عن السبب أجابت ان ابن «ميلو» الذي توفي منذ ستة أسابيع، كاد أن يخنقها أثناء نومها! بعد هذا الحادث بدأت الفتاة تذوي، ولم تعش أكثر من ثلاثة أيام.. وقد أخرجت على الأثر جثة ابن «ميلو» وتولى فحصها الأطباء والجراحون، فوجدوا أنها تشبه بالفعل جثث مصاصي الدماء. ثم اكتشف المحققون أن أرنولد بول لم يقتل الأشخاص الأربعة فقط، وانما قتل عدة

حيوانات أكل مصاصو الدماء الجدد من لحمها ، وكان من بينهم ابن « ميلو ». لذا قررت القرية اخراج كل الجثث التي دفنت خلال الأشهر الثلاثة ، واحراقها. وقد ظهرت على ١٧ جثة منها علامات مصاصي الدماء.. الجدير بالذكر أن هذه الحيوانات أخضعت للتحقيق القضائي واتخذت الاجراءات بشأنها بناءً على تعليمات القضاة والضباط المسؤولين والأطباء الجراحين ».

أولاد الجن

ويعتقد ان بعض القبائل ينحدر من آباء من الانس وأمهات من الجن مثل جرهم وثمود وطسم وجديس والعمالقة وغيرها من القبائل المنقرضة. ويتحدث البعض عن امكانية زواج نساء الجن بذكور الانس وتحريم زواج ذكور الجن بنسا الانس ويذكر الاستاذ شوقي عبد الحكيم في كتابه « أساطير وفولكلور العالم العربي » ان مراحل استبدال الأمهات السماويات بأنثيات من الجن يبدو واضحاً في نسب بلقيس ملكة سبأ وأمها الجنية المشهورة رواحة بنت مسكن ، وهو اسم ما يزال يتواتر على الشفاه في خرافات الجن المصرية ، ومنها جنية جبل ضهر (وادي ضهر بصنعاء) باليمن والجنية التي انحدر منها الملك الحميري الصعب بن ذي مراثد الحميري والصعب ذو القرنين ».

يذكر شوقي عبد الحكيم أيضاً: « ان معتقداتنا هذه ترجع بكاملها منحدرة من المتعربة البائدين (الألف السنة الرابعة ق.م) وبشكل خاص سكان الجنوب (اليمن) القحطانيين نظراً الى تيسر اتصالاتهم المبكرة بالفرس المجوس في ايران والتي يرجعها البعض الى ما قبل الألف سنة الثالثة ق.م حين أخضع الملوك القحطانيون الفرس ومنهم ملوكها أمثال الضحاك بن مرداس وذو الاذعار ، فقد لعب موقع اليمن وقربها من البحر الأحمر جغرافيا على خط الاتصال بالهند وفارس دوره في جلب هذه الأفكار والمعتقدات الخرافية عن الجان ثم تسربها فيما بعد الى بقية شعوب العالم العربي ومنه عبرت الى أوروبا ».

ليليت والريح الأحمر

هنا يجدر أن نعود الى موضوع أساطير الأولين الذي ذكرنا فيه النمرود أو البطل المتجول كلكامش. ونضيف انه أثناء تجواله التقى بالجنية ليليت التي تقمصت جسد حية رقطاء واتخذت لها مسكنا في شجرة الصفصاف التي غرستها الآلهة البابلية «أنانا» في حديقتها على شاطىء نهر الفرات. ولما وجد كلكامش ان ليليت ترفض الخروج من الشجرة قطعها وذبح الحية، لكن ليليت غادرت جسم الحية قبل ذبحها واتخذت لها مسكناً في الأمكنة المهجورة والخرائب.

وتذكر الترجمة الارامية للتوراة ان ليليت ملكة الزمرد هجمت على أيوب واستولت على مواشيه. وبما أننا نعلم أن الزمرد من الحجارة الكريمة وان ليليت تتقمص جسد الثعبان يجدر أن نشير الى الاعتقاد بظهور ثعبان يحمل جوهرة على رأسه لتنير له الطريق، وان بعض الناس يتربص به وعندما يضع الجوهرة عن رأسه يغطيها المتربص بروث البقر فيهرب الثعبان أو يموت فيستولي المتربص على الجوهرة.

والكلمة «ليليت» بابلية أشورية تعني «أنثى الشيطان» وتعني «الريح» وتحولت الكلمة الى «ليل» و«ليلى». ويُعتقد ان الموّال «يا ليل يا عين» يشير الى الجنية ليل أو ليلى أو ليليت. ومما يذكر أن حفلات «الليوة» التي يحييها الجبرت النازحون الى جنوب الجزيرة العربية من أريتريا والحبشة[1] يرددون في أهازيجهم كلمات مثل «هيا يا ليوة هيا» عندما يرقصون ويغنون على أنغام العود التقليدي المعروف بالسمسمية وقرع الطبل المعروف بالطنبرة[2]. وربما ان الكلمة «ليوة» تشير الى ليليت. ومما يذكر ان الصومال في حفلاتهم ورقصاتهم يقولون «هاي لولاي هاي».

---

(١) الجبرت من القبائل العربية اليمنية التي هاجرت الى أريتريا والحبشة منذ أيام معين وسبأ وحِمْيَر والمهري وامتزجت بالقبائل الأفريقية الموجودة هناك.

(٢) استعارت بعض اللغات الأوروبية كلمة «طنبرة» لتعني طبل ويطلقون عليه اسم تانبورين.

ونلاحظ أن الاسم الآخر للجنية هو « ريح » والمعروف ان بعض الناس عندما يصابون بأمراض معينة مثل الفالج والشلل الجزئي ويعجز الطب عن شفائها يقال بان فلانا أصيب بالريح ، ويصفه البعض بأنه ريح أحمر وجن أحمر ويستعملون له أدوية سحرية وتعاويذ وطلاسم.

وتروى قصص عن ليليت وظهورها وغيرها من الجن في الليل لاغراء الشبان لمضاجعتها ثم تمتص دماءهم أو تذهب بعقولهم[1]. والاعتقاد السائد أن من وقع في حبائل الجنية وعشقها وعشقته لا يستطيع أن يتزوج بأنسية ، وانه اذا أرغم على الزواج بأنسية فمصيره المحتوم الانتحار أو الموت أو الجنون. وأذكر هنا أن شاباً تزوج احدى قريباته مرغماً لأنه كما قيل عنه كان متزوجاً بجنية وانه بعد زواجه بأسبوع دعاها الى الغرفة ويده قابضة على رصاصة ، وظل ينظر الى زوجته عدة دقائق دون أن يكلمها ثم فجأة طلب منها أن تحضر له فنجاه شاي ، وعندما غادرت الغرفة أغلق الباب خلفها. وبعد لحظات سمعت طلقة بندقية الصيد ، ولما أسرعت الى الغرفة وجدت الباب مغلقاً من الداخل فصرخت وأقبل الجيران وكسروا الباب ووجدوا الزوج جثة هامدة غارقة في الدماء ويده قابضة على الرصاصة. وحلل البعض الحادثة انه كان ينوي أن يقتل زوجته ثم ينتحر لكنه غير فكره وأخرجها من الغرفة لتحضر له كوبا من الشاي ثم أطلق رصاصة بندقية الصيد على بطنه.

وليليت في المعتقدات القديمة عدوة للأطفال وللنساء الحوامل ولهذا فان الناس في جنوب الجزيرة العربية استعملوا ولا يزالون يستعملون منفرات لأبعادها عن هؤلاء. فقد جرت العادة أن تتبع المرأة الحامل اجراءات لحماية نفسها ومولودها من الجن ومن العين أيضاً. فعندما تجد أن مواليدها يموتون بعد ولادتهم بساعات أو بأيام تستعمل حرزاً تعلقه حول رقبتها أو تشده حول خصرها. وعندما تلد يختار أحد الأقارب اسماً للمولود. وبعد ساعات تبيعه أمه لاحدى قريباتها بمبلغ قد لا يتعدى ثلاثة دراهم وبضعة حبات من التمر.

---

(١) في اللاتينية أن سقوبة Succuba هي الشيطانة التي تضاجع الرجال أثناء نومهم.

وبالطبع لا يعني هذا الاجراء البيع بالمعنى المتعارف عليه، إلا أن القريبة الي «اشترت» المولود تعمل على تربيته والانفاق عليه من التسول وهي لا تذهب بالطفل الى الأسواق والشوارع للتسول علنا بل تذهب الى الأقارب والأصدقاء الذين يعرفون الغرض ويدفعون لها ما تشتري به محتاجات الطفل من الحليب والملابس. وفي الأيام المقررة لزيارة الأولياء تذهب به بملابس من الخيش وأكياس الدقيق والرز وتتسول به. وعندما يبلغ السنة السابعة من عمره تجمع ما تبقى من فلوس التسول وتذهب بها الى مقام أحد الأولياء وتسلم النذر. وغالبا ما تستعمل تلك الفلوس في اقامة حفلة عشاء أو غذاء للفقراء والمساكين وأبناء السبيل إما في مسجد أو في المنزل. وعلى الرغم من أن أهل عدن ليسوا من أتباع المذهب الشيعي إلا أن كثيرين يقدمون نذورهم للامام جعفر الصادق رضي الله عنه في مسجد الجماعة الاثنعشرية الجعفرية في مدينة عدن. ويقال ان الطفل منذور للامامين الحسن والحسين وللامام جعفز الصادق، ويطلقون عليه صفة «ابن مُحَرَّم» نسبة الى شهر محرم. وفي العشرة الأيام الأولى من الشهر يُلبسون الطفل ملابس خضراء ويغسل له أهله احدى قدميه، وبعد ذلك يعاد الى أمه.

إستخدام السحر والجن:

الإعتقاد بمس الجن للناس منتشر. وفي القرآن الكريم جاء على لسان أيوب عليه السلام: «ربي أني مسّني الشيطان بنصب وعذاب». وفي سورة البقرة: **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾**.

ويذكر الاستاذ محمد فريد وجدي في كتابه «الإسلام في عصر العلم» إن فكرة استيلاء الجن على جسم الانسان والتأثير عليه بالمرض شائعة من مبدأ الخليقة. فقد كان الناس عموماً ينسبون الأمراض أياً كانت إلى الأرواح الشريرة وكان لهم في ذلك طرائق عجيبة وأعمال غريبة لم تزل منتشرة في كل البلاد المتوحشة. وقد كانت هذه الفكرة آخذة في التناقض شيئاً فشيئاً حتى كادت تنتهي إلى الصفر خصوصاً في العالم العلمي، لكنها قد حييت الآن حياة

قوية، وصار يستطيع المنتصر لها أن يقيم على صدق قوله ألف دليل محسوس وسبحان مغيّر الأحوال ».

ويقول أيضاً أن الاستاذين ريتشارد هودسن وجيمس هيزلوب اللذين درسا الاسبرتزم (علم الروح) بواسطة مدام بيبر مدة أثني عشر عاماً نشرا نتيجة أبحاثهما في كتاب إن عدداً من المجانين الذين يحبسون في البيمارستانات ليسوا مصابين بأمراض عقلية بل مملوكين لأرواح قد استولت عليهم واستخدمتهم ».

ويعتقد كثير من العامة إنه إذا أصيب أحد بمس فيجب إستدعاء « شيخ » إشتهر بمعالجة المس فيقوم هذا بضرب المصاب باللطم والركل وبكتابة حرز السبعة العهود وغيره.

ويُعتقد أن لبعض الناس مقدرة تجعلهم يستخدمون الجن. وكثيراً ما نسمع عن بعض هؤلاء الذين اشتهروا بأعمال فيها منفعة للناس أو إضرار بهم. والطائفة الاولى تمتنع عن إستعمال الوسائل الضارة لانهم كما يقال عنهم يقسمون اليمين قبل إمتلاكهم للجن أن لا يلحقوا أضراراً بأحد وأن لا يجنوا من وراء عملهم هذا فوائد شخصية إلا في حدود معقولة. وقد عرف عنهم مداواة الناس من الأمراض المستعصية على الطب الحديث مثل الجنون والصرع والتشنج والشلل الجزئي وأمراض اخرى. ويقوم بعض هؤلاء بمداواة الناس بواسطة المص، فيضع الواحد فمه على موضع الألم ويمص.. ويحدث أنه في بعض الأحيان يلفظ المعالج من فمه دماً أو عظماً أو رماداً أو شعراً ويكون هذا دليلاً على إبتعاد المرض عن المصاب. كما يقوم هؤلاء بمداواة الناس بإعطائهم أدوية خاصة يعدونها بأنفسهم من أعشاب معينة وبكتابة الحروز والطلاسم.

وهؤلاء يعتبرون إستخدام المقدرة للاضرار بالناس من أعمال السحر الأسود الذي تحاربه جميع الأديان.

وجاء في القرآن الكريم: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر ما أنزل على الملكين

ببابل هاروت وماروت﴾. «وما يعلما من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا نكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون بين المرء وزوجته، وما بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم».

ومن بين أمثلة أعمال السحر الأسود ان يطلب شخص من الساحر أن يقضي على خصم له بالموت أو بالجنون أو بإقعاده عن الحركة فيقوم الساحر بتشويه عنزة أو فرخة بتكسير عظامها وفق عينيها بطريقة قاسية مؤلمة وبكتابة طلاسم ثم يقذف بها في البحر أو في بقعة نائية أو بدفنها في مكان غير مأهول. أو يقوم بصنع دمية يغرز فيها الدبابيس أو يحرقها فيصاب الخصم بما أراده له الشخص الذي استخدم الساحر. ويسمى مثل هذا العمل «رزع». وقد يذهب أهل المصاب إلى واحد ممن يستخدمون الجن في أعمال الخير ويطلبون منه أن يعمل على رفع الضرر عن قريبهم، ويحدث أحياناً أن ينجح هؤلاء في رفع الضرر بكتابة حروز فيها ذكر الله.

والتنبؤ بالغيب والتنجيم منتشران. وبعض الناس لا يبدأ في عمل ما إلا بعد أن يستشير أحد هؤلاء. والبعض لا يسافر إلا بعد أن يتأكد أن النتائج ستكون في مصلحته.

العين:

نصادف كثيراً من الأطفال الذين يحملون أسماء غريبة الغرض منها حمايتهم من العين مثل عبد وعبيد وجارية وخادم وشوعي (قبيح) وكدافة (زبالة) وخيبة وناقص، وأسماء حيوانات مثل كلب وكليب وبقرة وثور وحمار وذئب.

وكثيراً ما يربطون للطفل حول عنقه أو خصره في كيس من الفضة أو الجلد قطعة صغيرة من الحديد أو الرصاص أو سن القط أو سن الضبع أو حبة السودة أو أبر أو دبابيس.

وحتى وقت قريب كانوا يحلقون للطفل شعر رأسه إلا جزء صغيراً فوق الجبهة أو قمة الرأس. ويُعتقد ان مثل هذا الطفل قد بِيع إلى ولي الله

العيدروس أو الإمام المهدي أو الولي سفيان أو الولي عمر بن علي أو غيرهم.

ويحدث أنه إذا اصيب أحد بالعين الشريرة وعرف أهل المصاب صاحب العين يحاولون أن يأخذوا قطعة صغيرة من ملابسه أو شيئاً من شعره يبخرون به المصاب.

ويستعمل بعض الناس صورة كف أو نعال أو حدوة حصان، والمعروف أن الحصان كان يمثل الآلهة الشمس حين كان الأجداد يعبدون الأفلاك السيارة. والعين في اليمن الأعلى تسمى «روع» والشخص صاحب العين يسمى «مرّاع».

ويقال أن بعض أصحاب العين يستطيعون أن يفتتوا الصخر بمجرد نظرة واحدة سريعة وفي حديث شريف: «علاج المحسود أن يتوضأ الحاسد ويغتسل المحسود من وضوئه».

شيطان الشعر:

يعتقد العرب بأن لكل شاعر شيطان يلهمه الشعر. ويقول بعضهم أن «الهوجل» شيطان الشعر الجيد وأن «الهوبر» شيطان الشعر الرديء. ومن الاسماء «تابع» و«رئي».

وفي الحجاز وجنوب الجزيرة العربية يسمونه «هاجس» أو «هاجسة» و«حليلة».

ويقال لان الشاعر العالم الأديب الأمير أحمد فضل بن علي العبدلي كانت له حليلة وانه كان يستيقظ من نومه في الليل وينادي أحد أفراد المنزل ويملي عليه قصيدة أو أبياتاً من الشعر وانه في الصباح لم يكن يدري شيئاً مما قاله في الليل.

ويعتز رجال القبائل بشعرائهم. وكل ما زاد عدد الشعراء في القبيلة كل ما ارتفع مركزها. وكثيراً ما نرى شاعرين من قبيلتين متباعدتين يتبادلان الرسائل بالشعر الحميني ويتحدى الواحد منهما الآخر بحل الألغاز التي تتضمنها قصائده أو بقول قصيدة تتضمن هجاء أو تفاخراً أو حكماً وأمثالا.

شبح في صنعاء

(في عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦ كنت وأخي محمود علي لقمان نصدر مجلة « الأفكار » الشهرية التي كانت وصحيفة « فتاة الجزيرة » الاسبوعية التي كان يصدرها أخي محمد علي لقمان وابنه الشاعر علي محمد لقمان لسان حال الأحرار اليمنيين النازحين إلى عدن. وكانوا كثيراً ما يجتمعون في مكتب « فتاة الجزيرة » ومن بينهم الأستاذ الكبير أحمد محمد الشامي والشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان وعقيل عثمان عقيل وعبد الله عثمان وقائد محمد غالب وهائل أحمد قاسم وعبد القادر سعيد ومحمد سلام حاجب وأحمد عبد الوهاب نعمان ومحمد عبد الوهاب نعمان وعبده عبد الله دحان والشيخ الخادم غالب الوجيه والشيخ مطيع دماج والشيخ علي ناجي القوصي والشيخ عبد الله حسن أبو راس ومحمد حسن خليفة وعبده حسين الأدهل وأحمد الحورش وأحمد البراق وزيد الموشكي ومحيي الدين العنسي وأحمد العنسي وأحمد عبده ناشر وسعيد الشطفة ومحمد علي الأسودي ومحمد علي ناشر ومحمد أحمد شعلان وعثمان قائد العريقي وعبد القادر أحمد علوان وعبد الرحمن عبد الرب علي وعبد الملك أسعد عبيد وجازم الحروي وعبد العزيز الحروي والشيخ الجميزة وأحمد طالب الزريقي وعبد الله علي الحكيمي وعثمان عبد الله الأزهري وعلي الجناتي وغيرهم من الرواد اليمنيين الأحرار.. وكنت في تلك الأيام أقوم بأبحاث في علم الروح إلى جانب إشتغالي بالصحافة والأبحاث التاريخية.. وذات يوم كنا نتحدث في علم الروح وظهور الأشباح فسرد علينا القاضي محمد محمود الزبيري هذه القصة العجيبة:).

كان المسعودي من رجال القبائل يسكن في إحدى قرى وادي ظهر في

ضواحي صنعاء. وذات يوم سمع صوتاً غريباً يشبه صوت الديك. وبينما هو في حيرة سمع صوتاً آدمياً يقول له بأن ذلك الصوت صوته وانه لم يشأ أن يفاجئه بصوت آدمي حتى لا يفزعه. وتلفت المسعودي فلم ير صاحب الصوت. ولما هدأ قليلاً سأل صاحب الصوت من هو وما السبب في مجيئه. فأجابه صاحب الصوت إنه جاء لأنه يريد من المسعودي أن يخلي المنزل لأنه منزله.

وقال المسعودي «انه منزلي أنا، وأنا مالكه ورثته عن آبائي».

وقال صاحب الصوت «بل منزلي ويجب أن تغادره في الحال».

لكن المسعودي أجاب «لن أغادر المنزل مهما كانت النتائج».

وهنا أصدر صاحب الصوت صراخاً مفزعاً ليجبر المسعودي على مغادرة المنزل.

وسمع الناس بهذه الحادثة وزاروا بيت المسعودي وسمعوا الأصوات المزعجة.

وعلى الرغم من كل ذلك الأقلاق لم يتخل المسعودي عن عناده، وأعتبر الخروج من منزله عاراً سيضل لاصقاً به أمام رجال القبائل. وجلب المقرئين لتلاوة القرآن الكريم والأدعية لطرد الشياطين والأرواح الشريرة المزعجة لكن لشدة دهشته وتعجب الجميع أنهم سمعوا صاحب الصوت يقول أن هذا كلام جميل، ومضى يقرأ معهم.

وذهب الرجل إلى صنعاء وعرض قضيته على الإمام يحيى بن محمد حميد الدين وأحضر الشهود. ويقال ان الإمام كتب رسالة إلى صاحب الصوت يطلب فيها منه أن يترك المنزل وان يتوقف عن اقلاق المسعودي وأسرته وإزعاجهم. ولكن صاحب الصوت لم يكن يعترف بالإمام فلم يهتم برسالته واستمر في صخبه. وعلم كبار رجال صنعاء بما يجري وزاروا المنزل وشاهدوا أعمال صاحب الصوت وكان من بينهم القاضي عبد الكريم مطهر محرر صحيفة «الإيمان» الرسمية ونائب وزير الخارجية والسيد الحسن ابن أمير الجيش وغيرهما.

ومن وسائل الإقلاق إن صاحب الصوت كان يغير أوضاع الأثاث وينقل

أواني الماء إلى أماكن لا تصل إليها اليد ويخرج الحلى من الصندوق ويضعها تحت الدجاج ويحمل البيض ويضعه في الصندوق.

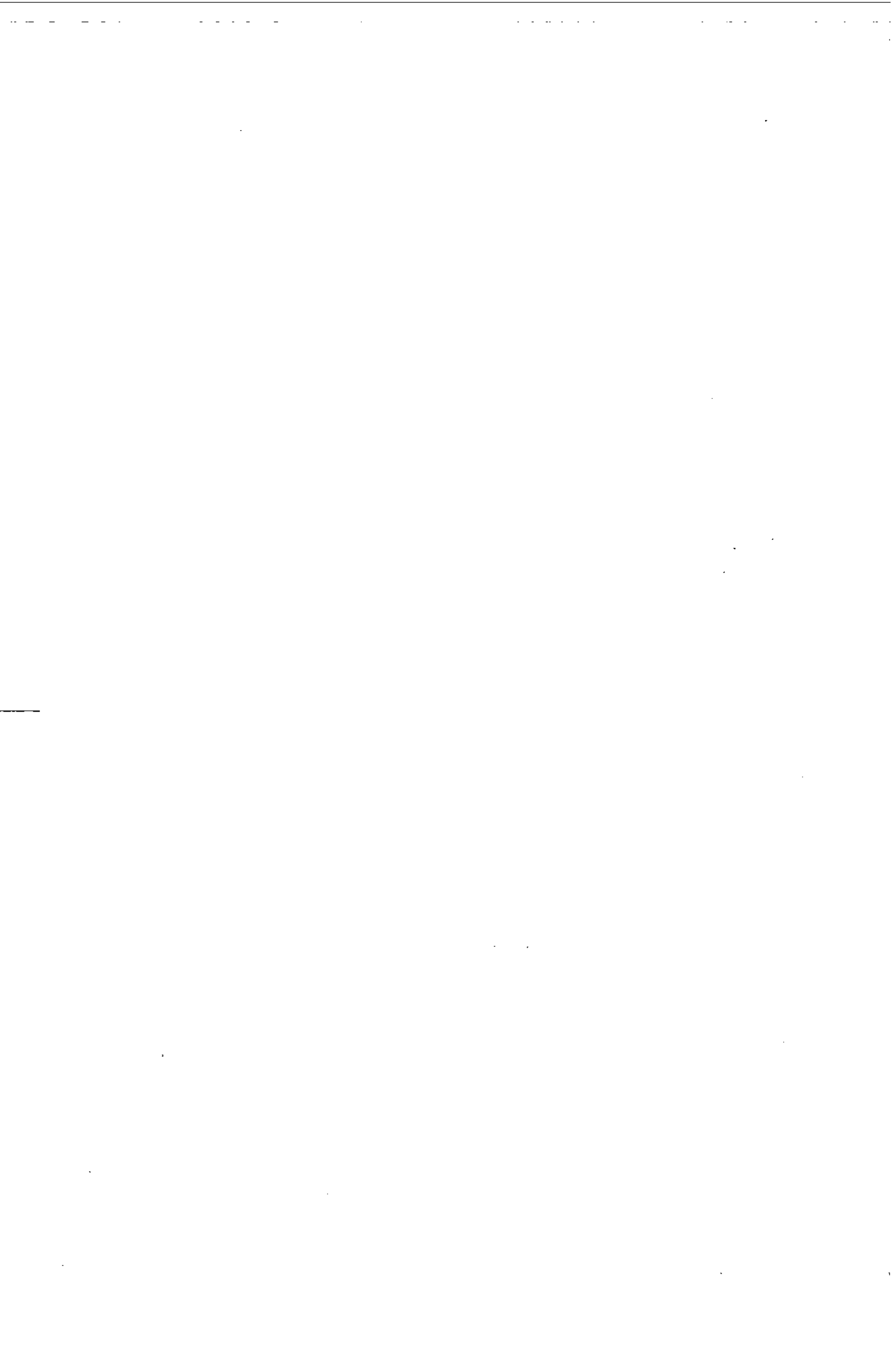
لكنه عندما رأى عناد المسعودي حاول الاتفاق معه على ان يبقى صاحب الصوت في البيت على أن لا يسبب أي صخب. وقبل المسعودي، وبمضي الأيام توثقت عرى الصداقة بين الاثنين حتى إنهما كانا يجلسان ويتحدثان. ومنه علم المسعودي ان أجداده كانوا يسكنون في نفس هذا المكان وإنهم هاجروا منذ زمن بعيد إلى الشرق الأقصى.

وحدث يوماً أن احتاج المسعودي إلى «شركة» (أي لحم وتوابعه). وترددت الكلمة بين شفتيه، ولم تمض لحظات حتى رأى المسعودي علبة سجاير توضع أمامه. ولما علم أن صاحب الصوت هو الذي أحضرها قال له: «لماذا جئتني بها» فأجابه الصوت: «ألم تطلب سيجارة». وأدرك المسعودي أن الكلمة اختلطت على صاحب الصوت فظن أنه يطلب سيجارة لأن أهل اليمن الأعلى يستعملون حرف الشين بدلاً من حرف السين عندما ينطقون الكلمة.

وحدث يوماً أن مرضت ابنة المسعودي وطلبت من أبيها ان يشتري لها بطيخة. ولم تمض لحظات حتى رأت بطيخة فوق فراشها.

وكان للمسعودي ابن يتعلم في صنعاء، وكان يزوره من وقت لآخر لكنه توقف عن زيارته لان صاحب الصوت كان يأتيه بأخبار ابنه بانتظام.

ومرض المسعودي يوماً وعلم الابن بذلك وعزم على الذهاب إلى وادي ظهر. وبينما هو في الطريق سمع الصوت يقول له بأن صحة والده قد تحسنت وأن الاسرة بخير وأنهم ينتظرونه في المنزل.



عابرة سبيل في الحديدة

قال لي صديقي:

كنت أعمل في الحديدة منتدباً من قبل شركة تجارية مركزها الرئيسي في عدن. وسكنت منزلاً كبيراً تملكه الشركة. وقضيت في الحديدة زمناً لم يحدث لي خلاله شيء غير عادي. وكان لي خادم أمين يسكن في نفس المنزل وينام على مرتبة بجانب الشرفة المطلة على الشارع. كنت قد أعتدت أن لا أنام إلا بعد أن أتناول كأساً من الماء. وكانت غرفتي التي أنام فيها تؤدي إلى الفناء من جهة وإلى الشرفة من الجهة الأخرى. وكان كوز الماء في الشرفة. وحدث يوماً أن عدت إلى المنزل مرهقاً من كثرة العمل. ودخلت الغرفة وخلعت ملابس العمل لأتهيأ للنوم، ثم تذكرت أنني لم أشرب الماء كعادتي، ولكن التعب الذي كنت أشعر به حال بيني وبين الذهاب الى الشرفة وتمددت على فراشي وسرعان ما رحت في نوم عميق.

وفي الواحدة بعد منتصف الليل استيقظت من نومي وأنا أشعر بعطش شديد، وجلست على الفراش. وبينما أنا أوشك على الوقوف للذهاب إلى الشرفة سمعت صوت الغطاء وهو يرفع الكوز ثم صوت انسكاب الماء في الكأس. وظننت أن خادمي هو الذي يفعل ذلك. وعندما أوشكت أن أناديه ليأتيني بكأس ماء وقع نظري على الشرفة.

كان نور القمر يرسل ضوءاً خافتاً. وهناك، على ضوء القمر والفانوس رأيت خادمي مستغرقاً في النوم. تنبهت أعصابي عندما رأيته وسألت نفسي: « إذاً من هو الذي يصب الماء في الكأس »؟

غادرت الغرفة بهدوء وسرت متجهاً نحو الفانوس. وبينما أنا سائر سمعت صوت الغطاء وهو يوضع على الكوز. سرت نحو الباب الذي كانت إحدى فردتيه مغلقة ورفعت الفانوس بيد ونظرت إلى الشرفة. اقشعر بدني وتسمرت قدماي وطغى علي خوف شديد عندما رأيت امرأة تقف وظهرها إلى الباب الذي كنت أقف غير بعيد عنه. وتخاذلت ساقاي.

لم أكن أتوقع أن أرى امرأة. كان شعرها ينسدل في ضفيرتين إلى ظهرها وتلبس مئزراً وصدرية «زنة» يمتد كماها إلى المعصمين كعادة نساء تهامة اليمن. ودارت المرأة لتواجهني فرأيت ابتسامة ترتسم على شفتيها فاطمأنت نفسي قليلا لانها لو قابلتني متجهمة الوجه لقضي عليّ من الخوف. كانت بيضاء جميلة الوجه رشيقة تتحلى بسوارين من الكهرب في ساعديها وعقد يتدلى على صدرها. قالت والابتسامة لا تزال على شفتيها: «أنا عابرة سبيل»! ثم رأيتها تدور نحو الدرج الموصلة إلى سطح المنزل وتفتح باب السطح وتغيب.

جعلني هذا المنظر كالمصعوق. كنت أعرف إنها ليست من الجيران فقد كانت بيضاء وجيراني سمراوات. وأيضاً ليس من المعقول أن تفكر إحدى جاراتي في المجيء لتشرب كأساً من الماء في منزلي.

البيت المسكون في الحديدة

عاد الشاب من رحلته ونزل عند صديقين يسكنان منزلاً واسعاً، ولما كان متعباً من السفر فقد حياهما وتركهما إلى غرفة النوم واستمرا هما يراجعان بعض أعمالهما. وبينما هما يعملان اجتذب اهتمامهما صوت غريب فظنا أن صديقهما يرتب بعض أدواته لكن الصوت ازداد ارتفاعاً، وكان يشبه سحب السلاسل. وصاح به أحدهما يسأله عن هذه الضوضاء التي يسببها لكنهما لم يتلقيا منه رداً. وعندما اشتدت أصوات سحب السلاسل قاما من مقعديهما وتقدم أحدهما من الباب وهو يصرخ بصديقهما أن لا يزعجهما لكنه توقف عند الباب ولم يستطع حراكاً وتوقفت عيناه في محجريهما وقد استولى عليه رعب عظيم!

وأقبل الصديق الآخر يستطلع الخبر فتوقف قرب صاحبه وقد وقف شعر رأسه من الفزع، فقد رأيا أمامهما رجلاً أسود عملاقاً ضخماً مقيداً بسلاسل كبيرة في يديه ورجليه ويجر نفسه بجهد خارق ويرفع يديه إلى أعلى وكأنه يحاول أن يتخلص من السلاسل الثقيلة وينظر بوجهه المخيف نحو السرير لكنه عندما رأى الصديقين عند الباب غاب عن أبصارهما هو والسلاسل!

وفي إحدى الليالي سمع السامرون في السطح صوتاً صادراً من الطابق الأول في المنزل فتعجبوا ونادى أحدهم قائلا: « من هناك »؟ وبمجرد أن انتهى النداء سمعوا صوت أقدام تهبط الدرج بسرعة كبيرة وكأنها خطوات شخص هارب. وفي تلك اللحظة فتح الباب الأرضي ودخل منه صديق لساكني المنزل وبمجرد أن دخل رأى عملاقاً أسود هائل الجسم يمرق بالقرب منه ويفر هارباً إلى الخارج. وعندما دار الصديق ليرى العملاق وجده يتلاشى ويغيب عن ناظريه.

وفي ليلة شديدة الحرارة في مدينة الحديدة حين يضطر الناس إلى النوم في سطوح المنازل طلباً للهواء بينما السكان نائمين سمعوا حركة في الطابق الأول في المنزل فشكوا في الأمر ونزل أحدهم لمعرفة سبب الحركة وكانت الحركة تزداد وضوحاً كلما ازداد هبوطه. وعندما وصل إلى الباب وفتحه نظر إلى داخل الغرفة فلم ير شيئاً إلا أنه عرف مصدر الحركة فقد كانت الأرجوحة المعلقة إلى السقف تتحرك هابطة صاعدة بقوة وسرعة، واقترب قليلاً ورأى الأرجوحة لكنه لم ير أحداً عليها.

وذات ليلة سمع سكان المنزل حركات منظمة وكأنها خطوات جنود وتعجبوا.

وخرج أحدهم ليجد في الفناء عمالقة سوداً في صفين يقومون بتمرينات رياضية. وتخاذلت رجلاه من الرعب وكاد يقع على الأرض.

وعندما جاء بقية السكان أصيبوا بدهشة بالغة وهم يرون العمالقة يسيرون سيراً منظماً وكأنهم جنود في طريقهم إلى ميدان المعركة.

ثم رآوهم يسيرون نحو الشماسة في صفين ويقف كل واحد في اتجاه الآخر يبدأون في الملاكمة.

وبعد قليل رأوهم يسيرون نحو السلم ويغيبون عن الأنظار.

القابلة

كانت تمتهن التوليد في قريتها. ورغم إنها كانت في الستين من عمرها فقد كانت قوية البنية خفيفة الحركة وكانت أخلاقها الطيبة السبب في احترام الناس لها. وبينما هي ذات يوم في المنزل المتواضع الذي تعيش فيه مع ابنها وزوجته إذا بهم يسمعون طرقات على الباب. ولم يكن ذلك شيئاً جديداً عليها فإنها تعودت على استعداد لتلبية الطلبات في أي وقت.

وقامت المولدة من سجادتها وفتحت الباب فإذا بها أمام رجل في منتصف العمر يقرئها السلام وعلى وجهه إمارات التردد المقرونة بالقلق. وقال لها بأن زوجته توشك على الوضع وانه يرجوها أن تتفضل بمرافقته إلى مسكنه. ورغم أنها عرفت أن الرجل غريب عن قريتها إلا أنها لم تتوان عن الذهاب معه حاملة معها حاجاتها وأدواتها بعد أن أخبرت ابنها وزوجته.

كان الظلام دامساً يوحي بالرهبة إلا أنها لم ترهب شيئاً لانها تعودت السير في الظلام. لكنها استغربت وهي ترى الرجل يقودها إلى خارج القرية فالتفتت إليه وقالت له: «أين مسكنك يا ولدي»؟

ولما رد عليها بأنهما يقتربان من المسكن تبعته صامتة وقد بدأ الخوف يساورها. وحاول أن يطمئنها بكلمات طيبة ويتحدث معها. وبعد قليل توقف وانحنى يزيح حجراً فنظرت إليه مبهورة الأنفاس وقد غاص قلبها بين جنبيها وتساءلت: «هل هو من الجن»؟ وبمجرد انتهائها من تساؤلها رأته ينظر إليها بضراعة ورجاء ويقول «لا تخشى شيئاً يا والدة، اتبعيني».

ولما رأته يهبط في فجوة في الأرض حاولت التقهقر إلى الخلف لكنها فكرت في أنها لو تراجعت فإنها لن تستطيع الفرار منه فتوكلت على الله وقرأت آيات من القرآن وتبعته. وحالما هبطت وجدت نفسها في بهو واسع نظيف تضيئه أنوار خفية وكأنه في صولة النهار. وفي أحد الأركان وجدت امرأة تئن وتتوجع وتتقلب على حصير وهي منتفخة البطن فتأكدت القابلة أن المرأة توشك على الوضع.

وجاءها الرجل بأدوات للتوليد وطلب منها أن تفرغ كل عنايتها لسلامة زوجته وغادر المكان. وجلست القابلة بجانب المرأة وفحصتها ثم بدأت عملية التوليد. وانتهى كل شيء بسلام فخرج الطفل إلى عالم الوجود صارخاً فغسلته ودهنت جسمه ولفته في الأقماط.

وأقبل الرجل متهلل الوجه وشكرها على عنايتها وقال لها بأنه مستعد أن يعود بها إلى منزلها ثم ذهب إلى صندوق وفتحه وأخرج من يديه شعيراً وضعه في منديل القابلة وسار بها إلى الفتحة وطلب منها أن لا تخبر أحداً بمجيئها إليه. وقال انه سيعود إليها بعد أيام لتزور زوجته.

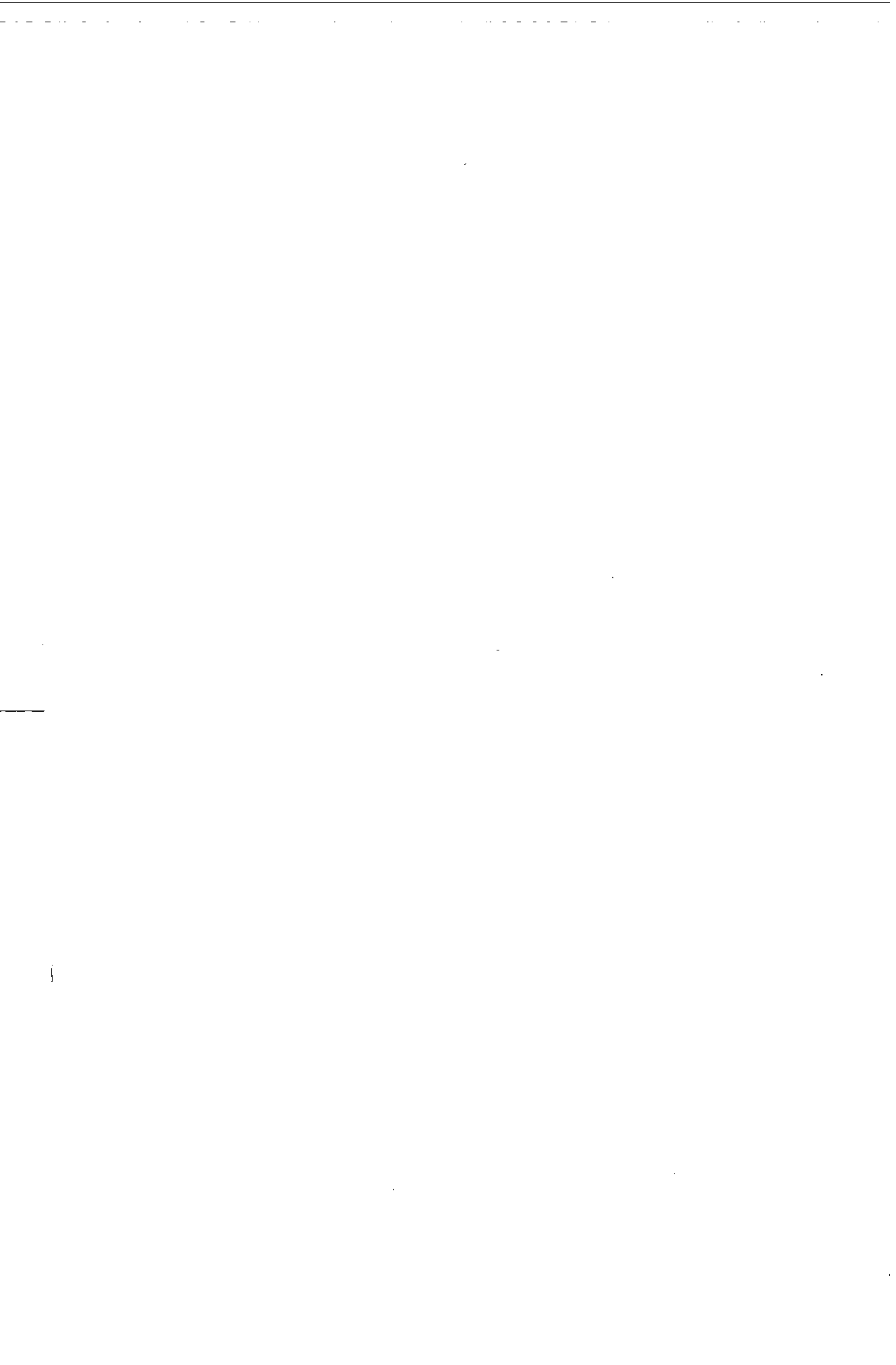
ولما وصلت إلى منزلها تهالكت على فراشها وقد بللها العرق ثم قامت ووضعت المنديل في صندوقها وهي تقول في نفسها «كنت أنتظر نقوداً فإذا به يعطيني شعيراً فما أفعل به»!

وفي الفجر أدت الصلاة ثم سارت نحو الصندوق فوجدت المنديل منتفخاً ولما رفعته وجدته ثقيلاً وعندما فتحته وجدته ممتلئاً ذهباً. فعادت إلى سجادتها وصلت ركعتين وهي تحمد الله على نعمائه.

بعد بضعة أيام جاءها الرجل وأخذها إلى مسكنه وحالما رأت المرأة ارتاعت وهي ترى نهديها وقد تناهيا في الطول حتى بلغا أرضية المكان لكنها توكلت على الله وغسلت الطفل ودهنته. وجاءها الزوج وسلمها كمية اخرى من الشعير فشكرته مبتسمة راضية.

بعد أيام اشترت العجوز منزلاً لها ولابنها وقطعة أرض. وسألها ابنها من أين اتت بالنقود فحاولت التملص من الإجابة ولكنه لما ألح عليها اخبرته بالحقيقة وان الرجل وزوجته من الجن الطيبين.

ومنذ ذلك الحين والقابلة في انتظار الرجل ولكن انتظارها طال دون جدوى.



شبح في المستشفى

كانت نوبته ليلية وكان عليه أن يبقى في القسم الأوروبي من المستشفى الأهلي بمدينة عدن.

بعد منتصف الليل كان يتحدث مع مساعد طبيب دوري، وبعد أن انتهى الحديث غادر المساعد القسم ليتفقد الأقسام الأخرى تاركا الممرض المختص وحده.

بعد قليل من مغادرة المساعد للقسم سمع الممرض صوتا صادرا من أسفل الدرج يشبه صوت سحب شيء تلاه وقع أقدام تصعد الدرج إلا أنه يختلف بعض الاختلاف عن الوقع العادي فقد كانت الأقدام تصعد الدرج وثبا بالقدمين معا كما يحجل الطير لا بقدم واحدة كما يفعل سائر الناس. واستمر الصعود فازداد انتباه الممرض وصاح « من هناك »؟

لكنه لم يتلق جوابا على سؤاله. وتوقف الوثب لحظة ثم استمر صاعدا. وظن الممرض أن مساعد الطبيب عاد ليمازحه فصاح مناديا: « فلان »!

ولما لم يتلق جوابا على سؤاله صاح: « فلان، عرفتك، اطلع »!

وأسرع الى زر الكهرباء وأطفأ النور وأختبأ خلف حاجز في انتظار المساعد ليفاجئه. لكن الوثب بعد ان توقف قليلا مرة أخرى عاد صاعدا. وانتظر الممرض فترة فلم ير شيئا بل سمع الوثب يتحول فجأة نحو المطبخ الذي يقع في ناحية منزوية تحت القسم مباشرة. واقترب الممرض من الدرج بكل هدوء هابطاً

الدرجات القليلة الموصلة الى المطبخ. فجأة توقف الممرض وتصاعدت الدماء الى رأسه وشعر بغصة في حلقه.

كان الهدوء شاملا في ذلك الوقت من الليل وفي تلك البقعة البعيدة من العمران وكان الذي أوقفه خشخشة سمعها تصدر من داخل المطبخ.. كان يعرف أن جميع نوافذ المطبخ مغلقة فلا يمكن لهرة أو فأر أن يدخل، وكان باب المطبخ مقفلا.

وبينما هو في وقفته الاضطرارية سمع خبطات ضئيلة خافتة في داخل المطبخ تلتها أصوات رفع الأواني من محل ووضعها في محل آخر. اختنق صوت الممرض فلم يستطع أن يصرخ مستغيثا. وبعد لحظات سمع الوثب يغادر المطبخ ثم يبدأ في الهبوط بهدوء وأتزان فتخطى الممرض الشرفة وقفز منها الى الطريق وسار يعدو بكل قوته نحو غرفة الأطباء واندفع الى الداخل وانطرح على الأرض منهوكا. ولما استعاد أنفاسه شرح ما سمعه.

وفي الصباح فحصت أواني المطبخ فلم توجد عليها أي آثار.

الهاتف في صحراء نجد

في إحدى القرى النجدية كان يعيش صديقان عزما يوما على الرحيل عبر الصحراء الى قرية نائبة يستغرق الوصول اليها أربعة أيام لقضاء بعض الأغراض. وسارا سيرا متواصلا لا يستريحان الا قليلا. وفي الليل أناخا جمليهما في بقعة من الصحراء. كانا في سيرهما يتوخيان الحذر الشديد والهدوء الكامل في كل حركاتهما. وكان الجملان مدربان منذ صغرهما على الهدوء شأن الجمال التي تستعمل في الحروب والغزوات. وفي السفرات البعيدة حتى لا تنم عن أصحابها. وبسطا فراشيهما وبينما هما يتهيئان للنوم سمع أحدهما صوتا آتيا من بعيد يناديه « يا فلان ». وكان الاسم اسم الذي تمدد أولاً لكنه لم يتحرك رغم أنه لم يكن قد نام. أما الآخر فقد تيقظت أعصابه وشعر بالخوف يسري في كيانه لأنه عرف معنى هذا الصوت. التفت الى صديقه فظنه قد نام فلم يوقظه.

كان الصوت صوت امرأة..

وبعد فترة قصيرة عاد الصوت ينادي « يا فلان! »

ازدادت مخاوف الرجل والتفت الى صديقه فوجده يتحرك ببطء في فراشه واقترب منه. ومرت فترة أخرى وعاد الهاتف ينادي « يا فلان ».

وبمجرد انتهاء النداء الثالث استوى الراقد على فراشه ورفع يديه وفتح فمه ليجيب لكن صاحبه الذي كان يراقبه بعين ثاقبة متيقظة أسرع بوضع كفه على فمه ورجاه بأن لا يجيب على الهاتف.

لم يطب للصديقين المقام في تلك البقعة فلفا فراشيهما وساقا الجملين عنوة

حتى ابتعدا عن ذلك المكان الى بقعة أخرى ناما فيها نوما هادئا.

وقبل انبثاق الفجر تيقظ الأول ورأى صديقه مستغرقا في النوم فلم يوقظه إلا بعد أن أعد القهوة والفطور. وبينما هو يغسل الفناجين سمع صديقه يتحدث بصوت غريب ويداه تتحركان بسرعة وعيناه لا تكادان تقفان في محجريهما. وأدرك الأول أن صديقه قد جُنّ. وحاول تهدئته لكن حالة الصديق استمرت حتى الضحى عندما أصابته الحمى. وقام الأول بحمل صديقه وربطه على ظهر أحد الجملين وقضى النهار بطوله مجدا في السير حتى وصل الى إحدى القبائل النجدية الضاربة في الصحراء

واستقبلهما شيخ القبيلة وأمر رجاله بحمل المريض الى خيمة حيث هيأوا له مرقدا وعالجوه بأدويتهم شهرا كاملا قضاه في غيبوبة وهذيان. وعندما أفاق واسترد بعض صحته ذهبت عنه حالة الجنون.

وذات ليلة جلس الصديقان مع مضيفيهما يتحدثون عن هاتف الغيلان الذي يسمع أحيانا في الصحراء في الأماكن البعيدة عن القرى والمدن. ويعتقد الأعراب أن من يسمع الهاتف عليه أن يحاول أن لا يجيب لأن الإجابة تؤدي أما الى الجنون أو الموت. وكان الصديقان يعرفان ذلك لكن الراقد رغم محاولاته العنيفة أن يضبط أعصابه شعر بجاذبية الصوت في النداء الثالث وكاد يجيب لو لم يسرع صديقه بوضع كفه على فمه فانقذه من الموت أو الجنون.

وعندما يسمع الأعراب هاتف الغيلان يسرعون بالأذان عملا بالحديث الشريف:« إذا تغولت لكم الغيلان فنادوا بالآذان فإن الشيطان إذا سمع الآذان أدبر وله حصاص ».

شبح في صحراء لحج

تقع مدينة « الوهط » في منطقة لحج التي تبعد عن مدينة عدن بحوالي ١٦ ميلا.

في الساعة السادسة والنصف من مساء إحدى الليالي خرج صديقان لا يتعدى أكبرهما العشرين من عمره من الوهط في طريقهما الى لحج لمشاهدة رواية تمثيلية كانت تعرض هناك. وبينما هما يجتازان كثيبا من الرمل فوجئا برؤية شبح له شكل صندوق مستطيل يتدحرج على بعد قليل منهما. وقف الأول مذعورا من هول ما رأى لكن صديقه الذي كان يكبره قليلا تجلد رغم خوفه الشديد أيضا وأمسك بكتف صديقه طالبا منه أن يستمر في السير، لكن الأصغر أجابه بأنه لا يستطيع لأن الشبح يقف أمامهما ثم يتدحرج، ثم صرخ الأصغر بصوت مريع « الشبح »، الشبح، أنه يتقدم نحونا ». وقال الأكبر وهو يرتعش من الرعب أنه لا يرى شيئا، ثم حاول أن يتحكم في أعصابه وقبض على ذراع زميله ليبتعدوا عن المكان. لكنهما ما كادا يستديران حتى رأيا شبحا آخر يقف أمامهما ويشبه ضبابة بيضاء ترتفع تدريجيا نحو السماء.

لم يستطع الأصغر أن يتحكم في أعصابه وصرخ مستغيثا بصوت هائل واندفع هائجا بقوة خارقة الى الأمام يجري هنا وهناك حتى ابتلعه الظلام.

أما الأكبر فبعد أن وجد نفسه وحيدا إزداد رعبه لكنه لم يشأ أن يهيم في ذلك القفر الواسع بل حاول أن يتابع طريقه الى لحج سالكا طريقا آخر. ونظر حواليه فلم ير شيئا وكأن الشبح فضل أن يطارد الهارب.

وبينما هو يسرع مواصلا سيره توقف فجأة وكأنما صدمه شيء أوقفه عن السير،

ورأى شبحا يقف أمامه نصفه الأعلى مغطى بثوب أبيض بينما لم يظهر من نصفه الأسفل شيء.

وأشاح بوجهه ووقف مكانه يستسلم لأقدار قاسية. وبمجرد أن أدار رأسه رأى نفس الشبح يقف أمامه. تملكه حب البقاء وأطلق ساقيه للريح متخطيا الكثبان والمزارع وهو يحس بالشبح يجري خلفه حتى اقترب من قرية «صَبِر» حيث لم يشاهد شيئا.

تمهل في سيره وارتمى على الأرض، وبحركة لا شعورية التفت الى الوراء.

تقلصت عضلاته وكاد ييأس من الحياة عندما وجد الشبح يتقدم نحوه، ووقف الشاب وصرخ بصوت عال ترددت أصداؤه في الصحراء واستمد قوة من ضعفه واندفع كالجواد الجامح المفلت العنان واستمر يعدو ولم تتخاذل ساقاه إلا بعد أن وجد نفسه يسير بين بيوت قرية «هَرّان».

وقد أخبرني هذا الشاب أنه بعد أن نقل الى الوهط ظل طريح الفراش مدة طويلة كما أن صديقه قاسى من المرض أكثر مما قاسى هو.

الروح المنقذة في الصبيْحَة

كانت عذراء طاهرة تنتمي الى أسرة إشتهرت بالصلاح والتقوى في إحدى قرى منطقة الصبيحة في جنوب اليمن. وكانت تحل فيها أحيانا روح أحد أجدادها فتتصرف تصرفا غريبا لا يدرك له العقل تفسيرا. وكانت تلك النوبات تتحدث بلهجة رجل فيها خشونة الصحراء ولُكنة البادية. وكان صاحب تلك الروح الولي على بن عمر المقبور في قرية « القاضي » في بلاد الصبيحة.

وكانت النوبات تأتيها في الأوقات التي يوشك فيها الخطر أن يدهم العائلة.

وعندما تأتيها النوبة تستعد الأسرة بإحضار أنواع من البخور والعطور والعود لأنها المواد التي ترتاح اليها تلك الروح. وتبدأ النوبة بتشنج جسم الفتاة وتصر أسنانها ويرتعش جسدها ثم تبدأ الروح تتكلم من فم الفتاة. وكان للروح تابعان يأمرها بأداء بعض الأعمال.

وحدث مرة أن تيقظت الأسرة على صوت الفتاة وهي تضغط على أسنانها فأسرعوا بإحضار البخور والعطور، وبعد قليل سمعوا الصوت من فم الفتاة: أنا البدوي ». ثم أخبرهم أنهم في خطرٍ وأن عليهم أن يحذروا من أعدائهم المسلطين عليهم والذين يوشكون على القدوم. وبعد قليل صدر الصوت يقول: « جاء ». ثم سمعوا صوت سقوط شيء ثقيل على الأرض من السقف. وأخبرهم الصوت أن عدوهم قد جاء وأن عليهم أن لا يخشوه. وطلب منهم بعض الرماد والحلف.

وغادرت الفتاة الفراش تنثر الرماد والحلف في أنحاء الغرفة ثم تنتزع حذاء من قدم أحد الحاضرين وتدور في الغرفة تضرب الأرض بالحذاء وتصيح: « هنا، هنا، هنا، أخرج، أخرج ». وبعد قليل أكدت لهم الروح أنها قد القت

القبض على العدو الشرير الذي سلطه عليهم بعض أعدائهم. ثم ارتفع الصوت مناديا أحد التابعين وأمره بأن يأخذ الأسير الى قبة القبر.

وتمددت الفتاة على الفراش متشنجة وطلبت قليلا من أغصان البُعَيْثران. ولما إحتارت الأسرة من أين تجيء به قالت الروح أنه موجود فوق رف الباب، فتذكروا حالا أنهم إعتادوا وضع البعيثران على الرف إستعدادا لمجيء الروح. ولما جاؤوا به وضعوه في فم الفتاة التي أخذت تمضغه ثم سلمت شيئا منه لبعضهم ليتبركوا به.

وبعد فترة صدر صوت الروح آمرة التابع الآخر بأن يهيء الحصان. وفي تلك اللحظة سمعوا صوت الصهيل في الخارج ثم وهو يبتعد.

بعد أيام سمعت الأسرة وسكان البيوت المجاورة صوتا يؤذن حول المنزل عند منتصف الليل.

شبح العرجاء في الشِّحْر

كان يملك مطعما بسيطا في السوق العام في مدينة الشحر في حضرموت، وقد إعتاد أن يأتي بجميع الأطعمة جاهزة قبل إنبثاق الفجر من منزله الذي يبعد نصف ميل من مطعمه. وبينما هو ذات ليلة في مطعمه فكر في أن يسرع بجلب الطعام وطبخه في المطعم بدلا من المنزل. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما ترك مطعمه وذهب الى منزله حيث حَضّر المواد ووضعها في صحن كبير حمله على رأسه وغادر المنزل.

لم يكن يخالج فكره شيء في ذلك الوقت من الليل والقمر يرسل نورا ضئيلا على الطريق، إلا أنه عند مروره بالقرب من جامع الشحر تذكر ما يقال من أن جنية تسكن في ناحية قريبة منه، لكنه إستمر سائرا. ولم يمش خطوات قليلة حتى أحس بشيء يجبره على النظر الى الخلف فقاوم الضغط وحاول الإستمرار في السير لكنه اضطر مكرها الى النظر الى الوراء.

شعر بخوف رهيب يعصر فؤاده، وتصاعدت الدماء الى رأسه عندما رأى على ضوء القمر إمرأة تسلط عليه شعاعا من عينيها وهي واقفة غير بعيد من المسجد. أدار وجهه بحركة عصبية وأسرع في خطواته وهو يستعيذ بالله من الشياطين، ولم يكد يبدأ أول خطوة حتى سمع وقع أقدام تسير خلفه. ومرة أخرى إضطر الى النظر الى مصدر وقع الأقدام فرأى المرأة تسير وراءه بنفس سرعته وهي تعرج في مشيتها، فتشبث بالصحن وأطلق لساقيه العنان وهو يسمع أقدامها تجري وراءه. ولما وصل الى زقاق يعيش في أحد منازله صديق له فتح فمه وانطلقت الكلمات منه عالية تعكر صفو الزقاق مستغيثا بصديقه. وأطلقت

الرؤوس من نوافذ المنازل وظهر على وجوه أصحابها الخوف والقلق. وأطل صديقه من نافذته وهو يظن أن حادثة قتل تجري عند داره، وصرخ « مالك، ما جرى لك »

فأجابه وهو يلهث وقد وصل الى تحت النافذة: « إفتح، إفتح الباب بالله عليك. الجنية العرجاء تجري ورائي »! والقى صديقه نظرة على الشارع فلم ير شيئا سوى رؤوس الجيران المطلة من النوافذ، وحاول أن يهدىء من روعه مؤكدا أنه لا يرى شيئا.

ولما رأى الرجل أن باب صديقه لم يفتح رغم الحاحه سار في الزقاق يتلفت حواليه.

وبعد أن قطع مسافة شعر فجأة بالأقدام تقترب منه فجرى بكل ما بقيت له من قوة، ولم يكد يبتعد قليلا حتى أحس بشيء يصدمه في صدره، فاختل توازنه ووقع الصحن على الأرض وتناثر ما فيه.

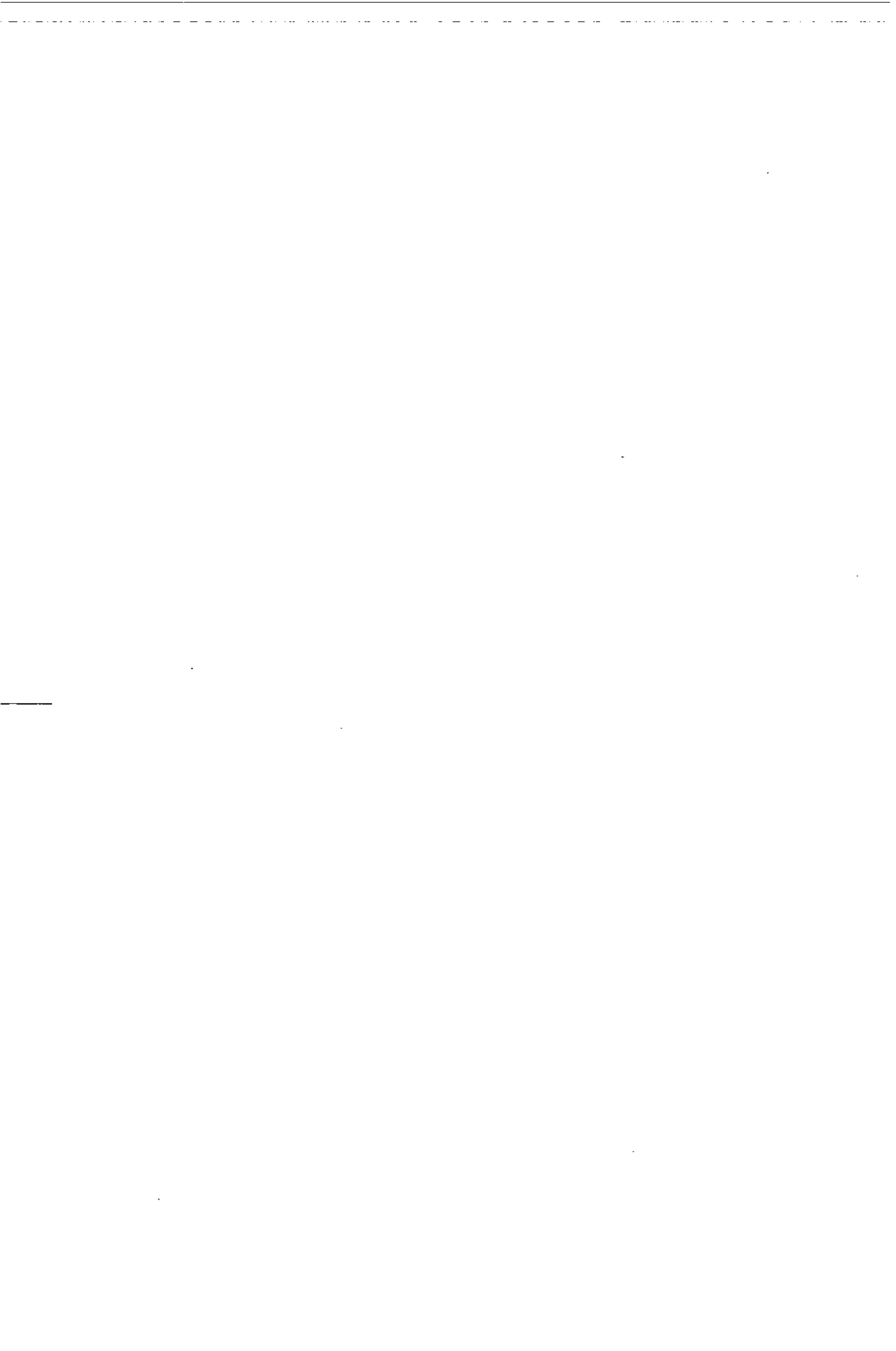
ولم يبال الرجل بصحنه بل إستمر يجري ولم يتوقف إلا وهو عند باب المطعم.

شبح في القبيطة

تقع قرية «الرما» في ناحية القبيطة، قضاء الحجرية بلواء تعز فيها منارة قديمة أو برجا مهجوراً، وليس لها أي منفذ وقد شيدت على «ضاحة» - أي منحدر وعر - لا يمكن لانسان أن يتسلقها.

ويشاع أن سكان القرية كثيراً ما يسمعون في الليل أصواتاً وحركات صادرة من مخلوقات خفية. وحدث يوماً أن خرج شاب في السادسة عشرة من عمره لزيارة أقارب له في قرية مجاورة. وعندما بدأ العودة الى قريته كانت الشمس تنحدر نحو المغيب، وكان يصحبه شاب من نفس قريته قرر في آخر لحظة أن يعود من حيث جاء. وسار الشاب وحيدا نحو قريته ماراً بمنزل صديق يعيش بالقرب من مجنة القرية.. وما أن توغل في المجنة حتى ظهر له شبح مخيف يلبس كفنا ويضحك في وجهه بطريقة رهيبة كشفت عن أسنان كأسنان المنشار. وأخذ الشاب يعدو للنجاة والشبح يجري خلفه، ولم يختف الشبح إلا بعد أن ظهر رجال يحملون جنازة وهم يكبرون ويهللون لكنه لم يرتح طويلا لأن منظرهم كان غير عادي فقد كانوا جميعا يلبسون ثياباً بيضاء ناصعة فانزوى قرب شجرة، ورآهم يحفرون ويدفنون ويتلون الشعائر كالناس العاديين ولكنهم ما انتهوا من الدفن حتى اختفوا فجأة فلم ير لهم أثر.

وظهر له الشبح مرة أخرى وهو يصرخ في وجهه بطريقة تبعث على الرهبة والفزع وكان تارة يعوي كالذئاب وأخرى ينبح كالكلاب وطوراً يصيح كالديكة واستمر على تلك الحال حتى انبثق نور الفجر فاختفى الشبح. وباعياء شديد عاد الشاب إلى قريته وقص على أهله ما رأى وما سمع. وبعد يوم وليلة فارقته الحياة.



من أطفأ الفانوس؟

في إحدى القرى النائية يقع بيت قديم لأحد رجال القبائل، وكانت له غرف ضيقة مظلمة واطئة السقوف نوافذها عالية شديدة الضيق، وتؤدي الى تلك الغرف دهاليز طويلة رطبة مظلمة لا يكاد السائر فيها يتبين أصابع يديه حتى في وضح النهار.

كان البيت خالياً من السكان، وعند وصول الشاب الغريب الى القرية سائحا أسكنوه تلك الدار.

كان في الدار فانوس كبير يولعه عندما ينام حتى لا يضطر الى التخبط في الظلام الحالك عندما يستيقظ في الفجر لاداء الصلاة مع رجال القرية.

بعد أيام قضاها الشاب في الدار لاحظ أن الفانوس ينطفىء من تلقاء نفسه رغم امتلائه بالغاز. وبعد ان تكررت عملية الاطفاء ظن أن يدا تعبث بالفانوس رغم أنه لم يكن يشعر بانسان يدخل الدار. أما الهواء فلم يكن ينفذ إلا من طاقة صغيرة ولم يكن اندفاعه من القوة بحيث يطفىء الفانوس. وفي احدى الليالي استيقظ من نومه فوجد الفانوس مطفأ فقام يتخبط في الظلمة الحالكة باحثاً عن الكبريت وبينما هو في بحثه شعر بحركة بالقرب منه فأشعل العود ورأى على ضوئه القط الأغبر الذي يعيش في الدار وهو خارج من الغرفة.

في النهار فكر في وسيلة يكتشف بها الشخص الذي يطفىء الفانوس وجلب رملاً من الخارج وفرشه بيديه على أرضية الغرفة. وفي الليل وضع الفانوس على الرمل ومحا آثار قدميه ثم توسد فراشه ونام. وعندما استيقظ في الفجر وجد

الفانوس مطفأ كعادته فأخرج عوداً وأشعله وأولع الفانوس وبحث على الرمل فلم يجد غير آثار القط.

كان القط أليفاً وكان الشاب يناوله بقية طعامه لكنه لم يشك فيه مطلقاً لأنه حيوان أعجم لا يستطيع أن يطفىء الفانوس، فلم تكن له أيدٍ قادرة على ذلك كما لم يكن تنفسه من القوة بحيث يستطيع أن ينفخ على ذبالة الفانوس المشتعلة فيطفئها.

في أحد الأيام بينما هو في السطح رأى القط نائماً والتفت اليه الشاب مبتسماً وقال له: «لماذا تطفىء الفانوس وأنا أكرمك».

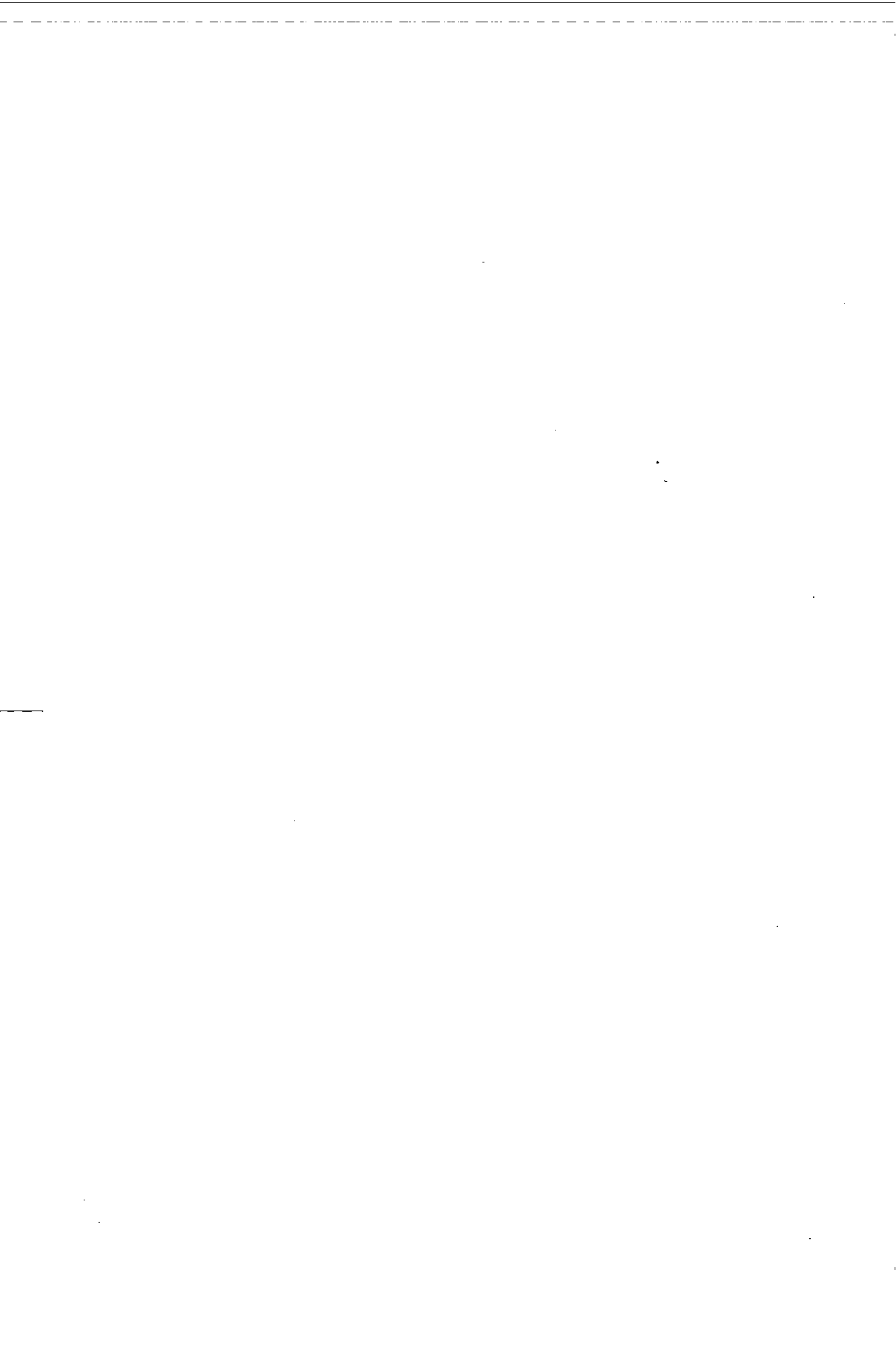
وما كاد ينتهي من كلامه حتى وقف القط والتفت نحو الشاب ثم نكس رأسه وغادر السطح. ومنذ أن غادر القط الدار استمر الفانوس مشتعلا. ولم يعد القط الى الدار.

الشبح الرضيع

عند منتصف الليل تيقظت المرأة من نومها على أثر حركة شعرت بها، وعندما التفتت الى جانبها وجدت طفلها الرضيع يصرخ ويرفس فأخذته بين يديها وأرضعته. لكنها استغربت الطريقة التي كان يرضع بها لأنها تختلف عن الطريقة التي تعودتها منه، وزاد في دهشتها أن ثقله يختلف عن الثقل المعتاد فظنته مريضا.. هنا تذكرت المرأة وقد غاص قلبها بين جنبيها أنها وضعت طفلها على الارجوحة ولم تضعه بجانبها وأصابها خوف شديد ووضعت الطفل فوق الفراش وهي تستعيذ بالله من الشيطان.

وبمجرد أن وضعته على الفراش رأت شبح امرأة تحمل طفلا بين يديها وتندفع نحوها بقوة وتقذف بالطفل فوق السرير وتختطف الطفل الآخر من فوق الفراش. وأصاب المرأة الذعر ولم تستطع حراكاً بل فغرت فاها وبرزت عيناها. لكن شبح المرأة توقف وقالت لها بصوت لطيف بأن ليس عليها أن تخشى شيئاً فانها اخطأت ووضعت طفلها على السرير وعندما أرادت أن تأخذه حملت الطفل الآخر من الارجوحة وأرضعته، ولما وجدته غريبا عادت لتبحث عن طفلها. وأضافت قائلة «ما دامت كلانا قد أرضعت طفل الآخر فلن تضر احدانا الأخرى وأتمنى أن تكون الأخوة قائمة بيننا.

ومنذ ذلك الحين اعتادت المرأة أن ترى شبح الأخرى في كثير من الليالي حاملة طفلها وتغترف الماء وتشرب القهوة أو تسير صامتة.



روح فنان

أرسلت الأخت اشارة الى أخيها بأن يسرع الى منزلها لأن أبيها في حالة خطيرة وفي الطريق الى منزلها أخبره الرسول بأن ابن أخته البالغ من العمر اثني عشر عاماً قد تقمصته روح شريرة جعلته يهذي بكلمات غريبة بلهجة لم يعهدوها ويصرخ ويغني.

وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه واستسخف أخته التي تعتقد بالخرافات.

وعندما اقترب من منزل أخته رأى ناسا كثيرين واقفين يستمعون الى صرخات صادرة عن المنزل، وعندما همّ بالدخول رأى شيخاً يخرج مهرولا وكأنه في سباق مع الريح.

وقالوا له بأن الهارب جاء ليداوي الطفل لكنه هرب من الخوف.

نظر الى ابن أخته فوجده متهيجا يتهدد ويتوعد ويصرخ. وفجأة يتوقف الطفل عن الصراخ ويلقي نظرة طويلة على الخال فيها دهشة وعجب، ويقول: «آه، أنا أعرفك؟!

فأجابه الخال وقد بدأ يصدق أن روحاً قد حلّت في ابن أخته: «لكني لا أعرفك»!

وخرج الصوت من فم الطفل: «كيف تقول انك لا تعرفني، ألست أنت فلانا؟»

وقال الخال: «نعم، أنا فلان، ربما كنت تعرفني لكنني لا أعرفك. من أنت؟»

وقال الصوت: «ألا تذكرني؟ أنا فلان!».

هنا استعاد الخال في ذاكرته شخصا كان جندياً في الفرقة العاشرة للجيش الهندي في الحرب العظمى الأولى التي حلّت في معسكر الشرطة المسلحة خلف السجن القديم على طريق الخصاف في مدينة عدن. وتذكر أيضاً أن الفن كان يربط بينهما اذ كان كلاهما مولعا بالغناء والطرب ويقيمان حفلات غنائية. وتذكر أيضاً أنه كان ذات مرة قد دعاه الى احدى الحفلات فلم يحضرها لأنه لم يكن راضياً عن أحد العازفين. فأقام حفلة أخرى لم يدع اليها ذلك العازف. ووجد الخال أن تلك كانت خير وسيلة يحاولها لانقاذ ابن أخته، وقال له: «وما فائدة الصداقة التي كانت بيننا وأنت تحاول أن تضرنا».

وارتفع الصوت: «وما هو الضرر الذي ألحقته بك؟»

وقال الخال: «أنك أصبت ابن أختي».

وقال الصوت: «ومن ابن أختك؟»

وقال الخال: «هذا المصاب الذي حللت في جسمه، فاذا كنت صديقا فغادر جسمه في الحال فان أمه هي أختي».

وقال الصوت: «آه، لم أكن أدري أنه ابن أختك لكنك لا تعلم كم قاسيت بسببه!»

وقال الخال: «انه طفل صغير فكيف يمكن لمثله أن يسيء اليك؟»

وقال الصوت: «أنت تذكر شدة ولعي بالغناء، وقد أقيمت في الخصاف منذ أيام حفلة موسيقية فذهبت الى هناك وبقيت خارج الحفل أتمتع بالاستماع الى الطرب والغناء ورآني ابن أختك وظل يرميني بالحجارة ويضربني حتى اضطرني الى الهرب!»

وقال الخال: «ولكن كيف يمكن أن يراك وأن يرميك بالحجارة ويضربك» كيف كنت؟»

وقال الصوت: «كنت حماراً!»

هنا كتم الخال ضحكة عالية كادت تخرج من فمه، واستمر الصوت: «عدت الى مسكني وأنا أتوعده بالانتقام منه!»

وقال الخال: «وأين هو مسكنك؟»

وأجاب الصوت: «تحت الشجرة القائمة بين السجن والمعسكر».

هنا استعاد الخال الى ذاكرته أن الجندي أصيب في حادثة ومات في المعسكر. وحاول أن يؤثر على صاحب الصوت وذكّره بالصداقة القديمة والأيام الحلوة وطلب منه باسم الصداقة أن يغادر جسم ابن اخته لأنه طفل لا يدرك.

وقال الصوت: «من أجلك سأغادر جسمه بشروط ثلاثة يجب أن تنفذها غدا»

وقال الخال: وما هي الشروط؟»

وقال الصوت: «أن تمنع ابن اختك من الاعتداء عليّ، وأن تضع تحت الشجرة طعاماً شهياً وأن تحضر بنفسك وتسمعني اغنياتك التي كنت أحبها».

وقال الخال: «قبلت الشرطين الأول والثاني أما الثالث فلا يمكنني تنفيذه لأن الشجرة تقع في منطقة محرمة والبقاء عندها وقتاً طويلا وأنا أغني سيجعل الجنود يقبضون عليّ. لكنني سأمر في الطريق الممتد من السجن الى العطفة المؤدية الى الخصاف وأثناء سيري سأسمعك الأغنيات التي تحبها».

ووافق صاحب الصوت. وبعد قليل سمع الحاضرون حفيفا ورأوا الولد يرتعش في سريره ثم يفتح عينيه ويغمضها ويقول: «ماذا جرى لي؟ أهلا بك يا خالي».

وكانت الأم في تلك الأثناء تقبل ولدها وتحتضنه وتشكر أخاها الذي أنقذه لكن الخال لم ينفذ شروطه.

وفي اليوم الثالث عاد الولد الى حالته الأولى فأسرعت أمه الى أخيها باكية وأدرك أن الروح عادت الى جسم الطفل لأنه لم ينفذ الشروط. وذهب الى منزل أخته واعتذر لأسباب قاهرة عن تنفيذ الشروط وأكد أنه سينفذها في

الغد. ووافق صاحب الصوت وقال: « ستعرفون أنني غادرت جسم الطفل عندما تضعون قارورة في عتبة الباب ». وأسرعت الأم بوضع القارورة. وبعد لحظة رأوها تطير في الهواء وتتحطم في الشارع.

معاهدة مع الثعابين

ورث الرجل عن والده منزلا عتيقاً في أحد الشوارع المزدحمة. واحتفظ بالطابع القديم للبيت ولم يغير من مظهره الخارجي شيئاً. أما الداخل فالبيت عبارة عن دهاليز وغرف وأفنية وسلالم كلها خرائب تمتلىء بالأثاث العتيق والأدوات البالية. وكأمثاله من المنازل القديمة كان مليئاً بالحشرات والزواحف وخاصة الثعابين التي كانت تسعى آمنة مطمئنة.

وكانت للرجل مناعة ضد لدغات الثعابين، أو أنها ألفته فلم تحاول أن تؤذيه فكان يداعبها ويمسك بها ويضعها بين ملابسه. ويقال أنه كان يمتلك سيطرة غريبة عليها بحيث لا تتجاسر على لذغه. وقد أصدر أمراً لأفراد أسرته بأن لا يؤذوها فكان الأولاد يلعبون ويمرحون بين الخرائب بينما تسعى الثعابين بينهم فلا هي تتعرض لهم ولا هم يتعرضون لها. وكأن بين الطرفين عهداً بعدم تعدي طرف على الآخر.

إلا أنه حدث يوماً ان كان طفل في الثالثة من عمره يهبط الدرج وسمع أهله صراخه الثاقب فلما أسرعوا اليه وجدوه في أسفل الدرج فاقد الحركة، ولما حملوه الى إحدى الغرف فحصوه وجدوه قد فارق الحياة. وبعد يومين بينما كان الوالد يهبط الدرج رأى ثعباناً صغيراً فأسرع خلفه وقتله. وبعد ذلك ببضعة أيام بينما هو يوشك على صعود الدرج رأى ثعباناً كبيراً يقف حائلا بينه وبين الصعود، وفجأة تحول الى شكل انسان ضخم أسود يقذف الشرر من عينيه فانذهل الرجل وارتاع لكنه ملك زمام نفسه وصاح قائلا: « من أنت؟ »

فأجابه الواقف أمامه بصوت عريض: «أنا الذي تجاسرت فقتلت ولده وقد جئت للانتقام!»

وقال الرجل مستغرباً: «ومن هو ولدك وأين قتلته؟»

وقال الغريب: «استمع اليّ. انك قتلت الثعبان الصغير الذي كان يزحف على الدرج»

وقال الرجل: «نعم، لقد قتلت ثعباناً، أما أنت فقد قتلت ولدي الطفل وهو يهبط الدرج».

وهنا ظهر الحزن على وجه الغريب: «لقد فقدت ولدك وفقدتُ ولدي، ولا يصح ان نتقاتل ونحن نعيش في بيت واحد، والأفضل أن نرتبط بعهد فلا يضر أحدنا الآخر».

وقال الرجل: «لقد قبلت العهد. ولكن، قل لي من أنت؟»

وأجابه الغريب: «أنا من جن سليمان الحكيم بن داوود واسمي عبد القهار، وأنا وأهلي نعيش في المنطقة التي يقع فيها منزلك!»

وقال الرجل: «وهل ستحافظ على العهد؟»

وقال الغريب: «نعم، أعاهدك على ذلك» واختفى.

السقاء

في ليالي الصيف الحارة، اعتاد بعض الناس النوم في الرصيف بالقرب من منازلهم. وفي ركن الشارع كانت توجد بئر يحصلون منها على الماء.

وفي احدى الليالي، بينما هم على أسرتهم انتبهوا على صوت العجلة المعقود في حبل البئر وهي تصر فاستغربوا وتساءلوا من هذا السخيف الذي يبرح الماء في مثل هذا الوقت من الليل. ولما التفتوا نحو البئر وجدوه رجلا فصرخوا فيه لكنه لم يلتفت اليهم بل مضى يعمل هادئاً دون أن يلقي اليهم بالا. وازداد اندهاشهم وساورتهم مختلف الظنون فمن قائل أنه معتوه ومن قائل انه شبح ومن قائل أنه جني. ولم يتجاسر أحد منهم على الذهاب الى البئر واستمروا في أسرتهم.

في الليلة التالية حدث مثل ما حدث في الليلة السابقة فتضجر الناس وجعلوا يصرخون لكن صرخاتهم ذهبت أدراج الرياح.

وتساءلوا اذا كان هذا المخلوق يجلب الماء من البئر فالى أين يذهب به مع أنهم لم يروه يحمل دلواً أو اناء كما لم يوره يغادر موقفه، فهل يبرح الماء ليقذف به مرة أخرى أم أنه يقدمه لمخلوقات غير منظورة!

وعندما وجدوا أنهم لم يجتذبوا اهتمامه استولى عليهم الخوف فبقوا في أسرتهم صامتين بينما استمر الرجل يعمل عند البئر حتى الفجر.

واستمر الحال على ذلك بضعة ليال فقرر الناس أن يذهبوا جميعاً الى البئر للتأكد من هوية الرجل. وانتظروا حتى سمعوا صرير العجلة فهبوا نحوه صارخين حاملين العصي ولما اقتربوا منه نظر اليهم ثم تضاءل وفي لحظة خاطفة رأوه وقد تحول كلبا.

استولى عليهم الذعر وأطلقوا لسيقانهم العنان، ولما ابتعدوا سمعوا صرير العجلة فلما أداروا رؤوسهم رأوه يبرح الماء ولم يكن هناك أثر لكلب.

وبعد أيام اختفى الرجل، ولم يعد الى البئر.

الطباخة

كان الرجل مصاباً في ظهره لا يستطيع حراكاً إلا بصعوبة. وكان يعيش وحيداً في منزله يقاسي من آلام المرض وآلام الوحدة. وكان أصدقاؤه يزورونه من وقت لآخر. وفي أحدالأيام زاروه ووجدوه في حالة سيئة فقرروا أن يبقى أحدهم معه في المنزل للعناية به. ووضع الصديق سريره بالقرب من سرير المريض.

كان المنزل يتكون من غرفة وفناء بنيت في جزء منه غرفة مؤقتة من الخشب لخزن أدوات المنزل، والى جانب الدرج يوجد حمام ومطبخ.

كان المريض ينام في الغرفة قريباً من الباب، وعندما جاء الصديق للعناية به جعل سريره مقابلا لسرير المريض. وفي تلك الليلة ظل المصاب متيقظاً اما الصديق فنام ملء عينيه بمجرد أن وضع رأسه على الوسادة. وفي منتصف الليل بينما المريض يئن ويتألم أحس بحركة في فناء المنزل فظن أن صديقه يسير هناك، لكنه عندما نظر الى سريره وجده مستغرقاً في النوم. استغرب المريض لكنه تمالك نفسه. وبعد قليل أحس بحركة عند الباب فأدار رأسه وفغر فاه من الدهشة وهو يرى طفلا صغيراً ينظر اليه.

عجباً، انه وحيد في المنزل فكيف جاء الطفل ومن أين أقبل وباب الدرج مغلق من الداخل. وهل يمكن لمثل هذا الطفل أن يتسلق ويدخل في مثل هذا الوقت من الليل؟

نسي آلامه وتحامل على نفسه وشعر بقوة تغمره وتجعله يغادر السرير محني الظهر عندما رأى الطفل ينسحب الى الفناء. وألقى نظرة شاملة وتوقف بصره

على باب الغرفة الخشبية وعقدت الدهشة لسانه ولم يبد حراكاً، فقد رأى امرأة جالسة على الأرض وبيدها مروحة تروح بها على نار مشتعلة عليها قدر ينبعث منه دخان كثيف. وكان الطفل يلعب خلفها ويتسلق ظهرها وهي تحاول ابعاده عنها باليد الأخرى، ورفعت رأسها ونظرت اليه لكنها استمرت منهمكة في عملها بهدوء.

استمر ناظرا اليها متعجباً وكاد يصاب بلوثة لولا أن المرأة ظلت هادئة. وكان هدووءها باعثا على اطمئنانه فتشجع وكلمها: «من أنت وكيف جئت ومن أين أقبلت؟»

ولم يتلق رداً. وأعاد السؤال لكنها لم تجب.

وسألها اذا كانت من سكان المنزل فهزت رأسها بالايجاب وسألها عن مدة سكناها فرفعت يدها وأشارت بأصابعها الخمس. واستمر يسألها وهي تجيب عن بعض أسئلته بالاشارة فقط. وأخيراً قال لها بأنه صاحب المنزل وانه يسمح لها بالبقاء على أن لا تؤذيه ولا يؤذيها.

ولما عاد الى سريره أيقظ صديقه فهب من نومه مذعوراً ظاناً أن صديقه بحاجة اليه إلا أنه فوجىء بالمصاب واقفاً يخبره بما رأى فحاول أن يخفي رأسه تحت الوسادة.

وأخيراً وبعد الحاح رافقه الى الفناء فرأياها تختفي مع طفلها والموقد ولم يبق أي أثر لما شاهداه!.

جنية العقبة

عند منتصف الليل كان يسوق سيارته في طريقه الى مدينة عدن، وبينما هو قرب العطفة في طريق العقبة رأى امرأة تشير اليه بالوقوف فاستغرب وجود امرأة في ذلك المكان وفي هذا الوقت من الليل لكنه اقترب منها وأوقف سيارته وفتح لها الباب فصعدت وجلست بالقرب منه، وعندما وصل الى باب العقبة نظر الى الشرطي الواقف هناك ثم نظر أمامه وهو ما زال يسوق. أصابته الدهشة عندما لم يسمع حركة المرأة الجالسة منه فالتفت الى حيث كانت تجلس فلم يجدها ونظر الى المقعد الخلفي فلم يجدها هناك. يا للعجب، هل طارت المرأة في الهواء؟

أصابه رعب قاتل وأسرع يطوي الأرض تحت عجلات سيارته وكأن الشياطين تطارده حتى وصل الى عدن.



في طريق المطار

كان أحد السائقين قد اقترب بسيارته من العطفة القريبة من مطار خور مكسر في عدن. وتحت الشجرة التي تقع قرب العطفة رأى شيخاً يسير على قدميه فعطف عليه واقترب منه وطلب منه أن يصعد، لكنه رأى الشيخ يتلاشى وكأنه دخان فاستولى عليه خوف رهيب وأسرع بسيارته كالبرق ولم يقف إلا في مدينة الشيخ عثمان.

* * *

في الملاح

في ليلة مظلمة كان سائق السيارة يسير في طريق الملاح فرأى شخصاً يشير اليه بالوقوف ولما اقترب منه رآه يطول ويطول والسائق فاغر فاه من الرعب، فلم يستطع أن يحرك سيارته. واستمر الشخص يطول ويرتفع تدريجياً حتى صار كالاعصار. فطارت نفس السائق شعاعا واستمد من خوفه قوة وانطلق بسيارته وكأن الشياطين تطارده.

* * *

الشرطي

بينما كان الرجل عائداً الى منزله في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل مر من شارع حسن علي خلف شارع محمد علي لقمان مباشرة في مدينة عدن، وعندما وصل الى ركن بناية استلفت نظره شخص يتحرك ثم يجري نحوه رافعاً يديه صارخاً بصوت مخنوق. ولما أمعن النظر وجده من رجال الشرطة بالملابس الرسمية فاقترب منه وسمعه يتكلم بصوت مبحوح مشيراً الى الركن الآخر من الشارع ويقول « جنية، جنية، هناك، هناك، جنية! »

واندهش الرجل من حالة الشرطي ونظر الى المكان الذي أشار اليه فرأى امرأة واقفة هناك تنظر اليها. كان القمر بدرا والسماء صافية، وكانت المرأة تظهر بوضوح فقال للشرطي: «انها امرأة يا أخي فما الذي يدعوك الى الخوف؟ »

وقال الشرطي: « انها جنية وكانت تشير اليّ وأنا أمر من هناك »

وابتسم الرجل وأمسك بالشرطي وطلب منه أن يسير معه فرفض الشرطي وأقسم يمينا بأن يقدم استقالته من عمله في صباح الغد، لكن الرجل الح عليه وهو يحاول أن يبعث الاطمئنان الى نفسه فوافق الشرطي بشرط أن يمسك الرجل بيده اليمنى لأن الجنية ستكون الى يسار الرجل.

ولما وصلا الى حيث كانت المرأة كانت أنظارها مركزة عليها وهي تنظر اليها. ولما صارا على بعد خطوات منها اختفت عن أنظارها وكأن الأرض ابتلعتها.

وكاد الاثنان يجنان من الرعب، وأطلق كل منهما لساقيه العنان يسابقان الريح.



قط الجامع الأزهر

قال لي مرشد عدن الديني صاحب الفضيلة الشيخ علي بن محمد بأحميش يرحمه الله إنه لما كان طالباً في الجامع الأزهر الشريف بالقاهرة سمع من أساتذته الشيخ حسب النبي والشيخ محمد عبد المتعال والشيخ عثمان زايد هذه القصة التي تروى عن شيخ الإسلام الباجوري:

عندما كان الشيخ الباجوري يلقي الدروس على طلبته كانت بعض القطط تقبع ساكنة قرب حلقة الدرس وكأنها تنصت إلى تلك الدروس. وجاءه ذات يوم رجل فقير من معارفه يصحبه غلام صغير وقال للشيخ انه ينوي السفر وبما أنه لا يستطيع الإستمرار في الإنفاق على الغلام الذي كان يربيه فإنه يسلمه للشيخ ليكون في رعايته وانه يرجو من الله ان يتكفل برزقه. فقبل الشيخ إيواء الولد الفقير وتعليمه رغم أنه هو نفسه كان فقيراً.

وبعد مدة قصيرة وجد الشيخ نفسه وقد ضاقت به الحال فلم يجد ما يمكّنه من الإستمرار في الإنفاق على الولد. وجلس يوماً يفكر ورأى القطط أمامه وكأنها تطلب منه ما تأكله فخاطبها مبتسماً انه لا يجد ما ينفقه على الولد فكيف يجد ما ينفقه عليها وأنه يرجو من الله أن يهبه رزقاً حلالاً.

لم يكن الشيخ قد خامره أي فكر بشأن القطط غير إنها حيوانات الفت هذا المكان واستمرت على التردد عليه. وإنه عندما خاطبها فقد فعل ذلك مبتسماً ظناً منه انه إنما يخاطب حيوانات عجماء على سبيل المزاح. وبعد وقت قصير من نطقه بتلك الكلمات العابرة رأى الشيخ أحد القطط يقبل نحوه وبين أنيابه شيء رمى به في حضن الشيخ.

عندما ألقى الشيخ نظره على ذلك الشيء وجده كيساً صغيراً ما أن فتحه حتى وجده ممتلئاً بالقطع الذهبية. وبلغ إستغراب الشيخ أقصاه ونظر إلى القط متفحصاً ثم نادى أحد جلسائه ودفع إليه بالكيس وطلب منه ان يصرف القطع الذهبية ويشتري بها أرضاً يعيش منها الطفل لانها رزقه الذي أرسل به الله إليه.

ذهب الرجل إلى حانوت صائغ يهودي يقع في منطقة حي الأزهر. ولما رأى اليهودي الكيس والقطع الذهبية هبّ كالملسوع وسأل الرجل عن المصدر الذي جاء منه بالكيس. ولما أجابه بأن شيخ الإسلام سلمه الكيس لم يصدق كلامه واستدعى الشرطة متهماً الرجل بسرقة الكيس من خزانته. وفي قسم الشرطة أكد الرجل أن شيخ الإسلام الباجوري هو الذي سلمه الكيس ليصرف ما فيه. وتشكك الشرطة في صحة أقوال الرجل لأن لشيخ الاسلام يمكن أن يكون هو الذي أخذ الكيس من خزانة الصائغ اليهودي، ومع ذلك فقد إتصل القسم بالشيخ الباجوري للتأكد من صحة أقوال المتهم.

فوجيء شيخ الإسلام لكنه أقر بأنه سلم الكيس للرجل. وعندما سأله ضابط الشرطة عن الطريقة التي حصل بها على الكيس أجابه بأنه سيتحرى ويخبرهم بنتيجة بحثه.

وذهب الشيخ إلى الأزهر يبحث عن القط فلما وجده في أحد الأروقة التفت إليه وقال له: «إذا كنت من الجن فيجب أن تخبرني من أين جئت بالكيس فإنني ما طلبت للطفل رزقاً حراماً بل حلالاً».

ولدهشة الشيخ نطق القط وأجاب قائلاً: «أنا جني مسلم شافعي المذهب تشكلت بصورة قط لإستمع إلى دروسك مع بقية الطلبة. أما الكيس وما فيه من ذهب فملك للطفل، وهو حقه الذي ورثه عن أحد أجداده، انه أرث بقي مجهولاً لا يعلم به أحد».

وسأله الشيخ الباجوري مندهشاً: «وكيف صار إليه الأرث».

فقال القط: «إن أحد أجداد الطفل كان ينوي السفر إلى الأراضي المقدسة

ليؤدي فريضة الحج، وكان يملك ثلاثة أكياس ممتلئة بالذهب ولم يكن له غير زوجة وابن في الشهر الخامس من العمر فذهب إلى جار يهودي صائغ أودع الأكياس عنده ومعه شاهدان يهوديان».

وذكر القط إسم اليوم وعيّن التاريخ وأسماء جد الطفل واليهوديين واليهودي جد الصائغ.

ولما علم الشيخ بهذه التفاصيل ذهب إلى القسم واصطحب معه بعض جلسائه وضابط القسم إلى حانوت اليهودي وطلب منه أن يخبره عن المصدر الذي أتى بالأكياس الثلاثة منه، فأجابه اليهودي انه ورثها عن والده وأنها مسجلة في دفاتره، فطلب منه الشيخ أن يحضر الدفاتر ليراجعها معه. وقبل أن يسرد اليهودي التفاصيل أوقفه الشيخ وقال له بأنه سيتكلم أولاً وعليه أن يراجع الدفاتر.

سأله: «هل وضع فلان الأكياس عند جدك فلان»؟ وأجابه اليهودي: «نعم».

وسأله: «هل حدث ذلك بمناسبة سفر فلان يوم كذا الى الحج»؟ وأجابه اليهودي «نعم».

وسأله: «هل كان فلان وفلان شاهدين»؟ وأجابه اليهودي «نعم».

واستمر الشيخ يسرد بقية التفاصيل واليهودي يجدها متفقة وما في دفاتره، وعندما إنتهى الشيخ من ذلك أضاف بأن الطفل هو الوارث الوحيد لتلك الأكياس التي أودعها جده الثاني فلان عند جد اليهودي الصائغ، وطلب منه إعادة الامانة إلى صاحبها. وكان اليهودي يفتح فمه دهشة عند كل سؤال وزاد عجبه عندما علم المصدر الذي حصل منه الشيخ على التفاصيل، وأعاد الامانة إلى صاحبها ووضع يده بيد الشيخ معْلناً إسلامه.

وبهذه المناسبة أذكر أن اصدقاء مصريين ذكروا لي أن حارساً في منزلهم قال لهم إنه في شبابه كان يسكن مع جماعة من أهل بلدته في منطقة فم الخليج بالمنيل

بالقاهرة. وأن واحداً منهم كان يعيش فيه مع زوجته في غرفة خاصة بها. وكانا حين يتناولان الطعام يجدان قطاً يتمسح بهما فيقدمان له مما يأكلان. ولاحظ الزوج أن القط يطيل النظر إلى الزوجة ويطيل البقاء معهما.

وفي أحد الأيام قدم للقط سمكة أكلها بسرعة وبقي في الغرفة مركزاً أنظاره على المرأة.

وهنا التفت إليه الزوج وقال مازحاً: «أنت بتبص كده ليه؟ بتحبها؟ إذا كنت عايزها خدها!».

وفي أقل من غمضة عين اختفى القط والزوجة ولم يبق لهما أثر.

وكان مصير الزوج المسكين مستشفى المجانين.

أهل النار

في غرفة واسعة مفروشة جلس الشيخ عبد الرحمن المدني فوق سجادة عجمية ثمينة متكئاً على عدد من الوسائد بينما كانت زوجته تفرش السريرين القائمين في أحد أركانْ الغرفة وتنظم الوسائد عليهما.. وقالت له: «ما هو قرارك الأخير يا عبد الرحمن؟»

وأجابها زوجها: «العزم على السفر. بعد غد إن شاء الله. ولن أتغيب طويلاً فأنت تعلمين أن أعمالي هنا كثيرة وليس من يقوم مقامي».

وقالت زوجته: «وكم تظن سوف يطول غيابك عنا؟».

فأجابها مفكراً: «لا أدري على وجه التحديد. ربما غبت شهراً أو شهرين وربما ثلاثة».

وقالت: «وما قررت بشأن المال؟».

وقال: «آه، العشرة آلاف دينار. نعم، لقد عزمت على أن أضعها وديعة عند الشيخ فخر الدين الخراساني».

وقالت زوجته: «نِعْمَ الرجل. فقد اشتهر الخراساني بالتقوى والامانة. هل اتصلت به».

وقال: «لا لم أفعل بعد. سوف أتصل به غداً إن شاء الله».

وفي اليوم التالي بينما كان الخراساني في ديوانه دخل عليه خادمه يخبره بأن صديقه عبد الرحمن المدني بالباب فإذن له بالدخول في الحال. ودخل المدني. وبعد أن تبادلا التحية قال الخراساني: «بلغني أنك موشك على السفر. فمتى يكون؟».

وقال المدني: « سوف أسافر غداً أو بعد غد. ولأجل هذا جئت أزورك اليوم »

وقال الخراساني: « خيراً إن شاء الله ».

وقال المدني: « إنني كما تعلم ذو مال وعيال من زوجة توفاها الله ومن اخرى لا تزال في عصمتي. وأخشى إن أنا وضعت المال في المنزل أن يتنازع الأولاد ويحصل الشقاق وفيهم النساء والأولاد القصر. ولهذا عزمت على الإحتفاظ بمالي وديعة عندك حتى أعود من السفر أو تشرف على تقسيمه بينهم إن جرى عليّ أمر الله.

وقال الخراساني: « سيكون مالك في مأمن عندي يا عبد الرحمن. كم هو؟ »

وأجاب المدني «عشرة آلاف دينار». وأخرج كيساً كبيراً دفعه إلى الخراساني فتسلمه منه ثم عدَّ ما فيه وبعد قليل ودعه إلى الباب.

وفي اليوم التالي سافر عبد الرحمن المدني مطمئن البال على ماله. وبعد شهرين عاد من السفر. وفي منزله علم أن الخراساني قد توفاه الله بعد شهر من سفره فأسف عليه كثيراً وقرر أن يذهب في اليوم التالي إلى أولاده لتعزيتهم وليسألهم عن الوديعة. ولما ذهب وسألهم عنها أجابوه جميعاً إنهم لا يعرفون شيئاً عنها لأن والدهم لم يخبرهم بشيء عنها قبل وفاته.

وكانت صدمة قاسية للمدني. وحاول أن يسأل أهل البيت لعلهم يعرفون لكنهم أجابوه بالنفي. وغادر المدني بيت الخراساني وقلبه يدق بعنف شديد وهو لا يكاد يصد أن ماله قد ضاع منه.. وأخبر زوجته بما حدث فبهتت وحزنت للخبر المذهل ومضى الإثنان يقلبان الرأي. وبعد قليل قالت له: « إنني أعلم أن جماعة من الزهاد والفقهاء يجلسون في حلقات في الحرم الملكي الشريف فلماذا لا تذهب إلى بعضهم وتسألهم المشورة. فلربما وجدت عندهم حلا. ووافق المدني على رأي زوجته وأسرع إلى الحرم المكي ودله بعض الناس على جماعة الزهاد رأى بينهم رجلاً طاعناً في السن تقدم منه وسلم عليه ثم قال له: « إنني أطلب منك الرأي والنصيحة يا سيدنا الشيخ ».

وأجابه الزاهد: « الدين النصحية يا ولدي، قل ما شئت ».

فقال المدني بصوت حزين: « منذ شهرين قررت السفر في بعض أعمالي ووضعت مبلغاً من المال وديعة لدى المرحوم فخر الدين الخراساني ولما عدت من السفر علمت بوفاته فتقدمت إلى أولاده وأهل بيته معزياً وسائلاً عن الوديعة فأجابوني إنهم لا يعرفون عنها شيئاً. وأنا الآن في حيرة من أمري ».

وفكر الزاهد وتبادل النظر مع أصحابه ثم قال: « يا ولدي. لقد كان الخراساني من أهل الخير والأمانة. لذلك أنصحك أن لا تنام الليلة بل أبق ساهراً حتى إذا انقضى من الليل ثلثه أو نصفه أذهب إلى بئر زمزم وتطلع فيه برأسك ونادِ بأعلى صوتك (يا فخر الدين الخراساني، أنا عبد الرحمن المدني صاحب الوديعة فما فعلت بها)؟

وشكره المدني وعاد إلى بيته وقد عاوده الأمل في إسترجاع ماله. ولم ينم تلك الليلة بل بقي ساهراً. ولما إنقضى ثلث الليل غادر منزله إلى بئر زمزم، ووقف على الحاجز وأطل برأسه إلى أسفل وصاح بصوت فيه أمل ورجاء: « يا فخر الدين الخراساني، أنا عبد الرحمن المدني صاحب الوديعة فما فعلت بها ».

ولم يجبه أحد. وبعد قليل نادى مرة ثانية لكنه لم يتلق جواباً. ومرت لحظات ونادى مرة ثالثة ولكن الصمت الرهيب كان جوابه. فبكى وأيقن ان ماله الذي تعب العمر في جمعه قد ضاع منه في لحظات. وفي اليوم التالي ذهب إلى الزاهد وأخبره بما حصل، وقال الزاهد: « إنا لله وإنا إليه لراجعون. لقد كنا نرى فخر الدين من أهل الجنة ونخشى أن يكون من أهل النار ».

وقال المدني: « وما العمل يا سيدي »؟

وفكر الزاهد قليلاً ثم قال: « سر إلى جبل في عدن يقال له « صيرة ». وفي قمته بئر تسكنه أرواح أهل النار. وحينما تصل تطلع في البئر إذا مضى من الليل ثلثه أو نصفه ونادِ بأعلى صوتك مثل ما ناديت عند بئر زمزم. وشكر المدني الزهاد وشيخهم ومضى إلى داره وأخبر زوجته بما جرى. وبعد أسبوع

غادر مكة المكرمة مع قافلة إلى عدن. وكان السفر شاقاً وطويلاً لكنه تحمله بصبر وعزم. وفي عدن كلّم بعض الناس على جبل صيرة فأستأجر رجلين من صيادي السمك ليسيرا معه في طريق الجبل. وقبل منتصف الليل كان المدني قد وصل فطلب منهما الإبتعاد ثم تقدم وحده وتطلع في البئر وصاح: « يا فخر الدين الخراساني، أنا عبد الرحمن المدني صاحب الوديعة فما فعلت بها؟ »

وفي الحال سمع أصواتاً تشبه الحفيف صادرة من البئر وجاء صوت كأنه لرجل قادم من بعيد: « من أنت؟.. من أنت؟.. ما هذا العذاب؟ »

وإرتعد المدني من الخوف وقال: « أنا المدني صاحب الوديعة فما فعلت بها »؟

وجاء الصوت من البئر: « هي على حالها. لم ائتمن عليها أولادي وأهلي فدفنتها في الركن الأيمن من غرفة نومي. قل لأولادي أن يدخلوك ثم أحفر ذلك الموضع وستجد المال على حاله ».

وقال المدني وقد امتلأ فرحاً: « شكراً لله فقد إطمأنت نفسي ». وبعد قليل سمع أنيناً من البئر فقال: « ويحك يا فخر الدين ما الذي أنزلك هنا وقد كنت من أهل الخير والصلاح ». فجاءه الصوت الحزين: « كان لي أهل وقرابة في خراسان فقطعتهم ولم أصلهم أو أساعدهم حتى توفاني الله فأخذني على اهمالي لأرحامي وأنزلني هذه المنزلة. أدع لي يا عبد الرحمن وأطلب لي من الله المغفرة.

وعاد المدني إلى مكة المكرمة فوجد ماله على حاله لم ينقص منه شيء.

وقبل أن يعود إلى منزله مر على المحتاجين من أهله وأرحامه وقدم لهم المساعدة وقرر للعاجزين منهم ما يساعدهم فيما تبقى من حياتهم.

ابن الشيطان

كان الفقيه العالم أبو الفرج عبد الرحمن بن المصوغ من بيت علم. وإلى جانب ولعه بالأدب واشتغاله بالتجارة كان كثير العبادة. وفي أحد الأيام عاد إلى منزله بعد أن صلى العشاء في المسجد فرأى زوجته متطيبة فطلبها فتمنعت ولم تُجْدِ محاولاته المتكررة في إغرائها فذهب إلى فراشه ونام. وبينما هو نائم تيقظ فجأة ليراها تدهن رجليه فابتسم وجذبها إليه. لكنها ابتعدت عنه وهي تقول « تكفي مرة واحدة »!

وظنها تمازحه وقال: « تقولين تكفي مرة واحدة. وكنت مستغرقاً في النوم! »

وظنته يمازحها وقالت: « حقاً، لقد كنت نائماً، بجانبي، ولم يكن نوماً »!

واستولت عليه الذهشة وقال « هل أنت جادة يا امرأة؟ لقد نمت فعلا بعد تمنعك »

وصاحت في وجهه: « ولكنك عدت »!

وقال مؤكداً: « كلا لم أعد »!

واضطربت أعصابه. ورأت زوجته انه جاد بتملكها الرعب. اما هو فقد تشوش من كلامها وذهب إلى مكتبه وسجل تاريخ تلك الليلة ولم يقل لها شيئاً. وامتنع عنها في انتظار ما تتمخض عنه الأيام. ولم تمض أشهر حتى بدأت بطنها في الانتفاخ. وخاطب الفقيه نفسه: « إنها حامل، ولكن مِن مَن »؟

ولما انتهت التسعة الأشهر وضعت مولوداً ذكراً. وقد اثبتت الأيام ان الصبي لم يكن له شبيه في الشيطنة خصوصاً في أوقات الصلاة. فقد كان كثير البول على من حمله لا سيما إذا كان الشخص من أهل الطهارة. وكان إذا تُرِك في موضع

الصلاة بال فيه. وأدرك الفقيه أن الشيطان قد سبقه في الوصول إلى امرأته تلك الليلة وان الصبي كان ابن الشيطان!

واستمر الطفل على حالته تلك حتى عندما بدأ يمشي وانفطم من الرضاع. وفي أحد الأيام كان الفقيه قائماً يصلي الضحى والطفل جالس قبالة طاقة من طاقة المجلس. وفجأة سمع همهمة خارج النافذة ورأى الطفل يتنبه. وخلال الهمهمة جاء صوت بدا خافتاً ثم ارتفع: «قدار، قدار، قدار».

وتوقف الفقيه عن الصلاة ونظر إلى الطفل وهو يتكلم بصوت فصيح «لبيك لبيك»

وجاء الصوت الخفي: «كيف أنت يا قدار»

فأجاب الطفل: «بخير وعلى خير.. يكرمونني ويغذونني جيداً».

وجاء الصوت الخفي: «لا تكن إلا كما أعرف. لا تتركهم يصلون. ولا تترك لهم موضعاً طاهراً ولا ثوباً طاهراً حسبما أشكرك».

وقال الطفل: «السمع والطاعة».

وانتهى الحوار، وواصل الفقيه صلاته. فلما انتهى منها قال: «يا قدار، اذهب، أذهبك الله».

وفي الحال نقر الطفل وكأنه طائر وخرج من تلك الطاقة التي حدثه منها الشخص الخفي. وبعد حين دخلت الزوجة إلى المجلس فلم تر الطفل فخاطبت زوجها «أين الطفل»؟

ورد عليها زوجها: «إنه طفل عجيب». ثم وصف لها ما رأى وما سمع ووجها يصفر من الرعب وقالت: «لو قلت لي بحقيقته يوم ولدته كنت قتلته».

فقال الفقيه: «لقد كفانا الله شره»!

ومضت سنوات.. وفي أحد الايام عزم الفقيه على السفر إلى عدن ليبيع شيئاً من الفوّة التي يزرعها في أرضه. ولما وصل إلى المفاليس حط في الجمرك وقابله

الحراس الذين يجبون العشور وكان معهم شاب جميل المنظر حسن الوجه. فلما رأى الفقيه سلم عليه سلاماً حسناً ورحب به ثم أمر العشارين بإعفائه من الرسوم. ثم أخذ الفقيه إلى منزله وأكرمه وتردد عليه كثيراً يقضي حوائجه ويأمر أصحابه بخدمته ويقول لهم: «هذا رجل صالح جدير بنا أن نخدمه».

وكان الفقيه مندهشاً من المعاملة الممتازة التي يلقاها من الشاب ولا يعرف لها سبباً. وسأل أحد العشارين عنه فقال العشار: «إن الشاب نقيب العشارين وهو ظالم لم يعمل معروفاً لأحد إلا معك».

ثم رحل الفقيه إلى عدن وباع بضاعته واشترى ما يحتاجه في قريته. ولما وصل إلى المفاليس عامله نقيب العشارين نفس المعاملة الممتازة التي لقيها منه في المرة الماضية.. وكان الفقيه ما زال في عجب يتساءل عن سبب لما يلقاه من الشاب فقال له «أيها الشاب، إني شاكر لك ما تقدمه لي من الخدمة والمساعدة ولكني لا أستطيع أن أفهم لم استحققت منك هذه الموالاة؟».

وابتسم الشاب وقال: «يا سيدي، لك عليّ حقوق كثيرة.. ألا تعرفني؟».
واستغرب الفقيه وقال «لا والله ما عرفتك»!
فقال الشاب: «أنا عبدك قدار»!

وبهت الفقيه وتصاعدت الدماء إلى رأسه وصرخ دون وعي: «أنت.. أنت قدار.. ابن الشـ ...».

وأجابه قدار بهدوء: «نعم أنا قدار، ولست أنكر مالك علي من حقوق. ولو كنت أعلم انك تقبل ضيافتي أضفتك».

ثم أخرج سلتين من تحت السرير قدمها للفقيه قائلاً: «أحب أن تحمل هاتين السلتين هدية لوالدتي. في إحداها كسوة وفي الثانية طيب».
ولم يشأ الفقيه أن يكسر خاطر قدار فأخذا السلتين منه.
ولما عاد إلى منزله أخبر زوجته بما جرى له مع قدار فعجبت من ذلك وحملت

السلتين وشمت رائحة الطيب، وتذكرت تلك الليلة التي كانت متطيبة فيها واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم.

ثم أوقدت النار وألقت بالسلتين فيها!

الملك المجاهد وأخوه الجني

خرجت الجارية «نخبة» إلى حيث تقف سيدتها وقالت: «مولاتي، اطلبي من سيدي المجاهد ان يترفق بنفسه فإنه لم ينم منذ ليلة البارحة ولم يتناول من الطعام إلا أقله».

وأجابتها سيدتها وقد وضح العزم في ملامحها الجميلة: «إنها الحرب يا نخبة، إنها الحياة أو الموت. فأما أن يعيش شريفاً أو يموت شريفاً»

وقالت نخبة: «أود لو افتديه بروحي يا سيدتي».

وقالت سيدتها: «إنني امه يا نخبة. وأن كبدي ليتقطع حزناً وأسى على ما يقاسيه من التعب، ولكني مع ذلك لن أطلب منه ان يستريح لأنني لو فعلت ذلك فإما أن يعصي امري وهو كما تعلمين لم يعص لي أمراً وإما أن يخضع لي فأكون قد قضيت عليه اما بالموت الاكيد أو بالعيش الذليل».

كانت الحجارة الضخمة تتساقط على حصن تعز فتدك جدرانه دكاً، وكانت صيحات الجند المدافعين ترتفع مختلطة بأصوات النساء والأطفال من أهل الملك المجاهد علي ابن المؤيد داؤود ابن المظفر يوسف ابن المنصور عمر بن علي رسول. وكان المجاهد يتنقل بين الجند يحثهم على الصبر والثبات أمام الهجمات القوية التي يشنها عليه أنصار خصمه الملك الظاهر عبد الله بن المنصور أيوب بن يوسف بن عمر بن علي رسول.

وقفت امه الادار الكريمة «جهة صلاح» «تنظر إلى السماء وتدعو لابنها المجاهد بالنصر. وفجأة سقطت حجرة ضخمة أمامها فصرخت نخبة من الرعب وحاولت ان تسحب سيدتها إلى غرفتها، ولكن ام المجاهد استمرت واقفة تنظر

إلى الحجارة والسهام التي أخذت تهبط على الحصن فتقتل من تقتل وتجرح من تجرح من الحراس المدافعين.

وقالت: «اذهبي يا نخبة واخبري النساء والأطفال ان لا يتحركوا من غرفهم حتى لا تصيبهم الحجارة والسهام وابعثي لي خادمي الطواشي صلاح.

وذهبت نخبة. وبعد قليل اقبل الطواشي صلاح ابو السعود شهاب الدين بن عبد الله المؤيدي الذي كان وصيفاً خاصاً للادار الكريمة أم المجاهد التي كان الناس لا يسمونها باسمها احتراماً للتقاليد بل يدعونها جهة صلاح – أي الجهة التي يأتي منها صلاح. وقف صلاح امامها فرأت التراب يملأ وجهه ويديه وملابسه والدماء تنزف منه فيمسحها بخرقة في يده. وسألته: «ما الأخبار يا صلاح؟ أراك قد جُرحت»

فأجاب: «إنه جرح سطحي يا مولاتي. لقد اصابتني شظية من حجرة وقعة قريبة مني».

وقالت: «وكيف حال المدافعين عن الحصن؟».

وأجاب: «القتلى قليلون لكن الجرحى كثيرون». قالت «ومولاك؟».

وأجاب: «إنه أسد هصور لم يترك قوسه منذ أن بدأ الهجوم على الحصن، فهو يتنقل بين الجند يحثهم على الثبات فيستمدون الشجاعة من ثباته».

وقالت: «كنت يا صلاح أظن الهجوم قد فتر لكنني أراه اليوم قد اشتد».

وأجاب: «إنه ذلك المملوك الرومي عمر بن بالبال الدويدار».

وقالت: «ماذا فعل ابن الدويدار. كنت أظنه لا يزال في لحج وعدن وابين».

وأجاب: «لقد جاء من هناك في عسكر كثيف إلى تعز وها هو يشترك في حصارنا مع ابن حسين باسم الملك الظاهر».

وقالت: «يا له من ماكر شديد الطمع واسع الحيلة شجاع في الحرب. وددت لو كان معنا».

وقال: «لقد أمر ابن الدويدار بنقل المنجنيق من عدن إلى تعز فأرسل

بقواعد المنجنيق الخشبية عن طريق البحر إلى موزع وأرسل ببقية الآلة على أكتاف الرجال براً ».

وقالت: « وأين وضع المنجنيق العدني؟ ».

وأجاب: أمام الحصن، في موضع المدرستين المجاهدية والأفضلية. وقد بدأ يستعمله منذ أمس وها هو يمطرنا بوابل من الحجارة بلغت أربعين أمس ».

وقالت: « وأين الطواشي جمال الدين بارع والطواشي أمين الدين أهيف، إني لا أراهما ».

وأجاب: « إنهما يحرسان باب الحصن مع الطواشي صفي الدين جوهر الرضواني والطواشي أمير الدين خضير.

وفجأة انبعث صراخ عنيف من خارج الحصن فتوترت أعصاب الادار وقالت: « ما هذه الضجة يا صلاح. أخشى أن يكونوا قد بدأوا الهجوم الأخير علينا. اذهب وانظر ».

وأخرج الطواشي صلاح سيفه من غمده وأسرع يجري إلى الناحية التي يقف فيها الملك المجاهد ورأى بجانبه الغياث بن نور الشيباني فانقبضت نفس صلاح وانحنى أمام المجاهد الذي قال له: « كنا نبحث عنك يا صلاح. أين كنت »؟.

وأجاب صلاح: « كنت مع الادار الكريمة أشرح لها الموقف ثم بعثت بي لأعرف سبب هذه الضجة ».

وقال الملك: « جاءنا من يقول أن منجنيق ابن حسين قد تعطل وتساقط بعض آلاته على العسكر وان ابن حسين قد قرر أن يطلب من الظاهر في الدملوءة ان يبعث لهم بمنجنيق آخر. وفي هذه الأثناء سيحاولون إصلاح المنجنيق المعطل ».

وقال صلاح: « إن لدينا من السلاح والاقوات والمال ما يساعدنا على الاستمرار في الدفاع مدة طويلة ولكن يا مولاي علينا أن ننظر بحذر حتى لا يكون أحد الخونة قد اندس بيننا متلبساً بزي المخلصين ».

ولم يكد صلاح ينتهي من كلامه حتى نظر إليه الغياث بحقد ولكنه لم يقل شيئاً. والتفت الملك نحو الغياث وسأله: « ما رأيك في الموقف يا غياث »؟.

وأجاب الغياث: « الحصار شديد يا مولاي ويستطيع كل واحد منا أن يلاحظ الفتور في دفاع الجند عن حصن تعز هذا بسبب كثرة الجرحى بينهم. فما رأى مولانا لو سمح لي بالخروج من الحصن لأدبر ما قد ينفع في عرقلة المهاجمين والتخفيف من قوة الحصار وحتى أرسل الكتب إلى أمراء النواحي التابعة لمولانا ليرسلوا لنا بالامدادات من الرجال والعتاد ».

وأجابه المجاهد: « فلتفعل إذا كنت واثقاً من قدرتك على العمل ».

وانحنى الغياث امام المجاهد وخرج من الحصن في وقت هدأت فيه المنجنيقات ومضت أيام والمعارك مستمرة والحصار يشتد أحياناً ويفتر أحياناً. وتسلل أحد الجند إلى داخل الحصن ووقف أمام المجاهد وهو يلهث. وسأله: « ما وراؤك من أخبار »؟.

فأجاب الجندي: « علمت يا مولاي ان الغياث اجتمع في المدرسة الأفضلية بابن حسين وابن الدويدار ثم ذهب إلى الظاهر وحلف له إنه ناصح مجتهد في خدمته فأحسن إليه الظاهر وأرسل معه المنجنيق. وقد وصل الغياث منذ وقت قصير ومعه الافتخار ياقوت ».

هنا انبرى الطواشي صلاح وقال غاضباً: « الخائن الخبيث العاق. كنت أحس بما يدبره المنافق ».

وفي العشية قدمت نخبة للمجاهد طهوره فتوضأ واقتربت منه امه تنظر إليه بحنان وإعجاب.. وفجأة مزقت سكون الليل أصوات المنجنيقات وهي تقذف بالحجارة بقوة وبسرعة فابتعد الحاضرون إلا المجاهد الذي ثبت في مكانه.

وسمع الجميع صرخة عالية وراء المجاهد فالتفتوا إلى الناحية التي جاءت منها الصرخة فرأوا الجدار ينشق ويخرج منه غلام تام الخلقة وله دبوقة إلى آخر ظهره فأكب على المجاهد واعتنقه وحمله بسرعة خاطفة إلى موضع آخر. وفي

الحال وقع حجر ضخم في نفس الموضع الذي كان يقف فيه المجاهد.

وفزع الحاضرون وطارت عقولهم..

والتفت المجاهد إلى الغلام وخاطبه مندهشاً من منظره: «من أنت يا أخي الذي أرسل بك الله إليّ».

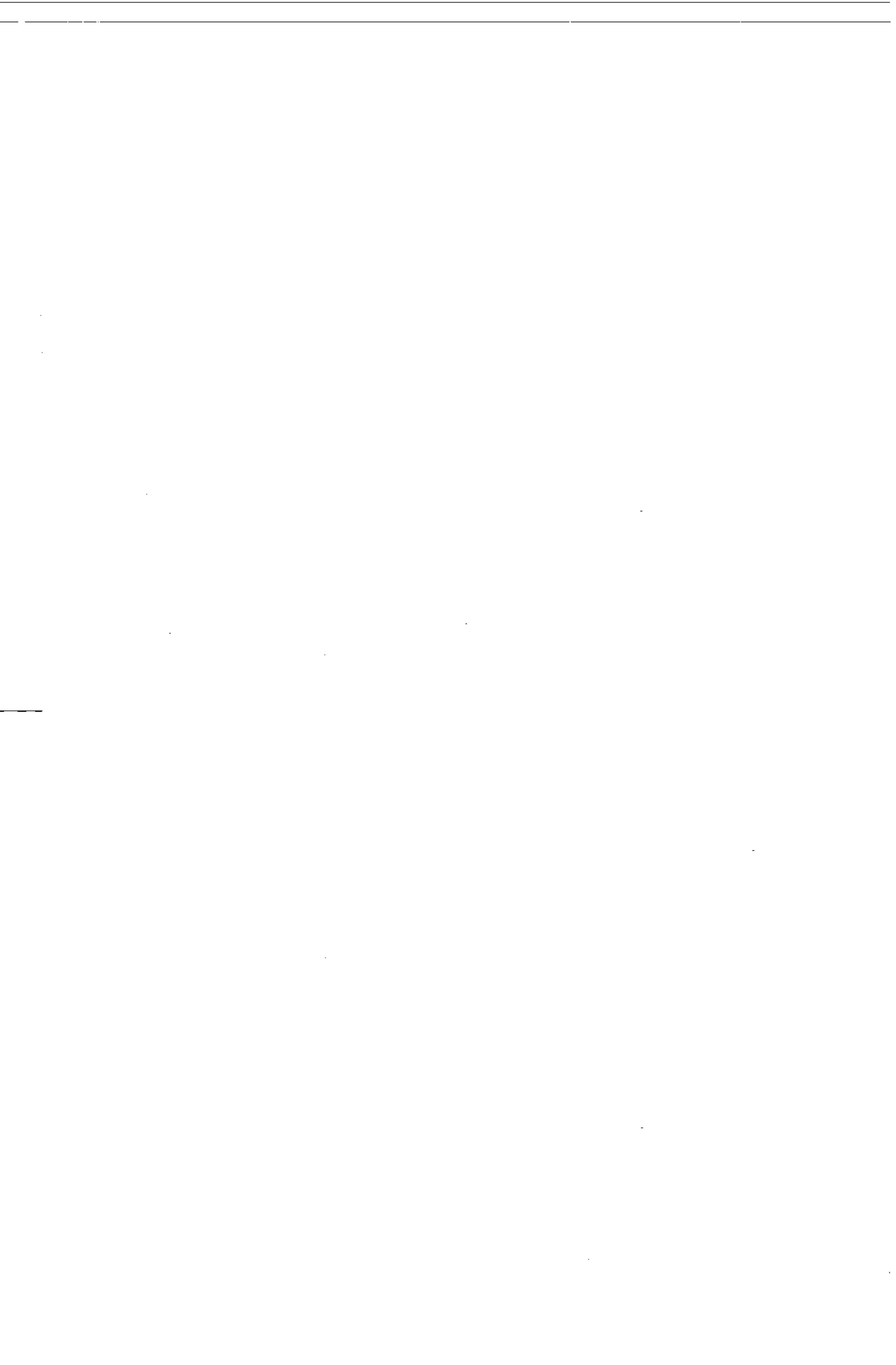
فقال الغلام: «أنا والله اخوك وأبي والله أبوك داؤود المؤيد وأمي الجارية «فن» ولكن الجن أخذوني من بطن امي وصرت كما ترى. ولما رأيت أن هذه الحجرة قاتلتك لا محالة حملتك محبة لك وشفقة عليك. وأبشرك إنني وزملائي سنقاتل معك في العاشر من شوال ٧٢٤ فأجمع ما معك لذلك اليوم فإننا سنبلغ ما نريد من نصر».

واختفى الغلام كما ظهر.

وأقبلت الادار طائرة العقل على ابنها وجلست عنده تستخبره عن الغلام فأخبرها بما قال ثم سألها عن الجارية «فن» فقالت امه: «صدق والله فلقد كانت فن جارية أبيك وكانت حاملة منه فلما أشرفت على الولادة أصبحت يوماً وقد مسح الجنين من بطنها ولم يظهر لحملها علامة».

وقال المجاهد: «يرحمها الله... لقد جاء ابنها في وقت الحاجة إليه».

وكان الملك المجاهد قد بعث رسالة إلى سلطان مصر محمد بن قلاوون طالباً منه النجدة فأرسل السلطان، فيما يقال، ألفين من الفرسان وألفين من المشاة ترافقهم إثنا عشر ألف جمل محملين بالزاد والعتاد والأموال. واضطرب عسكر ابن الدويدار خاصة وإنه كان قد منع عنهم المصروفات فانسحبوا من تعز. وارتفع الحصار عن حصن تعز



الأولياء والكرامات

« الولاية » صفة يطلقها الناس على المشهورين بالصلاح فيقولون « ولي الله فلان ». وحقيقتها الشرعية الايمان والعمل الصالح لقوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ولم تكن الولاية معروفة في صدر الاسلام لأي شخص بعينه. وإنما كان يقال: « الرجل الصالح والمرأة الصالحة ». ونحن عندما نقلب صفحات التاريخ لا نجد للأولياء - كما نعرفهم الآن - أي أثر حتى القرن السابع الهجري وذلك في أواخر دولة الأيوبيين في اليمن. ومن بعد الأيوبيين ازدهر مجد الأولياء وظهروا بكثرة في عصور بني رسول وبني طاهر والأتراك العثمانيين.

وفي القرآن الكريم ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور الى الظلمات﴾.

و« الموالاة » في اللغة معناها « المصادقة » لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ - أي « أصدقاء ».

والله وحده هو الذي يقرر من هو الولي الصالح الجدير برضوانه، أما نحن البشر فنخطىء ونصيب، وقد نعتبر ولياً من لا يستحق الولاية وقد لا نعتبر ولياً من يستحقها. فنحن لا نعرف حقيقة حال العبد مع المعبود، وقد ننخدع بما نراه من تظاهر شخص بالايمان والصلاح والتقوى، وقد لا يكون مخلصا في تصرفاته بل ربما انه تظاهر بها ليجتذب إليه الأنظار حتى يحيطه الناس بهالة من التقديس والتكريم.

أما الفرق بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وسحر الساحرين وشعوذة الحواة فيمكن القول ان المعجزة هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهر على يد نبي يتحدى بها الناس... والكرامة هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهر على يد عبد صالح على سبيل الصدفة وليس فيه تحدّ... والسحر هو الأمر الخارق للعادة وهو علم مكتسب... والشعبذة، أو الشعوذة - هي الأمر العادي الذي يخدع به صاحبه أعين النّاس اما بخفة اليد أو غفلة الرأي.

وفيما يلي قصص عن بعض الأولياء المشهورين عندنا وما يتداوله الناس عن كراماتهم وبعض هذه القصص يصل الى مرتبة الأساطير:

أبان بن عفّان

هو أبان بن عفان بن الحكم بن عثمان بن عفان، وكان عالما فقيها من التابعين... قال الذهبي يروي عن أبيه عن جماعة من المحدثين: «ما رأيت أعلم بحديث ولا أفقه من أبان». وقال يحيى القطان: «كان فقهاء المدينة المنورة عشرة من بينهم أبان».

وبنى أبان المسجد المعروف باسمه في عدن وتوفي بالمدينة المنورة سنة ١٠٥ هـ (٧٢٢ م) في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان. وخلف أبان ولدين هما الحَكَم وكثير.

وذكر المؤرخ البهاء الجندي ان الحَكَم بن أبان كان فقيها مشهورا من فقهاء التابعين، وكان قد امتحن بقضاء عدن، وكان مشهورا بالكرم ومسجده الذي يقف فيه هو مسجد أبيه الذي يعرف عند أهل عدن بمسجد أبان، وهو أحد مساجد عدن المشهورة بالبركة واستجابة الدعاء وقضاء الحوائج.

وذكر أحمد العجلي: «الحَكَم ثقة صاحب سنّة، كان اذا هدأت العيون وقف في البحر الى ركبتيه يصلي ويذكر الله ويقول: «أنا وحيتان البحر ودوابه نعبدك».

وقال يوسف بن يعقوب: «الحَكَم بن أبان سيد أهل اليمن».

وقال المديني عن ابن عيينة: «أتيت عدن فلم أرَ مثل الحَكَم بن أبان».

وحين بلغ الرابعة والثمانين من عمره توفي الحَكَم سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠م) في أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور السفاح. وخلف الحَكَم ابنه ابراهيم الذي

اشتهر باسم (العدني). وفي سنة ١٧٠ هـ أقبل على عدن الإمام أحمد بن حنبل وأقام في مسجد أبان ليأخذ العلم عن ابراهيم بن الحكم فلم يجده فقال لعمه كثير بن أبان «في سبيل الله الدريهات التي أنفقناها في قصد ابن أخيك ابراهيم».

وتدل زيارة الامام أحمد بن حنبل لابراهيم بن الحكَم بن أبان على ما كان يتمتع به ابراهيم من سمعة واسعة في علوم الفقه. وما زال تاريخ وفاته مجهولا، لكنه مات في عدن وقبر مع عمه كثير في مسجد أبان. وتقام زيارة لتخليد ذكراه في ١٥ شعبان من كل عام.

جوهر

هو البهاء جوهر بن عبد الله العدني الصوفي. عاش في عهد الملك المسعود بن اقسيس بن محمد بن أبي بكر بن أيوب آخر ملوك الأيوبيين في اليمن. وكان عبداً عتيقا متسببا في الخان في عدن يشتغل بتجارة القماش في دكان اشتهر بالبركة. فقد كان معروفا بالأمانة والنزاهة وحسن المعاملة حتى قيل ان كل من تعامل معه لا يخسر أبداً. وبنى جوهر المسجد المعروف باسمه في حارة جوهر في مدينة عدن.

وليس صحيحا ما يشاع من أن جوهر كان عبداً للسيد العيدروس، فإن جوهر مات قبل العيدروس بمائتين وثمانين سنة. وتوفي جوهر في سنة ٦٢١هـ (١٢٢٨م) وتقام زيارة لتخليد ذكراه مرة كل عام.

واشتهر مسجد جوهر بحلقات الذكر والتدريس. وكان القاضي العلامة محمد بن سعيد بن كبّن من بين زائري المسجد الدائمين وكذلك المؤرخ القاضي عبد الله بن مخرمة الذي ولد في بندر عدن سنة ٨٧٠هـ وتوفي فيها سنة ٩٤٤هـ ودفن في تربة جوهر الى جانب قبر جده لأمه القاضي محمد بن شكيل.

وفي سنة ١٨٦٣م جدد الهنود المسلمون في عدن مسجد جوهر.

وقد روى الراوون قصصاً طريفة عن جوهر نختار منها ما يلي:

جوهر والطائر الأخضر

كان جوهر رقيق القلب نبيل المشاعر يحب الفقراء ويحنو عليهم ويحسن إليهم ويجالسهم فأحبوه واحترموه والتفوا حوله. وكان في عدن شيخ من الصوفية اسمه

العارف بالله أبو حمران سعد الحداد الذي كان له مقام كبير بين الناس يستشيرونه في أمورهم ويستنيرون بآرائه ونصائحه في حل مشكلاتهم. وفي أحد الأيام انتشر بين الناس خبر أحدث عندهم حزنا عظيما، فقد أصيب أبو حمران بمرض مفاجىء أقعده في البيت. وتجمعوا حول البيت يستطلعون أخباره ويضرعون الى الله بأن يمن عليه بالشفاء. ودخل عليه بعض أصحابه المقربين فوجدوه قد اشتد به المرض وصار لا يدرك ما يجري حوله. واقترب أحدهم من وسادته وهمس في اذنه: «أوصِ، أوصِ، شفاك الله، من يكون الشيخ بعدك يا أبا حمران».

وتململ المريض وقال بصوت خفيض: «شيخكم بعدي هو الذي يقع الطائر الأخضر على رأسه في اليوم الثالث من وفاتي».

وبهت الحاضرون... وتوفي أبو حمران ووُري جثمانه في حفل مهيب، وذاع خبر المشيخة والطائر الأخضر في كل أنحاء البلاد. فلما كان اليوم الثالث حضر الفقهاء والفقراء والأعيان والعوام الى المسجد وقعدوا ينتظرون ما يكون من وعد الشيخ العارف بالله وكان فيهم المصدق والمكذب والمتشكك.

وبعد أن ازدحم المسجد بالناس ولم يبق موضع لقدم خيم على الجميع صمت رهيب ورفع كل واحد أنظاره الى طاقة المسجد في انتظار الطائر الأخضر. وفجأة هبط على حافة الطاقة طائر أخضر جميل المنظر.

وأشرف الطائر على الناس ينظر إليهم متفحصا وكأنه يبحث عن ضالته، ثم رفرف بجناحيه وارتفع طائرا وحوّم فوق الرؤوس. وكان في أثناء تحويمه ينشر في أنحاء المسجد رائحة عطرية لذيذة. والأنظار تتابع طيرانه باهتمام. وفجأة وقع على رأس جوهر فارتفع التهليل والتكبير وبحثت العيون عن الطائر الأخضر لكنه اختفى ولم يظهر له أثر.

وقام الفقراء ليزفوا جوهر الى مقعد المشيخة، وصاح صائح بين الحاضرين «يا أبا البهاء، لقد اختارك الله شيخا مكان العارف بالله أبي حمران يرحمه الله».

فبكى جوهر وأجاب: «أين أنا من هذا؟ ما أنا إلا رجل جاهل لا أصلح لهذا ولا أعرف الطريق».

فقال له أحد الناس: «ما أقامك الله في هذا المكان إلا وأنت له وسيعلمك الله ما تجهل ويؤتيك التوفيق». فأجابه جوهر: «إن كان ولا بد من قبول المنصب فامهلوني ثلاثة أيام أسعى في براءة ذمتي وأعيد الحقوق الى أصحابها». فلما مضت الثلاثة أيام قعد الشيخ في منصب المشيخة فكان كاسمه جوهراً.

جوهر وسعادة

كان اسمها سعادة وكانت جميلة المنظر ناعمة الملمس شديدة العناية بنظافتها. وكانت فخورة بسيدها وربيب نعمتها الشيخ جوهر الذي أحبها وحنا عليها ودللها وكأنها من أولاده الأعزاء. وكان ذكاؤها اللامع باعثاً على الدهشة.

وكان جوهر كريما مبسوط اليد للفقراء والمساكين وأبناء السبيل يكاد منزله لا يخلو من الضيوف من مختلف طبقات الناس فالكل في نظره سواء.

كانت سعادة تقف في محلة الضيوف الملحقة بمنزل جوهر، فاذا أقبل عدد منهم دخلت الى المنزل وماءت مرات بعدد الضيوف الذين رأتهم، وهكذا يعرف أهل البيت عدد الضيوف فيهيئن أرغفة مساوية للعدد. وفي أحد الأيام وصل اثنا عشر غريبا ونظرت اليهم سعادة وذهبت الى المنزل وماءت عشر مرات فأدرك أهل البيت أن الضيوف عشرة وأرسلن مع الخادم عشرة أرغفة أو ما يكفي العشرة. ولما وجد الخادم أنهم اثنا عشر تعجب من الخطأ الذي وقعت فيه سعادة لأول مرة فخالفت عادتها، وعاد الى المنزل ليحضر طعاما للاثنين فقفزت سعادة وحالت بينه وبينها، وحاول أن يبعدها لكنها صرخت بوحشية لم يعهدها فيها ومنعته من الاقتراب من الغريبين.

وخشي الخادم غضب الشيخ فأسرع إليه يخبره بما جرى. وهز الشيخ رأسه ونادى سعادة فلما أقبلت نظر إليها طويلا وربت على شعرها الأملس ثم طلب الغريبين. فلما قدما سألهما عن حالهما فصرحا له بأنهما من غير المسلمين خرجا

من بلادهما متنكرين ولم ينكشف أمرهما إلا مع القطة سعادة. وتحدث معهما الشيخ طويلا ثم طلب منهما البقاء في ضيافته. وبعد أيام أسلم الرجلان على يد الشيخ وحسنت سيرتهما وحمدت طريقتهما بفضل اكتشاف سعادة.

وبقي الرجلان مع الشيخ جوهر حتى توفاهما الله الى رحمته فدفنا في القبرين الملاصقين للجدار القبلي لمسجد جوهر بين باب التربة وقبلة المسجد.

جوهر ومسبحة القاضي

كان الفقيه جمال الدين محمد سعيد بن كبّن بن علي الطبري الشافعي من أشهر علماء عدن وقضاتها. تفقه في زبيد ودرّس وأفتى مع الفقيه عمر اليافعي. وكان يتولى القضاء في عدن. وكان استاذا يقصده طالبو العلم ليتلقوا العلم عنه. وكانت له معرفة بسموعات الفقه، وكان أحد رجال الدهر نبلا وعلما وفضلا وسياسة وحسن معاشرة. وهو من ذرية الطبري شارح التنبيه. عرفه الناس باسم القاضي ابن كبّن (بفتح الكاف وتشديد الباء الموحدة).

وكان الشيخ خليل بن محمد المصري مؤذنا في جامع جوهر. وذكر خليل أنه كان صديقا لابن كبن وانه كان يزور ضريح جوهر كل ليلة. وفي احدى الليالي زاره كعادته ثم عاد الى منزله. وهناك وجد أنه أضاع مسبحته. ولما كان متبركا بالمسبحة معتادا علي حملها شق عليه ضياعها فأخذ فانوسا بيده ومضى في الطريق التي جاء منها يفتش فيها فلم يجدها. ووصل في سيره الى تربة الشيخ جوهر فزار الضريح وأدخل يده في فتحة التابوت وقال: «يا شيخ جوهر، ان المسبحة ما هان عليّ ضياعها». فما أخرج يده إلا والسبحة ملتوية على أصابعه.

وقد يكون ابن كبن في زيارته الأولى للضريح قد وضع السبحة دون أن ينتبه فاستقرت في التابوت فلما عاد للبحث عنها دله عقله الباطن على أن يمد يده الى الفتحة فوجد السبحة هناك.

عبد الله بن الخطيب

هو الشيخ عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن سعيد الشعبي نسبا الأبيني مولداً، عرفه الناس بابن الخطيب لأن أباه كان خطيبا بقرية الطرية في أبين، ومولده فيها في ٦ رمضان ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م). فلما شبّ وقرأ القرآن خرج من بلده يطلب العلم وتتلمذ على الفقيه اسماعيل بن محمد بن اسماعيل الحضرمي في قرية الضحي، ولم يزل عنده حتى كمل تفقهه فاستغرق في العبادة وظهرت له كرامات.

وجاء الى عدن وسكن في ناحية «حرم الشوك» (حافة القطيع) وتسامع به الناس وقصدوه وترددوا عليه حتى شغلوه عن العبادة فتعب لذلك أشد تعب وشكا الى بعض خواصه فأشار عليه بأن يطلب من كل من يزوره أن يقرضه مالا، ففعل الشيخ وأثمرت الحيلة فقد اعتذر أغلب المترددين عليه ثم امتنعوا عن زيارته فاستراح ابن الخطيب وكرس وقته للعبادة والتدريس فانتفع به وبعلمه جماعة من عدن وصاروا أهل عبادة وزهادة.

وغادر الشيخ عبد الله عدن الى موزع في التهائم اليمنية حيث توفاه الله في ربيع الأول ٦٩٧ هـ . وعرف المسجد الذي كان يقيم فيه في عدن باسم مسجد الشيخ عبد الله ووضع فيه مشهد له. وتقام زيارة لتخليد ذكراه في ١٤ ربيع الثاني من كل سنة.

منطّق البقرة

دخل ورّاد منزلا وبعدما أفرغ قربته من الماء خرج. وبعد ساعات قلائل اكتشف أصحاب المنزل ضياع بعض ملابسهم فاتهموا الوارد بسرقتها وذهبوا الى الشيخ عبد الله بن الخطيب وقدموا له شكواهم. ولما وقف الوراد أمامه أنكر

التهمة وأقسم على براءته فتوسم فيه الشيخ الصدق وسأل أصحاب المنزل اذا كان أحدهم رآه وهو يسرق فأجابوه بالنفي وذكروا أن أحداً لم يكن في البيت غير بقرتهم.

ولما سألهم الشيخ إذا كان الوراد قد اعتاد أن يدخل البيت في غيابهم قالوا: « نعم ». ففكر الشيخ قليلا ثم أمرهم بأن يحضروا له البقرة. فلما جاءوا بها مد الشيخ يده ورفع مشفريها وتأمل أسنانها وقال يخاطب نفسه بصوت هامس « إذاً من السارق؟ ». ثم رفع صوته وقال للحاضرين: « إن البقرة هي السارقة وليس الوراد! ».

وبهت الحاضرون ونشر بعضهم بين الناس أن البقرة رفعت مشفريها فأنطقها ولي الله فاعترفت بأنها أكلت الملابس وأطلقوا عليه صفة « منطق البقرة ».

وربما كان لهذه القصة أثر من الحقيقة ولكن ليس من ناحية انطاق البقرة. فربما ان ذلك القاضي الحكيم المدقق لما علم ان البقرة كانت وحدها في البيت وان الوراد قد اعتاد دخول البيت منذ زمن لم يحدث منه ما يسبب الشكوى وان أحداً لم يدخل في غياب أصحاب البيت، خمّن أن البقرة ربما كانت جائعة فلم تجد شيئا تأكله سوى الملابس، وان الشيخ لما طلب احضار البقرة لم يكن غرضه أن يجعلها تنطق فهذا أمر لا يفكر فيه العقلاء ذوو الألباب. بل كان الغرض منه أن يفحص أسنانها، فلما رفع مشفريها وجد بين ثنايا الأسنان فضلات الملابس فأيقن أنها أكلت الملابس. ولا شك عندي أن الشيخ قضى بتغريم أصحاب البيت لاهمالهم اطعام بقرتهم.

بين الولي والوالي

كانت صناعة الخمر مصرحة للبعض في تلك الأيام. وكان والي عدن الأمير محمد بن عمر بن ميكائيل يتقاضى عشورا من صانعيه وبائعيه. وكانت بعض منازل عاصري الخمر تقع بالقرب من المسجد. ولما رأى الشيخ عبد الله بن الخطيب ازدياد شكوى الناس جمع أصحابه وأمرهم بأن يتسلحوا بالعصي، وتقدمهم حاملا

عودا من خشب نحو منزل أحد الصناع وركل الباب بعد أن لم يفتح له أحد من سكانه وأمر بتكسير أزيار الخمر، ثم هاجم المنازل الأخرى وفعل فيها ما فعل بالأول.

وكان الوالي شابا معتدا بنفسه لاتصاله الوثيق بالملك المظفر يوسف بن عمر بن علي رسول. ولما علم بما حدث من القاضي أمر حرسه بأن يسيئوا الأدب معه.

ولم يلبث الوالي أن أصيب بمرض القولنج في نفس الليلة حتى كاد يهلك. وقيل ان كرامة الشيخ عبد الله قد أصابته. فأرسل إليه يستعطفه ويعتذر اليه. ولم يجبه الشيخ فأرسل الوالي أحد خواصه يطلب من الشيخ الحضور لكن الشيخ رفض الاجابة. وعندئذ قال صديق للوالي: «تحمل أيها الأمير واذهب بنفسك الى الشيخ فلعله يرحمك اذا رأى حالتك». فجاءوا له بمحفة حملوه عليها الى باب المسجد وارتمى عنده. واستحى الشيخ وخرج ومسح على الوالي فهان الألم.

وعاد الوالي الى قصره الا أن المرض استمر يعاوده في غالب زمانه.

ويقول بعض الثقاة ان هجوم الشيخ وأصحابه على منازل أصحاب الخمر كان في العشية فلما وصل الخبر الى الوالي أمر نائبه بأن يأتيه بالشيخ وأصحابه فأخذته بطنه وسالت دماؤه عدة مرات حتى كاد يهلك. وفي الصباح زاره بعض الناس فلما رأوا حاله وعلموا بحكايته مع الشيخ ظنوا انه ما أصيب إلا لأنه أراد الأذى بالشيخ.

وقال له أحدهم: «استدرك نفسك بإرضاء الشيخ فإنه من أولياء الله الصالحين. فقال الوالي: «ايتوني به»، فقيل له: «إنه لا يأتيك بل أنت الذي تذهب إليه فلعله إذا رأى حالتك يرحمك».

فاستدعى الوالي محفة ركب عليها حتى أتى باب المسجد فطرح عليه نفسه. فخرج الشيخ وقال للوالي: «تأدب يا أمير». فقال الوالي: «يا سيدي إنني أتوب إلى الله وأستغفره، فارحمني». فرحمه الشيخ ودعا له فاستمسك باطنه، ولكنه لم يشف من المرض تماما بل استمر يعاوده في غالب زمانه.

أبو الوادي

هو الشيخ ريحان بن عبد الله العدني، كان عبدا عتيقا لبعض أهل عدن، له كرامات خارقة ومكاشفات، يظهر الوله والتخريب. ومن بين كراماته ما ذكره الامام عبد الله بن أسعد انه سمع بعض القدماء من أهل عدن يقول: «رأيت الشيخ ريحان يفعل شيئاً مكروها فقلت في نفسي هذا الفاعل التارك الذي يقال له صالح يفعل هذه المنكرات. وفي تلك الليلة احترق بيتي بالنار».

ومن كراماته أيضاً ان أحد أهل عدن قال: «خرجت ليلة لشراء حاجة من السوق فلقيني الشيخ ريحان وجرني وارتفع بي في الهواء ارتفاعا عظيما فبكيت وقلت له ردني، أعدني الى الأرض. فقال أردت أن أفرجك فأبيت.

وذكر المؤرخ بامخرمة: «لم أتحقق تاريخ وفاة الشيخ الريحان الا ان اليافعي رأى من رآه. وذكره الذؤلي في طبقــات الصالحين من أهل اليمن وأظنه كان معاصرا للشيخ عبد الله بن الخطيب أيام اقامته بعدن. وبثغر عدن مشهدان يقصدهما الناس للتبرك والزيارة كل منهما يسمى مشهد الشيخ ريحان، أحدهما قريب من تربة الشيخ جوهر والثاني في أعلى البلد ولا أدري أيهما المعني بالترجمة».

وعندما قال بامخرمة عن المشهد الثاني انه في أعلى البلد فربما انه يقصد المشهد الذي في الوادي المعرف وراء جبل الخضراء والمواجه لمعاشيق حيث يقع الفنار.

العيدروس

هو السيد أبو بكر بن عبد الله العيدروس باعلوى. ولد في مدينة تريم في حضرموت سنة ٨٥١هـ ونشأ فيها. وكان فقيها صوفيا يتصدق على المحتاجين ويلبس الحرير ويتطيب ويتعطر ويتناول المأكولات الشهية. عاش في أيام الملك عامر بن عبد الوهاب رابع ملوك بني طاهر. والاسم «العيدروس» ليس اسماً علماً لكنه كان لقبا لوالده. ويعتقد ان أصل الكلمة «العندروس» ومعناها الأسد ثم تحورت الكلمة فصارت «عيدروس». زار عدن لأول مرة سنة ٨٨٠هـ وهو في طريقه الى بيت الله الحرام وزارها مرة ثانية في سنة ٨٨٨هـ واستوطنها وأقام فيها ثمانية وعشرين سنة وتوفي فيها سنة ٩١٤هـ. وقد بنى العيدروس مسجده المشهور باسمه في مدينة عدن. وقد جدد بناء المسجد في سنة ١٨٥٩ المحسن الهندي اسماعيل حبيب الميمني بمبلغ مائة ألف ربية هندية. وتقام زيارة للسيد أبي بكر في ١٥ ربيع الثاني من كل سنة. ويحترم كثير من الناس السيد العيدروس ويذكرون طرائف عنه منها القصص التالية:

مسواك العيدروس

كانت احدى السفن المسافرة بالقرب من ميناء عدن، وفجأة اصطدمت بصخرة ناتئة في البحر وأحدثت بها ثغرة. وفي تلك اللحظة كان السيد أبو بكر العيدروس في حالة تجلي فأحس هاتفا يهتف به أن ركاب السفينة يستنجدون بالله لانقاذهم من الخطر. وفي الحال رمى مسواكه نحو قمة الجبل المشرف على المسجد (جبل المنظر) فطار المسواك في الهواء واخترق القمة وأحدث بها عينا واسعة، وطارت الصخرة التي خرجت من العين ثم هبطت واستقرت في فجوة السفينة

وسدتها ومنعت الماء من التدفق الى داخل السفينة. ومنذ ذلك الحين والناس يسمون الجبل «جبل العين» وجبل العيدروس.

يا سماء صبي لبن

يقال ان مجاعة وقعت في عدن فجاء بعض الناس الى العيدروس يطلبون منه أن يضرع الى الله بأن ينقذهم من القحط القاتل. والتفت العيدروس نحو السماء وصرخ «يا سماء صبي لبن». وفي الحال تلبدت السماء بالغيوم الكثيفة وأمطرت لبنا شربه الناس وذهب عنهم القحط. ويروي البعض ان التاجر اليهودي بنين (جد عائلة بنين المعروفة بالغنى في عدن) احتفظ بقارورة ممتلئة بذلك اللبن في خزانته وان ذلك هو السر في غنى هذه الأسرة.

ويمكنني أن أعلل اعتقاد الناس بإمطار السماء لبنا أن غبارا كثيفا اكتنف عدن وكان مختلطا بنوع من الجير الأبيض (النورة) الذي قذفت به الرياح من الصحراء. وحينما هطل المطر امتزجت شعانين الماء بذرات الجير في الهواء ونزل المطر مائلاً إلى البياض، وظن البعض أن المطر كان لبناً، وانتشروا يشيعون ان العيدروس هو الذي طلب من الله ان يأمر السماء بأن تمطر لبناً.

أما كتب التاريخ فلا تذكر لنا أن مجاعة حدثت في عهد الملك عامر بن عبد الوهاب.

ومن بين معتقدات الناس أن الاخشاب التي بنيت بها نوافذ وأبواب مسجد العيدروس وصلت إلى عدن من الهند سابحة في الماء.

السلطان العقيم

وتقول قصة أن السلطان عبد الكريم فضل بن الشيخ فضل بن علي العبدلي الذي حكم لحج من سنة ١١٥٥ه (١٧٤٢م) حتى سنة ١٧٨٠م) كان جالسا في ديوانه وحوله رؤساء القبائل والعلماء والأعيان وبينهم أحد أبناء السيد أبي بكر العيدروس.. ووقع جدل بين العيدروس واحد أبناء السلطان الذي تفوه بكلمات جارحة ضد العيدروس فالتفت هذا ناحية السلطان وطلب منه أن

يؤدب ولده لكن السلطان صمت فتشجع الإبن وأهان العيدروس وشتمه.. فاستشاط العيدروس غضبا ورفع يديه نحو السماء واستنزل غضب الله على السلطان وأبنائه طالبا منه أن يقطع نسلهم. وتقول القصة أن هذا الدعـاء كان مستجابا فلم ينجب أي واحد من أبناء السلطان عبد الكريم أولادا.

ابن علوان

هو الشيخ أبو العباس أحمد بن علوان الصوفي، عاش في أيام الملك المظفر يوسف بن المنصور عمر بن على رسول حوالي سنة ٦٤٧ﻫ (١٢٤٩م) وله مسجد في قرية يفرس بالقرب من مدينة تعز في الجمهورية العربية اليمنية. وهنا في يفرس يوجد قبره، وتقام زيارة لتخليد ذكراه في ١٠ ربيع الأول من كل سنة. وفي عدن بني الشيخ حسن المصري في سنة ٨٤٧ مسجدا لإبن علوان في شارع الزعفران في مدينة عدن حيث تقام زيارة لتخليد ذكراه في ١٢ شعبان من كل سنة.

وللشيخ ابن علوان أتباع يؤمنون بأنه صاحب كرامات. وكان الناس يغالون في كلامهم عنه وينسبون اليه أمورا خارقة في حياته وبعد مماته. ويتحمل كثيرون عناء السفر الى قبر ابن علوان في يفرس إعتقادا منهم بأن الزيارة سوف تشفيهم من أمراضهم المستعصية. وكان وما زال كثيرون يقسمون بابن علوان بدلا من أن يقسموا بالله.

وقيل أنه أراد في شبابه أن يتوظف عند الملك المظفر يوسف، وبينما هو في الطريق وقع على كتفه طائر أخضر مدّ منقاره الى فمه ففتح الشيخ فاه فصب فيه الطائر شيئا إبتلعه الشيخ ثم رجع من فوره والتزم الخلوة من حينه. واعتكف أربعين يوما خرج بعدها وقعد على صخرة عظيمة يذكر الله تعالى فانفلقت الصخرة عن كف وسمع قائلا يقول له «صافح هذه الكف»، فقال «ولمن هي؟» فقيل له «كف أبي بكر الصديق رضي الله عنه»! فصافحه وسمع

قائلا يقول له « نصبتك شيخاً ». وبعد ذلك القى الله القبول والمحبة في قلوب الناس للشيخ وتبعه خلق كثير.

ويقال أن جماعة من الناس وصلت لزيارته ومع كل واحد منهم شيء من المال على سبيل النذر فلما وصلوا اليه سلموا الذي معهم لنقيب الفقراء واجتمعوا بالشيخ وطلبوا منه الدعاء. فلما رجعوا الى بلدهم وامسوا في بيوتهم ما استيقظ كل واحد منهم إلا وعنده ماله الذي ذهب به الى الشيخ.

أبو الفداء البغدادي

قدم من العراق الشيخ أبو الفداء إسمعيل بن عبد الملك بن مسعود البغدادي واستوطن عدن. وكان فقيها مباركا مشهورا بالعلم والصلاح وكانت له كما يقال كرامات منها ما ذكره الجَنَدي قائلا: «روى المقرىء يوسف الصدائي، وكان إماماً بمسجد الفقيه المذكور، وقال لي الفقيه يوماً: «أتريد أن أريك آية من آيات الله المحجوبة عن الناس»؟ فقلت «نعم» فمسح بيده على وجهي وقال لي «مد بصرك الى السماء» فرفعت رأسي فرايت آية الكرسي مكتوبة بالنور تكاد تخطف الأبصار أولها بالمشرق وآخرها بالمغرب!» ويقال أن البغدادي كان معروفا بصحبة الخضر.

★ ★ ★

أبو حربة

في ضواحي قرية الحسوة القريبة من مدينة عدن يوجد ضريح «أبو حربة» الذي يقال أنه كان من الصالحين أهل الكرامات،وأنه كان رحالة لا يكاد ينتهي من رحلة حتى يبدأ أخرى. ويقال أنه أثناء تجواله وصل الى قرية الديس بالقرب من مدينة المحلا في حضرموت وهناك أحس بقرب وفاته فرفع حربته التي إعتاد أن يحملها معه أينما سار وصرخ «سوف يكون ضريحي حيث تقع حربتي» ثم قذف بها فطارت في الهواء ووقعت في ضواحي الحسوة.. ويقال أن الجن نقلوا جثته حيث وقعت الحربة. وهناك بنى الأهالي ضريحا له. ويقال أيضا أن الضريح لا يضم شيئا سوى الحربة. أما الجثة فلا وجود لها.

★ ★ ★

قندول

ربما أن هذه الصفة أصلها « قنديل »، وهي لولي مجهول لكنه مشهور في جبال قبيلة العبدلي في ردفان باليمن الجنوبية. ويظهر أن سبب إعطائه هذه الصفة الإعتقاد السائد أن دخانا ينبعث من الضريح في بعض الليالي. ومما يذكره الردفانيون أن مقابل قبر قندول يوجد ضريح لولي آخر مجهول أيضا وأن الناس في بعض الليالي يسمعون صراخا من كلا القبرين وأحيانا يسمعون سقوط الحجارة. ويؤكد الأهالي أن الجن الذين يسكنون بجوار الضريحين هم الذين يتخاصمون ويتراشقون بالحجارة.

واعتاد الناس أن يأخذوا أولادهم الى ضريح قندول حين يبلغون السابعة من العمر للحصول على البركة.

* * *

حورية ردفان

يقع ضريحها في الجبل العالي المعروف بجبل حورية في ردفان. ويحكي الأهالي أن حوريـة كانت في حياتها امرأة صالحة تحب الناس وتعطف عليهم حتى أحبوها وتبركوا بها وكان لها أخ متزوج من إمرأة شرسة حقدت على حورية حين وجدت الناس يحترمونها ويذكرون كراماتها فأوعزت الى أخ حورية بالقضاء عليها لأنها سيئة السلوك تلطخ شرفه بالعار. وثار القبيلي ثورة عارمة ولم يتحقق من صدق كلام زوجته فربط أخته بين ثورين ولكزهما بقوة جعلتهما يجريان في إتجاهين مختلفين فانشقت حورية نصفين. وفي تلك الليلـــة أقبل الجن وأعادوا تركيب

جسمها ورفعوها الى أعلى الجبل حيث دفنوها. وفي نفس الليلة كما تقول القصة بنى الجن ضريحها ومسجدها واحضروا أخشاب العمارة من الهند. وفي فجر اليوم التالي إندهش الناس وهم يرون ضريح حورية شامخا في الجبل واعتبروا ذلك من كراماتها. ويقال أيضا أن الجن إنتقموا من أخ حورية وزوجته بالقضاء على نسلها وذلك بأن يدفنوا أولادها بين صخور الجبل

★ ★ ★

مولى مطر

يقع ضريح مولى مطر من الطريق بين ميناء المكلا ودوعن في حضرموت. ويدعي البعض أنه يضم رفات والد نبي الله موسى بينما يدعي البعض أنه يضم رفات الإمام علي بن أبي طالب.

ولكن يعتقد أن الإسم لأحد أرباب حضرموت القدماء حين كان الناس يقيمون لهم أربابا للزراعة والصناعة والمطر وغيرها.

★ ★ ★

الشاذلي وقصة إكتشاف البن اليمني

قال الضابط الأول في السفينة الهندية يخاطب الربان: «ترفق بنفسك يا سيدي فإن كثرة الحركة تزيدك مرضا».

وأجاب الربان الواهن القوى بصوت ضعيف: «ستكون حياتي قد انتهت في الوقت الذي تصل فيه السفينة الى جدة».

أجاب الضابط: «كلا يا سيدي، فقد أمرت بتحويل اتجاه السفينة»

وقال الربان: «والى أين نحن ذاهبون»

أجاب الضابط: «أقرب ميناء لنا هي مدينة موزع اليمنية».

لم يكد الضابط الأول ينتهي من كلامه حتى سمع الأثنان دقات على الباب وظهر الضابط الثاني وهو يقول: «أننا الآن نسير بمحاذاة الساحل اليمني، وقد شاهد برج المراقبة عددا من الأكواخ بالقرب من الشاطىء».

وقال الضابط الأول: «إذا فنحن لا نتجه نحو موزع. هل تعرف إسم هذا المكان»

وأجاب مساعده: «كلا يا سيدي، فإن الإسم غير مسجل في الخرائط. ولم تكن هذه الأكواخ موجودة هنا عندما أبحرنا في السنة الماضية».

وقال الضابط الأول: «عجيب، هل هي قرية حديثة».

وأجاب المساعد: «يظهر أنها كذلك».

وأصدر الضابط الأول تعليماته بإرساء السفينة عند هذه الأكواخ.

وهنا تكلم الربان: « أسرعوا بإرساء السفينة هنا فقد نجد الدواء لما أعاني »

وقال الضابط الأول مستغربا: « دواء. هنا. هل يتوقع سيدي الربان أن نجد دواء عند هذه الأكواخ القليلة المتناثرة على الشاطىء ».

وأجاب الربان مؤكدا: « حيث يوجد الانسان يوجد الداء والدواء »

وأرست السفينة على بعد يسير من الشاطىء ورأى البحارة عددا من الرجال يشيرون بأيديهم مرحبين. وعندما هبط البحارة الى القوارب تسابق الأهالي نحوهم ليساعدوهم على الهبوط الى البر. وكانت دهشة الضابط والبحارة عظيمة وهم يرون هؤلاء الناس الفقراء يرحبون بهم بكل تلك الحرارة على الرغم من عدم معرفتهم بهم.

وقال أحد الأهالي: « من أنتم، ومن أين أقبلتم، وماذا جئتم تفعلون هنا »

وأجاب الضابط: « نحن بحارة سفينة هندية، وقد اضطررنا الى ارسائها هنا لأن رباننا في حالة من المرض شديدة.. أنه يعتقد أننا قد نجد له دواء هنا. »

وقال أحد الرجال: « ستجدون الدواء إن شاء الله. اتبعوني »

وأحس الضابط جوا من الطمأنينة والإيمان يحيط به ونظر الى الرجال وقال: « هل يمكننا أن نعرف من أنتم وماذا تفعلون في هذا المكان النائي »

وابتسم الرجل وقال: « نحن من الزهاد، جئنا الى هنا لأن فقيهنا وشيخنا العالم العلامة على بن عمر الشاذلي قرر أن يستوطن هذا المكان لينقطع الى عبادة الله ».

وقال الضابط: « وأين يعيش فقيهكم ».

وأشار الرجل نحو كوخ منعزل وقال: « هناك، في ذلك الكوخ. إنه ينتظركم ».

واستقبل الشيخ علي بن عمر الشاذلي البحارة بكل ترحاب عند باب الكوخ ثم أدخلهم وطلب منهم القعود. وتأثر البحارة بمنظر الشيخ الوقور

وكرمه وبلهجته الواضحة. وقدم لهم مشروبا دافئا لم يتذوقوا مثله من قبل. وما كادوا ينتهون منه حتى أحسوا بأن الثقل ودوار البحر قد ولّيا. وبعث المشروب فيهم روح المرح والإنتعاش واليقظة. وطلب الضابط الأول من الشيخ أن يعطيه شيئا من المشروب ليقدمه للربان المريض فلربما خفف عنه وطأة المرض. وأكد لهم الشيخ المشروب ودعا الله أن يزيل عن ربانهم بعض ما به من مرض.

وفي السفينة تناول الربان المشروب وشعر بالتحسن في نفس اليوم. وبعد الظهر تمكن من الهبوط الى البر لزيارة الشيخ وشكره على تعطفه عليه وعلى أصحابه.

وقال الشيخ: «إذا أنزلت ما تحمله سفينتك من بضاعة هنا فإنك ستبيعها إن شاء الله بربح طيب».

وتأثر الربان بمظهر الشيخ وإيمانه وعمل بنصيحته فافرغ سفينته من حمولتها. وفي الأيام القليلة التالية بدأ الناس يفدون الى المكان لزيارة الشيخ وكان بينهم بعض التجار الذين أقبلوا من النواحي المجاورة بعد أن عملوا بوصول السفينة، واشتروا حمولتها كلها.

وقعت هذه الحادثة في عام ١٤٣٠م. وعادت السفينة الى الهند ونشر الربان والبحارة أخبار الشيخ العالم المبارك. وبعد ذلك بدأت السفن الهندية التجارية تصل الى المكان الذي بدأ يتوسع عندما شمل قرى مجاورة وازداد عمال البناء وكثر الناس من النواحي المجاورة.

ولما مات الشيخ علي بن عمر الشاذلي دفن في نفس المحل الذي كان يحل فيه. وبنى له الأهالي مسجدا. وكان المكان مدينة المخا التي إشتهرت كأكبر ميناء في البحر الأحمر لتصدير البن اليمني. كما فتحت في أوروبا وأميركا والشرق مقاهي تحمل إسم «موكا كافي» (أي «قهوة المخا»).

البن في عدن

في سنة ١٨٥٧م كتب عبد القادر الجزائري يقول: «كان جمال الدين بن

سعيد قاضيا في عدن في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، وكان يزور الحبشة وكان يلاحظ مواطنيه المهاجرين اليمنيين هناك يتناولون القهوة. وفي إحدى المرات عاد الى عدن وقد ساءت صحته. وتذكر المشروب الذي يتناوله مواطنوه في الحبشة وحالة النشاط الذي يحسون به بعد تناوله فكتب الى صديق له بأن يرسل له بكمية منه. ولما وصلت وتناول شيئا منها شعر بالنشاط والإنتعاش. ووجد أن البن يخلو من عناصر المشروبات والمواد المسكرة والمخدرة فاستمر يتناوله. وقلد أهل عدن قاضيهم وادمنوا شرب القهوة.

ويقول الرحالة والكاتب الفرنسي لاروك أن استعمال القهوة لم ينتشر دون معارضة من المتعصبين من المسلمين الذين ذهبوا في غلوهم الى حد تحريمها. وأصدر حاكم مكة بيانا بهذا الخصوص صادق عليه كثير من علماء المدينة المقدسة. إلا أن هذا التحريم لم يستمر طويلا فقد أصدر سلطان مصر بلاغا يعترض فيه على بيان نائبه في مكة ويأمر برفع الحظر عن تناول القهوة.

ومنذ ذلك الحين لم توجه القهوة أية معارضة حتى سنة ١٥٢٤ حين أمر قاضي مكة بإغلاق حوانيت القهوة بسبب الضجيج الذي يسببه الزبائن. إلا أن القاضي الذي تلاه أمر بإعادة فتحها شريطة أن يلتزم أصحابها بالنظام. ولما إستتب النظام لم يصدر أي قاض آخر أمرا بإغلاق حوانيت القهوة.

أصوات من السماء

عندما يدخل الزائر مدينة عدن من بابها الرئيسي يرى الى يساره على جبل حديد برجاً حجريا يظن كثيرون أنه قبر هابيل ابن آدم.

(تسمع صرخة رعب عالية حينما يقتل قابيل أخاه هابيل.)

(يجري قابيل مسرعا ويداه تقطران دما)

قابيل: (بصوت عصبي) قليميا، قليميا، أي أنت يا قليميا؟

قليميا: (متعجبة) قابيل، ها أنا. ما لي أراك مضطرباً، وما هذه الدماء التي تقطر من بين يديك؟

قابيل: قتلته، قتلته، قتلته!

قليميا: (بخوف) قتلت من؟ من يا قابيل؟ تكلم!

قابيل: هابيل! قتلت هابيل!

قليميا: (صارخة) هابيل، أخونا؟

قابيل: نعم، هابيل أخونا.

قليميا: (باكية) أيها المجنون.. قتلت هابيل. ان حقدك عليه كان عظيما

قابيل: نعم، كنت حاقدا عليه. لقد شفيت غليلي. كان هو الراعي وأنا المزارع وحين قدمنا القربان الى الخالق أضاءت السماء بأنوار التهمت قربانه وتركت قرباني، وكان قربانه قمحاً وقرباني من الحيوان.

قليميا: معنى ذلك أن الله راض عنه ولذلك تقبل قربانه. ألهذا قتلته. انها مشيئة الخالق وعلينا أن نرضى بمشيئته.

قابيل: ومن أجلك أنت قتلته. لقد أراد أن يستأثر بك فقتلته لتكون لي وحدي

قليميا: لكنك تعرف أنك لا تجوز لي. ان قبول الله لقربانه يعني أنني لا أجوز لك بل له.

قابيل: هذه شريعتي يا قليميا.

قليميا: لكن هل غرب عن بالك أن أمنا حواء تلد توأمين، ذكر وأنثى، وان أبانا آدم أمر بعدم زواج التوأم لأنهما من بطن واحدة، ولهذا تقرر ان أتزوج هابيل لأنني توأمتك وتتزوج أنت لويذا توأمة هابيل.

قابيل: أنت تعلمين يا قليميا أن أمنا حواء حملت بنا وهي في الجنة مع أبينا ثم أمرهما الله بالخروج من الجنة بعد الخطيئة هبطا الى الأرض وفيها حملت أمنا بهابيل ولويذا، فنحن اذا أشرف منبتنا لأننا من أبناء الجنة أما هو وتوأمته فأوطأ منبتاً لأنهما من أبناء الأرض.

قليميا: وكيف حدث ما حدث يا قابيل؟

قابيل: عندما رأيت أن الله قد تقبل قربانه وانك ستكونين له دوني قلت له «لأقتلنك».

قليميا: وبماذا أجابك؟

قابيل: أجابني بهذه الكلمات: «يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت اليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي لأقتلك، اي أخاف الله رب العالمين، اني أريد أن تبوء باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين.

قليميا: ورغم هذا فقد طوعت لك نفسك بأن تقتل أخاك. لقد أصبحت من الخاسرين

(يسمعان وقع أقدام)

قابيل: ان أبانا قد أقبل

قليميا: انه يركز نظراته عليك

آدم: يا قابيل، أين هابيل؟

قابيل: لا أدري، ما كنت عليه رقيبا!

آدم: ان صوت دم أخيك ليناديني من الأرض الآن. أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاها فتلقت دم أخيك، فاذا أنت عملت بيدك في الأرض لا تعود تعطيك حزنها، وتكون فزعا تائها. سوف نرى.

(آدم يدير ظهره ويذهب بعيدا)

قليميا: ان أبانا غاضب عليك يا قابيل

قابيل: لن أمكنه من الحاق الأذى بي

قليميا: اذاً، ليس أمامك إلا أن تهرب. هاجر ولا تدع أبانا يراك بعد الآن. أواه، انك أحرقت قلبي بقتلك هابيل. مسكين أنت يا أبي ومسكين أنت يا هابيل.

قابيل: وأنا؟

قليميا: ومسكين أنت يا قابيل. إرحل سريعا الى أية أرض بعيدة

قابيل: (مستغربا) أرحل سريعا؟ انك تتكلمين وكأنني راحل وحدي

قليميا: (بحنان) قابيل. هل تظنني بلا قلب حتى أتركك ترحل وحيداً؟ انني معك أينا سرت وحيثما حللت!

قابيل: لن يهمني بعد الآن شيئاً. هيا بنا وسنحمل جثة أخينا هابيل.

قليميا: وما نعمل بها؟

قابيل: لا أدري، لكنني لا أحتمل أن أترك جثة أخينا هنا عرضة للشمس والزوابع والأعاصير!

قليميا: والآن لنبدأ المسير. لقد اقترب الغروب.

(يمشي قابيل وقليميا في طريقهما الى حيث كانت جثة هابيل)

(تسمع رعود ويهطل المطر بغزارة)

أصوات خفية = قابيل!

قابيل - (خائفاً) هه.. من؟.. من ذا يناديني؟

أصوات خفية - قابيل!

قابيل - يا رب. يا، يا، يا هوفا؛ يا هوفا!

أصوات خفية – قابيل.. ماذا فعلت بأخيك هابيل؟
قابيل – (بجنون) هاهاها.. هل تسمعين يا قليميا؟
أصوات خفية – قابيل، ماذا فعلت بأخيك هابيل!
قابيل – كفى، كفى، كفى!

أصوات خفية: أيها القاتل، لماذا قتلت أخاك هابيل؟ عليك اللعنة يا قاتل! لن تجد سلاماً في الأرض يا قاتل.

قليميا: انها أصوات من السماء، وأصوات من الأرض!

قابيل: لنرحل سريعا. ان أبانا لن يغفر لنا ما فعلته بهابيل. ساعديني على حمله يا قليميا. أوه، انه كالجبل ثقلا، لكني سأستمد من خوفي من أبي عزماً على التجلد.

(يسرع الاثنان الخطى والأصوات الخفية تلاحقها.. يصلان الى بقعة صخرية. ينزل قابيل الجثة ويجلس على الأرض ليستريح فينام. وبعد فترة توقظه قليميا)

قليميا: قابيل، قم، قم، وانظر

(يفتح قابيل عينيه ويسمع خفق أجنحة وصراخ طائرين)

قابيل: انها طائران يقتتلان في الجو. أوه انظري يا قليميا، ان أحدهما يصرع الآخر، ها هو الطائر القتيل يقع على الأرض. تماما مثل هابيل!

(يرى الطائر القاتل يهبط ويحفر بمخالبه)

قليميا: لقد هبط الطائر القاتل، انه يصرخ ويدور حول جثة أخيه القتيل.

قابيل: (متفكرا) انه يحفر حفرة في الأرض.. آه، انظري، انه يصرخ ويدور حول الجثة. انه يسحبها بمخالبه نحو الحفرة. هل ترين يا قليميا. انه يهيل عليها التراب ليدفنها.

قليميا: ما لك يا قابيل؟

قابيل: اصمتي ودعيني أفكر

قليميا: فيم تفكر؟

قابيل: لقد علمني الطائر ما أفعل بجثة هابيل

(يحفر قابيل والرياح تصفر والسماء ترعد وقليميا تبكي)

قليميا: هل أساعدك يا قابيل؟

قابيل: نعم نعم، ساعديني في رفع الجثة

قليميا: ان حزني عليك لعظيم يا هابيل

قابيل: (آمراً) كفي عن البكاء؟

قليميا: لقد انهكني الترحال. لماذا لا نَعْدِن هنا؟!

قابيل: لقد فكرت في هذا وأنا أهيل التراب على الجثة. أرى انه مكان مناسب نجعله عَدَناً لنا ونحتمي فيه من غضب أبينا آدم وأمنا حواء

قليميا: أيها التوأم العزيز. ان هذه البقعة الصخرية من الأرض ستكون منذ اليوم عَدَنُنا، سنعيش هنا.

قابيل: نعم سنعيش هنا وسوف نموت هنا ونقبر فوق هذا الجبل. انه المكان الذي اخترناه عَدَناً لنا.

(تمضي الأيام وما زال قابيل يفكر في أخيه هابيل وفي أبيه وأمه، ويبكي أحياناً ويستمر بكاؤه أياماً. وفي احدى لحظات حزنه يسمع حفيفاً فيتنبه لكنه لا يرى شيئاً)

قليميا: بماذا تفكر الآن

قابيل: هل تسمعين شيئاً

قليميا: لا. ماذا تسمع أنت.

(يصمت قابيل ثم تذهب قليميا لتنام. وينام قابيل، وبعد قليل يتيقظ على وقع أقدام وتتسمر عيناه.. ترتفع ضحكات فظيعة)

قابيل: (فزعا) ابليس!

ابليس: (ضاحكا) نعم، ابليس، هل من خدمة أخرى أقدمها لك؟

قابيل: ابليس، يا أصل الخطيئة. كيف علمت بمكاني؟

ابليس: ليس لي من شغل غيرك يا قابيل. انت رعيتي. كنت أتابع خطواتك من

قبل أن تقتل أخاك. لقد كنت أنا الذي زرعت الحقد في قلبك على أخيك. وأنا الذي جعلتك تميل الى توأمتك المحرمة عليك.. لقد أرضيتني وأغضبت الخالق فطردك من أرض أبيك وأمك.

قابيل: وأنت يا ابليس، ألم يطردك الله من الجنة حين قال لك وللملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا أنت فقد أبيت واستكبرت وكنت من الكافرين

ابليس: لقد أبيت أن أسجد لمخلوق. ولقد اعترض بعض الملائكة على هذا السجود

قابيل: ان في سجودك لآدم تمجيد لخالقه. ولقد أكبر الملائكة أمر خلق آدم في الأرض وأسروا في أنفسهم هذا الاعتزاض وان كانوا سلموا الأمر لله تسليماً. فلما دخل آدم وظهر من أطواره الأولى انه قابل لادراك جميع الامكانيات ومستأهل للوصول من حياته العلمية الى أقصى الغايات أدركوا انه خلق كريم يجب اجلاله وتعظيمه لشرف مواهبه، وأكبروه، وهذا هو معنى السجود له. ولكنك أبيت أن تسجد كما أمرك الله فحقت عليك اللعنة.

ابليس: وانت ألا تظن ان الله قد لعنك مثل ما لعنني لأنك لطخت يديك بدماء أخيك

قابيل: (متألماً) حقاً، كلنا في اللعنة سواء!

ابليس: أراك يا قابيل تقضي وقتك في حزن عظيم والم مرير

قابيل: ووحدة قاسية

ابليس: (ضاحكا) انها بجانبك، قليميا، تؤنس وحدتك وقد انجبت لك ولديك خنوخ وأخته عذب

قابيل: (يائسا) كنت أظن ذلك قبلاً، لكن الحقيقة وضحت لي، والحزن يلاحقني

ابليس: (مغريا) سأبني لك معبداً ينسيك الحقيقة

قابيل: (مندهشا) معبد؟

ابليس: معبد للنار، النار أصل الحياة، النور الذي يضيء لك ويبدد عنك الظلام!

(ويبتسم ابليس، وحينما يرفع قابيل رأسه على صوت خوار ابليس يرى بين يديه عدداً من المزامير. ينظر اليها قابيل متعجباً فيقدم له ابليس مزماراً)

قابيل: ما هذا؟

ابليس: مزمار.. انظر. سأضعه بين شفتي وأنفخ فيه وأحرك أصابعي في فتحاته

(تنبعث نغمات عذبة من المزمار)

قابيل: (فرحا) علمني، علمني

ابليس: سأعلمك، اقترب مني، ضعه بين شفتيك، والآن أنفخ وحرك أصابعك.

(تنبعث نغمات عذبة)

قابيل: قليميا، قليميا تعالي وأسمعيني. لقد علمني ابليس!

قليميا: ما هذا، أوه، ما أحلى هذه النغمات!

(وبينما تستمر نغمات المزمار)

ابليس: آه، لقد بلغت فرحتي أقصاها. ان هذه هي ثانية انتصاراتي. لقد انتصرت على ابن آدم الذي أرادني الله أن أسجد له. سأستمر في زرع الحقد والكراهية في قلوبهم على بعضهم بعضا. سأجعلهم ينسون خالقهم فأبتكر لهم معتقدات جديدة ويسفكون دماءهم وأغريهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام. ولكن، هل سأنتصر في النهاية؟



المراجع

ابن بطوطة: رحلات

ابن المجاور: تاريخ المستبصر

أبو محمد الحسن بن محمد يعقوب الهمداني: صفة جزيرة العرب

أبو محمد الحسن بن محمد يعقوب الهمداني: الاكليل (مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٦٣)

أحمد أبو زيد ونبيلة ابراهيم ومحمد الجوهري وأحمد موسى وعبد الحميد حواس دراسات في الفولكلور (دار الثقافة للطباعة والنشر)

أحمد بن أحمد عبد اللطيف الشرجي الزبيدي: طبقات الخواص أهل الصدق والاخلاص (المطبعة الميمنية بمصر)

أحمد بهجت: أنبياء الله (دار الشروق، القاهرة)

أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ.

أحمد فخري: تاريخ اليمن القديم

أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن

أحمد كمال زكي: الأساطير، دراسة حضارية مقارنة (مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٥)

اسماعيل الكبسي: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية

بيرين، جاكلين: اكتشاف جزيرة العرب (دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٦٣ التوراة

تيسيغر، ولفرد: رمال العرب، ترجمة نجدة هاجر وابراهيم عبد الستار (المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت)

جمال الدين علي ابن الحسن ابن حمزة: كنز الاخيار في التاريخ والأخبار

حسين الأهدل: تحفة الزمن في أعيان أهل اليمن

حمزة علي لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية (دار مصر للطباعة، القاهرة ١٩٦٠)

حمزة علي لقمان: خواطر من صميم المجتمع (مطبعة فتاة الجزيرة، عدن)

حمزة علي لقمان: تاريخ الجزر اليمنية (مطبعة يوسف وفيليب الجميل، بيروت ١٩٧٢)

حمزة علي لقمان: معارك حاسمة من تاريخ اليمن (مطبعة العودة بيروت ١٩٧٨)

حمزة علي لقمان: تاريخ القبائل اليمنية (يجهز للطبع)

الخزرجي: العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية

زيد بن علي عنان: تاريخ اليمن القديم (المطبعة السلفية، القاهرة)

سعيد عوض باوزير: معالم جنوب الجزيرة العربية

سعيد عوض باوزير: صفحات من التاريخ الحضرمي

شرف الدين حسين الاهنومي: البراهين المضية في السيرة المنصورية

شوقي عبد الحكيم: أساطير وفولكلور العالم العربي (روز اليوسف، القاهرة)

عبد الله بن أحمد الثور: هذه هي اليمن (مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٩)

عبد الرحمن ابن خلدون: العبر

عبد الحميد يونس: دفاع عن الفولكلور (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣)

عبد الواسع الواسعي: تاريخ اليمن

عمر بن يوسف بن رسول: طرفة الأصحاب في معرفة الانساب

عيسى ابن لطف الله ابن المطهر شرف الدين: روح الروح

فريزر، جيمس: الفولكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة ابراهيم وحسن ظاظا (الهيئة المصرية العامه للكتاب القاهرة)

فلبس، وندل: قتبان وسبأ

فلب حتي وادوارد جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب (دار الكشاف بيروت)

فوزي العنتيل: الفولكلور، ما هو (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥)

القرآن الكريم

كروتندن: رحلة من المخا الى صنعاء (الجمعية الجغرافية الملكية، لندن ١٩٣٨)

محمد بن أحمد عيسى العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني، (مطابع الرياض ١٩٥٨)

محمد فريد وجدي: المصحف المفسر (مطبعة الشعب، القاهرة)

محمد فريد وجدي: الاسلام في عصر العلم

نجم الدين عمارة الحكمي: تاريخ اليمن

نشوان ابن سعيد الحميري: شرح القصيدة الحميرية

نيلسن وهومل ورودو كاناكيس: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي

هاولز، وليم: ما وراء التاريخ، ترجمة أحمد أبو زيد (دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥)

هينز، س ب: مذكرات حول الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية (المجلة الجغرافية الملكية)

ولستد، ج ر: رحلات في عمان من كتاب رحلات في مدينة الخلفاء ١٨٤٠

ياقوت الحموي: معجم البلدان

يوسف البهاء الجندي: السلوك في طبقات العلماء والملوك

REFERENCE

Bent, T.: The Ancient Trade Routes across Ethiopia (Geographical Journal 2, 1893).

Bent, T.: Southern Arabia (London 1900).

Botting, Douglas: Island of the Dragon's Blood (Hodder and Stoughton, 1958).

Bury, G. Wyman: Arabia Infelix or the Turks in Yemen (Macmillan, London, 1915).

Gabrieli, Francesco: The Arabs, A Complete History trans. by Salvator Attanasio (Hawthorn, New York, 1963).

Glaser, E.: Die Abessinien in Arabien und Afrika (Muenchen 1896).

Hable Sellasie, Sergew: Ancient and Medieval Ethiopian History to 1270 (United Printers, Addis Abeba, Ethiopia 1972).

Hakluyt Society: Some Records of Ethiopia. 2nd Series, (London 1923).

Halevy, Joseph: Travels in Yemen. Written in San'ani Arabic by Hayyim Hasbshush (Hebrew University Press, Jerusalem, 1941).

Hansen, Thorkild: Arabia Felix, the Danish Expedition 1761–1767, trans. by James and kathleen McFarlane (Collins, London 1964).

Pinsent, John: Myths and Legends of Ancient Greece (Hamlyn, London).
Playfair, R. L.: History of Arabia Felix or Yemen (Records of Bombay Government, 1859).
Plinius: Naturalis Historia, ed. Trans. John Rackham (London, 1938).
Ptolemy, Cl: Geography of Clodius Ptolemy, trans. E. Stevenson (New York, 1932).
Reilly, Bernard: Aden and the Yemen (HM Stationary Office, 1960).
Rickmans, J: Inscriptions Historiques (Museon 77, 1964).
Schoff, W. H.: The Periplus of the Eryhraean Sea (New York, 1922).
Scott, Hugh: A Journey to the Yemen.
Serjeant, R.B.: The Portuguese off the Coast of the S. Arabian Sea (Oxford Clarendon Press, 1963).
Sharafaddin, A.H.: Yemen (Commercial Printing Press, Rome, 1961).
Stark, Freya: A Winter in Arabia. (John Murray, London, 1940).
Stark, Freya: The Southern Gates of Arabia (John Murray, London, 1936).
Talmud: The Babylonian Talmud, trans. Epistein (London, 1935).
Thoman, Berthram: Arabia Felix (John Cape Press, 1932).
Toy, Barbara: In Search of Sheba (John Murray, London, 1961).
Ullendorff, Edward: The Ethiopians (Oxford University Press, 1965).
Ullendorff, Edward: Ethiopia and the Bible (London, 1967).
Vincent, W.: THe Periplus of the Erythraean Sea (London, 1807).

Harding, G. Lankester: Archeology in Aden Protectorate (HM stationay Office, London, 1964).

Helfritz, Hans: The Yemen, A Secret Journey, trans. by M. Heron (Allan and Unwin, London, 1958).

Hitti, Philip: Makers of Arab History (St. Martin's Press, New York).

Hundter, F. M.: An Account of the British Settlement of Aden in Arabia (Trubner and Co. London, 1877).

Hunter, F. M.: Notes on Socotra (London, 1877).

Ingrams, Harold: Arabia and the Isles. (John Murray, London).

Ingrams, Harold: Hadhramout (HM Stationary Press, 1937).

Jacob, Harold F: Perfumes of Araby (London, Martin Secker, 1915).

Jacob, Harold F: kings of Arbia (Milner and Bonn, London, 1923).

Jamme, A.: Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Baltimore, 1962).

Johnson, H.L.: Geography of Strabo (Lope Classical Library).

Johnson, Charles Hepburn: The View from Steamer Point (Collins, London, 1964).

Knox-Mawer, June: The Sultans Came to Tea (John Murray, London, 1961).

Lewis, I. M.: The Modern History of Somaliland (Weidenfild and Nicolson, London 1965).

Marcho, Eric: Bibliography on Yemen and Notes of Mocha (University of Miami Press, Florida, 1960).

Philby, H. St. John: Sheba's Daughters (Methuen, London, 1939).

Pickthall, Marmaduke: The Glorious Qur'an. (Islamic Publishing House, Basavangudi, Bangalore, India, 1952).

Wenner, Manfred W: Modern Yemen, 1918–1966 (John Hopkins Press, Baltimore, 1967).
Wissmann, H.V.: Himyar, Ancient History (Museon, 77, 1964).
Yule, H.: Marco Polo (London, 1903).

المحتويات

